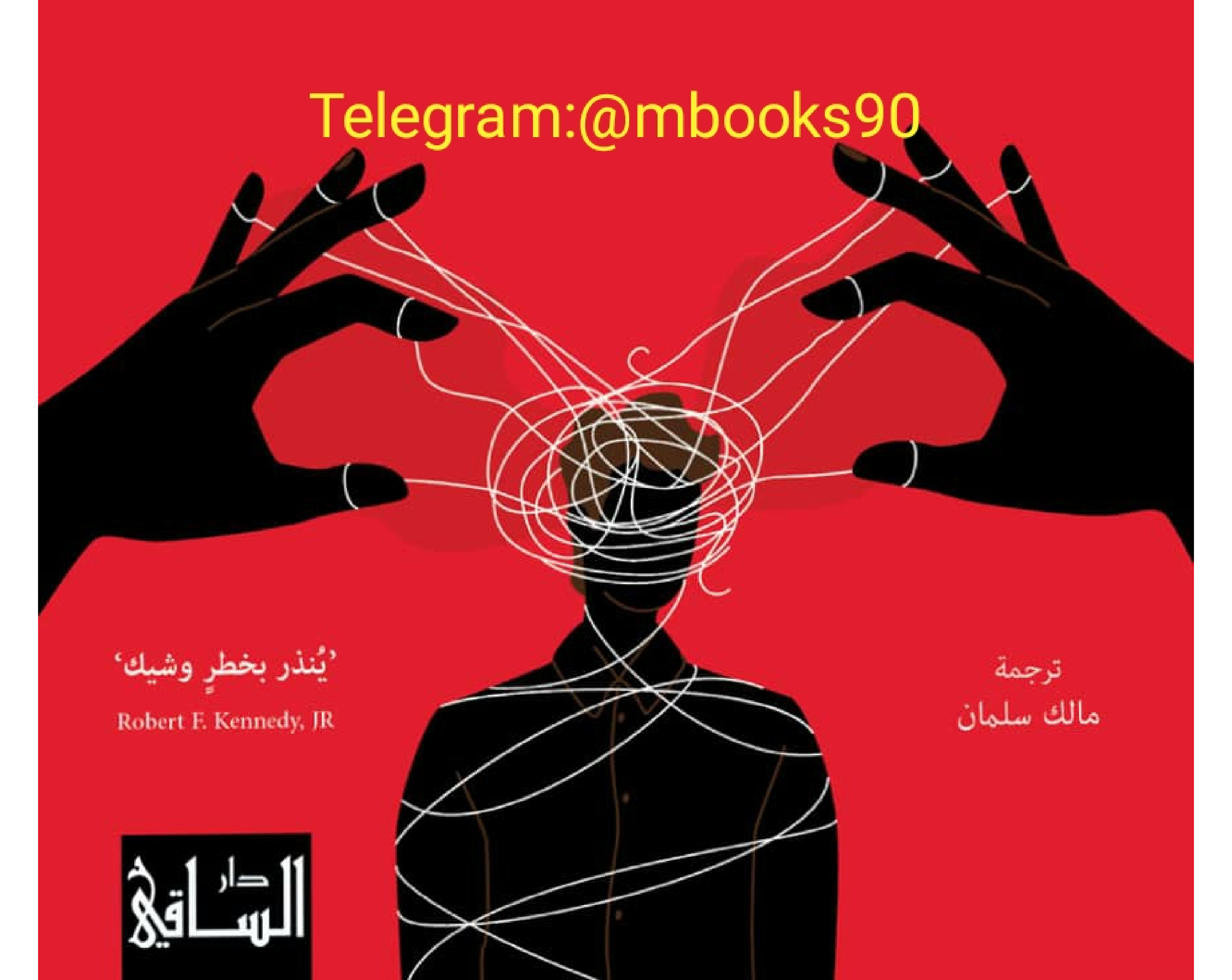
ماتياس دسميت

سيكولوجية التوتاليتارية



'يُنذر بخطرٍ وشيك'
Robert F. Kennedy, JR

ترجمة
مالك سلمان

دار الساقي

في مديح

"سيكولوجية التوتاليتارية"

وأنا أمشي في ردهات أحد المراكز الطبية الرئيسة، أرى عيوناً تشيح بنظرها عني. وعندما نخوض في نقاشاتنا الاعتيادية عن المرضى، سرعان ما يولّد موضوعُ لقاح كوفيد-19 موقفاً متردداً: 'لا نريد الحديث عن هذا الموضوع'. أرى الخوفَ والعار ودورة لا متناهية من التفكير الجماعي أكثر عدوى بين الأطباء من الرذاذ الناجم عن فيروس سارس-كوفيد-2 في مصعدٍ مكتظ. لقد أصاب ماتياس دسميت Mattias Desmet الهدفَ كما يفعل صاروخٌ موجّه. فالمجتمع الطبي يخضع لتجَمهرٍ ولّد غموضاً أكبرَ من ذلك الغبَش الذي حلّ بعموم الناس. في هذا الكتاب، أنشأ دسميت إطاراً توضيحياً، يتدلى منه النسجُ اللاصق، يبيّن بوضوح ما يحدث ويرسم الخطوات التالية التي يجب على كل منا اتخاذها لإبطال 'التعويذة السحرية' واستعادة الحالة الطبيعية. هذا كتاب جدير بالقراءة في وقتنا الحاضر.

بيتر أ. مَكّلا Peter A. McCullough، طبيب، ماجستير في الصحة العامة، كبير المستشارين الطبيين، "مؤسسة الحقيقة من أجل الصحة"

يقدّم هذا الكتاب، الذي يتجاوز الجدالات الطبية، رؤية مهمة وضرورية للظاهرة الاجتماعية التي نسميها كوفيد.

تشارلز آيزنشتاين Charles Eisenstein، مؤلّف كتاب *Sacred Economics*[علم الاقتصاد المقدس] وكتاب *The Coronation*[حفل التتويج]

ماتياس دسميت هو الخبير العالمي في ظاهرة الجمهرَة، وأحدُ أهم مثقفي القرن الواحد والعشرين وأكثرهم صدقاً وعمقاً. فإن كنت تريد أن تفهمَ آلية تشكل الردود المجتمعية على وباء كورونا – والأهم من هذا، الطريقة الكفيلة بمنع حدوث هذه المهزلة مرة أخرى – عليك بقراءة **سيكولوجية التوتاليتارية**. يبيّن لنا دسميت طريقة استعادة إنسانيتنا في عالمٍ آليّ وخالٍ من الإنسانية.

د. راينر فيلمش Dr. Reiner Fuellmich، محامي ادعاء؛ ساهم في تأسيس لجنة برلين للتحقيق في فيروس كورونا

في هذا الكتاب الرائع، يسأل دسميت كيف وصلنا إلى عتبة التوتاليتارية. فهو يأخذ

القارئ في جولة مثيرة عبر عوالم التاريخ والعلم والسيكولوجيا ويقدم إجاباتٍ ضرورية ومفاجئة.

د. هيذر هاينغ Dr. Heather Heying، متخصصة في البيولوجيا التطورية؛ شاركت في تأليف كتاب *A Hunter–Gatherer's Guide to the 21st Century* [دليل الصياد–الجامع إلى القرن الواحد والعشرين]

يفتح دسميت عيونَ الكثير من الناس على المكان الخطر الذي ألفينا أنفسنا فيه الآن، ويقدّم خلاصة رائعة للأسباب التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه.

روبرت ف. كينيدي، الابن Robert F. Kennedy, Jr

تشكل نظرية ماتياس دسميت في الجمهرَة أهمَّ عدسةٍ يمكننا أن نفهمَ من خلالها وباءَ كوفيد–19 والانحرافات الاجتماعية التي رافقته. إذ يوضح دسميت في كتابه **سيكولوجية الجماهير** الطرقَ والأسبابَ التي تدفع الناسَ إلى التخلي الطوعي عن حريتهم، وكيف يمكن للجماهير أن تمهّد الطريق لصعود القائد التوتاليتاري، والأهم من ذلك كله، كيف يمكننا مقاومة هذه الظواهر والمحافظة على إنسانيتنا المشتركة. هذا أهم كتاب صدر في سنة 2022.

د. روبرت مالون Dr. Robert Malone، مؤلف كتاب *Lies My Gov't Told Me*[الأكاذيب التي أخبرتني بها حكومتي]

إن نظرية دسميت [في الجمهرَة المغناطيسية] في غاية الأهمية... فحالما بدأت في تقصيها، وقعت عليها في كلّ مكان.

إيريك كلابتون Eric Clapton

مقدمة

خطرت لي فكرة تأليف كتاب حول التوتاليتارية للمرة الأولى في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 2017. أو بالأحرى، ظهرت للمرة الأولى عندها في مذكراتي العلمية؛ وهي مذكرات أدوّن فيها ما يمكن أن يفيدني لاحقاً في كتابة مقال أو كتاب.

في ذلك الوقت، كنت أقيم في شاليه في الأردين يملكها اثنان من أصدقائي. في ساعات الصباح الأولى، عندما كانت الشمس تضيء الغابات المحيطة بالمكان، فتحت دفتر مذكراتي لأدوّن فيه الأفكار التي راودتني خلال المساء. ربما كانت السكينة التي تخيّم على المكان هي التي زادت من حساسيّتي، ولكن في ذلك الصباح التشريني الهادئ استيقظ في وعيٍ حادّ لنوع جديد من التوتاليتارية التي نثرت بذورَها مما أدى إلى تصلّب وانكماش النسيج المجتمعي.

حتى في سنة 2017، كان الأمر جلياً وعصياً على النكران: كانت قبضة الحكومات على الحياة الخاصة تكتسب قوة متسارعة. كنا نختبر تآكلاً في حق الخصوصية (خاصة منذ أحداث 11/9)، وكانت الأصوات البديلة تخضع للرقابة والقمع (خاصة في سياق النقاش المناخي)، وكانت تدخلاث القوى الأمنية تتزايد بشكل درامي، بالإضافة إلى أشياءَ أخرى.

لكن الحكومات لم تكن الجهات الوحيدة التي تقف خلف هذه التطورات المتسارعة. فقد استدعى الصعودُ المتسارع لثقافة "الوعي الاجتماعي" ("woke" culture)، وتنامي الحركة المناخية، المطالَبة بحكومة جديدة صارمة نشأت من داخل الشعب نفسه. إذ اعتُبرَ الإرهابيون، والتغيرات المناخية، والرجال الغيريّون (heterosexual men)، ولاحقاً الفيروسات، ظواهرَ خطِرة لا يمكن معالجتها بالوسائل والطرق القديمة. وهكذا أصبح "التعقب" التكنولوجي للسكان مقبولاً بتزايد، بل شيئاً ضرورياً أيضاً.

تلامحَت الرؤية الظلامية (dystopian vision) التي تخيّلتها الفيلسوفة الألمانية-اليهودية حنة آرندت Hannah Arendt في أفق المجتمع: نشوء توتاليتارية جديدة لم يعد يتزعّمها "قادةُ حشود" حيويون من أمثال جوزيف ستالين Joseph Stalin أو أدولف هتلر Adolf Hitler، بل مجموعة من البيروقراطيين والتكنوقراط البليدين.

في ذلك الصباح التشريني، رسمتُ مخططاً لكتاب يحاول استكشافَ الجذور السيكولوجية للتوتاليتارية. وقد تساءلتُ آنذاك: لماذا ظهرت التوتاليتارية، كشكل من

أشكال الدولة، للمرة الأولى في النصف الأول من القرن العشرين؟ ثم: ما الفرق بينها وبين الأنظمة الدكتاتورية الكلاسيكية القديمة؟ وقد أدركتُ أن جوهر الفرق يكمن في الحقل السيكولوجي.

تبني الدكتاتوريات على آلية سيكولوجية بدائية تتمثل في تخليق مناخٍ من الخوف بين أفراد الشعب مؤسس على الوحشية الكامنة للنظام الدكتاتوري. أما التوتاليتارية فتتجذّر في العملية السيكولوجية الخبيثة المتمثلة في الجمهرَة (mass formation). ومن شأن التحليل الشامل والدقيق فقط أن يمكّننا من فهم السلوكيات الصادمة للشعب الخاضع للتنظيم التوتاليتاري، بما في ذلك استعداد الأفراد للتضحية بمصالحهم الشخصية تضامناً مع الجماعة (أي، الجماهير)، والجهوزية العالية لقمع الأصوات المعارضة، والحساسية المفرطة للتلقين العقائدي الذي يَنبَني على الدعاية ويتوشح بلبوس علمي.

إن الجمهرَة، في جوهرها، نوعٌ من التنويم الجماعي الذي يدمّر الوعيَ الذاتي الأخلاقي عند الأفراد ويقوّض قدرتَهم على التفكير النقدي. وهذه العملية ماكرة بطبيعتها لأن الشعوبَ تقع فريسة سهلة لها. وتبعاً ليوفال نوح هراري Yuval Noah Harari، فإن معظم الناس لا يلاحظون عملية الانتقال إلى النظام التوتاليتاري. ومع أننا نربط التوتاليتارية بالأعمال الشاقة، والاعتقال، ومعسكرات الإبادة، إلا أن هذه الظواهر لا تتعدى كونَها المرحلة الأخيرة التي تتوّج عملية طويلة وتدريجية.

***

في الأشهر والسنوات التي تلت تدويني لهذه الملاحظات الأولية، ظهر المزيدُ من الإشارات إلى التوتاليتارية في مذكراتي. كما تطاولت خيوطُها أكثر فأكثر لترتبطَ عضوياً بمجالات أخرى تقع ضمن اهتماماتي الأكاديمية. فعلى سبيل المثال، لامسَت المشكلة السيكولوجية للتوتاليتارية أزمةً نشبت في الحقل العلمي في سنة 2005، وهو موضوع سبق لي أن خضتُ فيه بعمق في أطروحة الدكتوراه. فقد ساد الاستهتار والاحتيال وكثرت الأخطاء والاستنتاجات المتحيزة في البحث العلمي إلى درجة أن النسبة الكبرى من الأوراق البحثية – وصولاً إلى 85% في بعض الحقول العلمية – توصلت إلى نتائجَ مغلوطة كلياً. والمذهل في الأمر كله، من وجهة نظر سيكولوجية، أنّ معظم الباحثين كانوا على قناعة تامة بأنهم يقومون بأبحاثهم بالشكل الصحيح. لكنهم لم يدركوا، بطريقة ما، أن أبحاثهم لم تقرّبهم من الحقائق بل كانت تعمل على تخليق واقع جديد وهمي.

وهذه - بالطبع - مشكلة خطرة، خاصة بالنسبة إلى العلماء المعاصرين الذين يؤمنون بالعلم بصفته الطريقة الأكثر موثوقية لفهم العالم. وفوق ذلك، فإن المشكلة السابقة مرتبطة بشكل مباشر بظاهرة التوتاليتارية. وفي حقيقة الأمر، هذا هو تماماً ما تكشفه آرندت: إن أساس التوتاليتارية يتكون من الإيمان الأعمى بنوع من "الوهم العلمي" الإحصائي-العددي الذي ينطوي على "ازدراء شديد للحقائق": "إن الموضوع المثالي للتوتاليتارية لا يتمثل في الشخص النازي أو الشيوعي المقتنع، بل في الأشخاص الذين لم يعد التمييز بين الوهم والحقيقة وبين الصح والخطأ موجوداً بالنسبة إليهم".(1)

تكشف النوعية الرديئة للبحث العلمي مشكلة أكثر أهمية وخطورة: إن رؤيتنا العلمية للعالم تنطوي على مواطن ضعفٍ جسيمة تتجاوز عواقبُها حقلَ البحث الأكاديمي. كما أن مواطن الضعف هذه تشكل أصلَ قلق جمعيٍ عميق أصبح، في العقود الأخيرة، محسوساً بصورة متزايدة في مجتمعنا. إذ أصبحت رؤية الناس للمستقبل الآن أكثر تشاؤماً وافتقاراً للمنظور الدقيق. فإن لم تتلاشَ الحضارة من جراء ارتفاع منسوب البحار، فإنها ستتداعى حتماً تحت وطأة اللاجئين. لم تعد السردية الكبرى للمجتمع - أي، قصة التنوير (Enlightenment) - تولّد التفاؤلَ والحسَّ الإيجابي السابقين، على أقل تقدير. فقد أصبحت غالبية البشر حبيسة عزلة اجتماعية تامة تقريباً؛ إذ نشهد تزايداً ملحوظاً في التغيّب نتيجة المعاناة العقلية، وتصاعداً غير مسبوق في استخدام العقاقير النفسانية، ووباءً منهكاً يشلّ شركات ومؤسسات حكومية بأكملها.

في سنة 2019، بدت هذه الأزمة واضحة في الوسط المهني الذي أعمل فيه. فقد رأيت الكثير من أصدقائي يتركون عملَهم نتيجة مشكلات نفسية تحول دون قدرتهم على إنجاز الأعمال اليومية العادية. فعلى سبيل المثال، كان عليَّ الانتظار في تلك السنة نحو تسعة أشهر للحصول على توقيع على عقد ضروري للشروع في مشروع بحثي. إذ كانت الأقسامُ الجامعية التي تُراجع العقد قبل منح موافقتها تعاني من التغيّب المزمن لأعضائها نتيجة نوع من أنواع المعاناة العقلية، مما حال دون توقيع العقد في نهاية الأمر. وخلال تلك الفترة، ارتفعت جميعُ مؤشرات الضغط ارتفاعاً ملحوظاً. وأي شخص ملمٍّ بنظرية النُّظم يعرف ما يعنيه ذلك: إن النظام يتجه إلى نقطة التحول. فهو على وشك إعادة تنظيم نفسه والبحث عن توازن جديد.

في نهاية كانون الأول/ ديسمبر 2019 - وفي الشاليه التي أتيت على ذكرها آنفاً -

ألقيتُ بنبوءة أمام أصدقائي تفيد بأننا سوف نستيقظ في يوم من الأيام على مجتمع جديد. حتى إن هذا الحدس الفطري دفعني إلى المبادرة إلى العمل. وبعد عدة أيام، ذهبت إلى المصرف لأدفعَ الرهنَ العقاري المترتب على منزلي. فصوابيّة هذا الفعل أو عدمها مرتبطان بالرؤية التي تحملها. ربما لم يكن ذلك التصرف حكيماً من وجهة نظر اقتصادية بحتة أو من ناحية السياسة الضريبية، لكن لم آبَه لذلك كله. ففي المقام الأول، كنت أريد استردادَ استقلاليتي المسلوبة؛ إذ أردت التحرر من المديونية والانفصال عن نظام مالي يلعب – من وجهة نظري – دوراً في تخليق مأزق يلوح في الأفق. استمع مديرُ المصرف إلى قصتي، بل وافقني الرأي. لكنه أصرّ على معرفة السبب الذي يدفعني إلى الإصرار على موقفي ذاك. فحتّى بعد أن تحدثنا على مدى ساعة ونصف، لم يحصل على جواب مقنع لسؤاله. وفي نهاية المطاف، تركته غارقاً في حيرته بعد مضيّ وقت طويل على موعد إغلاق مكتبه الفرعي الذي سيغلق نهائيّاً بعد فترة وجيزة فقط.

***

بعد بضعة أشهر – في شباط/ فبراير 2020 – بدأت أساساتُ القرية العالمية بالاهتزاز. وبدا العالمُ كأنه على وشك الوقوع في أزمة خطِرة تُنذر بعواقبَ وخيمة. وخلال أسابيع قليلة فقط، شاعت قصة فيروس على وشك الانتشار – وهي قصة مبنية على بعض الحقائق من دون شك. ولكن على أية حقائق؟ تراءت لنا "الحقائق" للمرة الأولى من خلال صور قادمة من الصين. فقد أرغم فيروسٌ الحكومة الصينية على اتخاذ تدابيرَ صارمة. أغلِقت مدنٌ بأكملها، كما شُيّدت مشافٍ جديدة على عجالة، وأخذ بعض الأشخاص في بزّات بيضاء يعقمون الأماكنَ العامة. وهنا وهناك، طلعت شائعاتٌ تفيد أن الحكومة الصينية التوتاليتارية تبالغ في ردود أفعالها وأن الفيروس الجديد لا يتعدى كونه نوعاً من أنواع الإنفلونزا. وفي الوقت نفسه، سرَت آراء مناقضة تفيد أن الأمر أسوأ مما يبدو عليه، وإلا ما الذي يدفع أية حكومة لاتخاذ تلك التدابير الصارمة؟ في تلك المرحلة، بدا ذلك كله نائياً عن شواطئنا واعتقدنا أن القصة السائدة لم تقدم لنا جميع الحقائق التي تُمكّننا من الإحاطة بالموضوع بشكل كافٍ.

حتى تلك اللحظة التي وصل فيها الفيروس إلى أوروبا حيث بدأنا الآن نسجل الإصابات وحالات الوفاة في بلداننا. شاهدنا صورَ غرف الطوارئ الممتلئة في إيطاليا، وقوافل السيارات العسكرية التي تنقل الجثث، والغرف المكتظة بالنعوش. وقد حذر العلماءُ البارزون

في Imperial College أن الفيروس سيقتل عشرات الملايين من البشر في حال لم تُتخذ إجراءات صارمة وقاسية. في برغامو، كانت صفارات سيارات الإسعاف تُسمع ليلَ نهارَ وتُسكِت الأصواتَ العامة التي تتجرأ على التشكيك بالحقائق المقدمة. ومنذ ذلك الوقت، بدأت القصص والحقائق تتداخل وتجلو أية شكوك تلوح في الأفق.

صار الخيالُ واقعاً؛ فقد شهدنا التحول الفوري لغالبية بلدان العالم واحتذاءَها بالإجراءات الصينية من خلال فرض الإقامة الجبرية على أعداد هائلة من البشر فيما عُرف لاحقاً بمصطلح "الإغلاق" (lockdown). خيَّمَ صمتٌ سوريالي - مشؤومٌ ومريح في الوقت نفسه. خلت السماءُ من الطائرات، وجفّت عروق الحركة المرورية، وهجع الغبارُ الناجم عن مطاردة الرغبات العابرة؛ وفي الهند، صار الهواء نقياً إلى درجة أن جبال الهمالايا أصبحت مرئية في بعض الأماكن للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً.(2)

لكن الأمر لم يتوقف هناك. فقد شهدنا أيضاً نقلة مذهلة في السلطة. إذ استُدعيَ خبراء الفيروسات على غرار خنازير جورج أورويل - الحيوانات الأكثر ذكاءً في المزرعة - ليأخذوا مكان السياسيين المراوغين. فهؤلاء الخبراء سيديرون مزرعة الحيوانات اعتماداً على معلومات ("علمية") دقيقة خلال انتشار الوباء. ولكن سرعان ما اتضح أنهم يعانون من بعض القصورات الإنسانية الشائعة. فقد ارتكبوا أخطاء، في الإحصائيات والرسوم البيانية التي قدموها، لا يرتكبها حتى الأشخاصُ "العاديّون". إذ وصل الأمر بهم في بعض الحالات إلى إرجاع جميع الوفيات إلى الفيروس المنتشر، بمن في ذلك الأشخاص الذين قضوا جراء نوبات قلبية - على سبيل المثال.

كما أنهم حنثوا بالوعود التي أطلقوها. فقد وعد هؤلاء الخبراء أن أبواب الحرية سوف تُفتح من جديد بعد جرعتين من اللقاح، لكن الأشياء لم تتغير بعد ذلك فجاؤوا بضرورة الجرعة الثالثة. وعلى غرار خنازير أورويل تماماً، كانوا يغيرون القوانين بين ليلة وضحاها في بعض الأحيان ودون أي توضيح. أولاً، على الحيوانات الالتزام بالإجراءات المتخذة لأن عدد الأشخاص المرضى يجب ألا يتجاوز قدرة نظام الرعاية الصحية (تسطيح المنحنى). ولكن في أحد الأيام، استيقظ الجميعُ ليكتشفوا كتابة على الحائط تفيد بتمديد الإجراءات من أجل استئصال الفيروس (سحق المنحنى). وفي نهاية المطاف، كانت القوانينُ تتغير بتواتُر إلى درجة بدا معها أن الخنازير هي الحيوانات الوحيدة التي تعرف هذه القوانين. بل حتى ذلك لم يكن مؤكداً تماماً.

بدأت الريبة تأكلُ البعض. كيف يمكن لهؤلاء الخبراء ارتكاب أخطاء لا يمكن للإنسان العادي ارتكابها؟ أليسوا علماء ومتخصصين، على غرار أولئك الأشخاص الذين أخذونا إلى القمر وقدّموا لنا الإنترنت؟ لا يمكن أن يكونوا بهذا الغباء، أليس كذلك؟ ما هي نهاية اللعبة؟ فتوصياتُهم تقودنا من انحدار إلى آخر وفي الاتجاه نفسه؛ فمع كل خطوة نخطيها، نخسر المزيدَ من حرياتنا، إلى أن نبلغَ نقطة تُختَزل فيها الكائنات الإنسانية إلى شيفراتٍ سريعة الاستجابة (QR codes) في تجربة علمية تكنوقراطية ضخمة.

هذا ما آل إليه معظم الناس في نهاية المطاف، إذ توصّلوا إلى قناعات مطلقة حول أشياءَ متناقضة تماماً. فقد اقتنع بعضُ الأشخاص أننا نتعامل مع فيروس قاتل، بينما كان البعض الآخر متأكداً أنه ليس أكثر من إنفلونزا موسمية، فيما اعتقد آخرون أيضاً أن الفيروس غير موجود أصلاً وأننا أمام مؤامرة كونية. هذا بالإضافة إلى مجموعة من الأشخاص الذين لم تغادرهم الشكوك واستمرّوا في التساؤل: كيف يمكننا أن نفهمَ جيداً ما يحصل في مجتمعنا؟

***

لم تأتِ أزمة كورونا من العدم. فهي تتساوق مع سلسلة من الردود المجتمعية اليائسة والمدمرة لمواضيعَ مرتبطة بإثارة الخوف: الإرهاب، والاحتباس الحراري، وفيروس كورونا. وحالما يتراءى عاملٌ مخيفٌ في المجتمع، تتخلّقُ ردة فعل واحدة وآلية دفاع واحدة تفرزها طريقة تفكيرنا الحالية: السيطرة المتزايدة. يتم تجاهل الحقيقة القائلة إن قدرة الإنسان على تحمل قدر معيّن من السيطرة محدودة. فالسيطرة القسرية تقود إلى الخوف والخوف يقود إلى مزيد من السيطرة القسرية. وبهذه الطريقة، يقع المجتمعُ ضحية حلقة مفرغة تقود إلى التوتاليتارية في نهاية المطاف، أي إلى السيطرة الحكومية المطلقة، مما يؤدي حتماً إلى التقويض التام لبنية البشر النفسية والفيزيولوجية. [١]

علينا أن نعتبر الخوفَ الحالي والقلق النفسي مشكلةً بحد ذاتها لا يمكن اختزالها في فيروس أو أي "تهديد" آخر. فخوفنا يتخلّق على مستوىً مختلف تماماً يتعلّق بفشل السردية الكبرى لمجتمعنا. هذه هي سردية العلم الميكانيكي التي يُختزَل فيها الإنسان إلى متعضّية بيولوجية؛ سردية تتجاهل الأبعادَ النفسية والرمزية والأخلاقية للكائنات البشرية وتولّد تأثيراً مدمراً على مستوى العلاقات الإنسانية. وتنطوي هذه السردية على شيء يؤدي إلى عزلة الإنسان وابتعاده عن الآخرين، وعن الطبيعة؛ شيء يَحول دون تناغم الإنسان مع

العالم المحيط به؛ شيء يُحوّل الإنسانَ إلى ذات متشظية. هذه الذات المتشظية، تشكّل، تبعاً لآرندت، حجرَ البناء الأساسي للدولة التوتاليتارية.

التوتاليتارية ليست مصادفة تاريخية. فهي، في التحليل النهائي، النتيجة المنطقية للتفكير الميكانيكي والاعتقاد الواهم بالقدرة الكلية للعقلانية الإنسانية. ومن هذا المنظور، فإن التوتاليتارية هي الميزة الأساسية لتقليد التنوير. حاول عدد من المؤلفين مقاربة هذه الفكرة، إلا أنها لم تخضع بعد للتحليل السيكولوجي. يهدف هذا الكتاب إلى ملء تلك الفجوة. فسوف نعمل على تحليل عارض التوتاليتارية وموقعته ضمن السياق الأوسع للظاهرة الاجتماعية التي يشكل جزءاً منها.

يتناول الجزء الأول (من الفصل الأول إلى الفصل الخامس) الطريقة التي تقوم فيها الرؤية الميكانيكية-المادية للإنسان والعالم بتخليق الشروط الاجتماعية-النفسية الخاصة التي تنتعش فيها ظاهرة الجمهرَة والتوتاليتارية. ويفصل الجزء الثاني (من الفصل السادس إلى الفصل الثامن) عملية الجمهرَة وعلاقتها بالتوتاليتارية. وأخيراً، يتقصى الجزء الثالث (من الفصل التاسع إلى الفصل الحادي عشر) طريقة تمكّننا من تجاوز الوضع الحالي للإنسان والعالم بهدف تحييد التوتاليتارية واستئصالها. وفي حقيقة الأمر، يشير الجزء الأول والجزء الثالث إلى التوتاليتارية بشكل عابر وهامشي فقط. فهذا الكتاب لا يهدف إلى التركيز على الظواهر والممارسات المرتبطة بالتوتاليتارية عادة – معسكرات الاعتقال، والتلقين العقائدي، والدعاية – بل على العمليات الثقافية-التاريخية الأوسع التي تنشأ منها التوتاليتارية. وتمكّننا هذه المقاربة من التركيز على الحقيقة الأكثر أهمية: تنشأ التوتاليتارية من التطورات والميول التي تحدث في حيواتنا اليومية.

أخيراً، يستكشف هذا الكتاب إمكانيات الخروج من المأزق الثقافي الحالي الذي وقعنا فيه. كانت الأزمات الاجتماعية المتفاقمة في بداية القرن العشرين تجلياً لاضطراب نفساني وإيديولوجي عميق – تحولاً في الصفائح التكتونية التي ترتكز عليها رؤيتنا للعالم. إننا نختبر اللحظة التي تنتفض فيها الإيديولوجيا القديمة للمرة الأخيرة قبل أن تسقط وتتهاوى. ولذلك فإن أية محاولة لمعالجة المشكلات الاجتماعية القائمة، بغض النظر عن طبيعتها، على أساس الإيديولوجيا القديمة سوف تزيد الأمورَ سوءاً. إذ لا يمكن للمرء حلّ مشكلة باستخدام العقلية التي خلقتها. ولذلك فإن التخلص من الخوف والشك لا يكمن في تعزيز التحكم (التكنولوجي). فالمهمة الحقيقية التي تواجهنا، نحن الأفراد والمجتمع، تتمثل في

بناء رؤية جديدة للإنسان والعالم، وإيجاد أساس جديد لهويتنا، وتشكيل مبادئ جديدة للعيش مع الآخرين، وتعزيز القدرة الإنسانية على قول الحقيقة.

الجزء الأول

العلم وآثاره السيكولوجية

الفصل الأول

العلم والإيديولوجيا

في يوم صيفي من سنة 1582، يجلس طالبٌ شاب يحمل اسمَ غاليليو غاليلي Galileo Galilei في كاتدرائية بيزا. أمامه يقف كاهنٌ يقرأ الإنجيل. وفوق رأس الكاهن تتدلى ثريا معلقة بالسقف المقنطر بسلسلة رفيعة. يهب النسيمُ الصيفي الدافئ عبر الأبواب المفتوحة فتبدأ الثريا بالاهتزاز. في بعض الأحيان، يؤرجح النسيمُ الثريا بعيداً عن موقعها فوق المعبد؛ وفي أحايينَ أخرى يهزّها بلطف فقط. يتلاشى صوتُ الكاهن في الخلفية. تلاحق عينا غاليليو ضوء الثريا المتأرجح إلى الخلف والأمام. يتحسّس نبضَه ويعدّ ضربات قلبه. وبغض النظر عن المسافة التي يصل إليها النُّواس في تأرجحه، فإنه يستغرق دوماً الوقت نفسه للعودة إلى نقطة الانطلاق.

اكتسبت أحداثُ كاتدرائية بيزا فيما بعد أبعاداً أسطورية، حيث جسّدت الاضطرابَ الثقافي والاجتماعي الذي وسمَ القرونَ اللاحقة. فقدَ الخطابُ الديني، بنظامه المكوّن من عقائدَ مستمدةٍ من النصوص القديمة، سلطتَه وتأثيره. فعوضاً عن كون المعرفة شيئاً يكشفها الله للإنسان، صارت شيئاً يمكن للإنسان الوصول إليه من تلقاء نفسه. فكلّ ما عليه أن يفعله هو مراقبة الظواهر بعينيه والتفكير بشكل منطقي.

حوّل الخطابُ الديني نظرة الإنسان إلى الداخل على مدى آلاف السنين، فتركّزت على مفهوم الإنسان بصفته كائناً خطّاءً يكذب ويخدع ويستهلك نفسه في الإغواءات الدنيوية، وعليه أن يتحضّر للموت الذي سيأتيه في نهاية المطاف. فإذا عانى الإنسانُ في هذا العالم، الذي خلقه الله، فذلك لأنه فشل في الارتقاء إلى المستوى الأخلاقي المطلوب نتيجة انغماسه في الخطيئة. لم يكن العالمُ يشكل موضوعاً للتساؤل والتمحيص، بل الإنسان نفسه.

لكن ذلك تغير كله مع مجيء العلم: بدأ الإنسانُ يؤمن بقدرته على تكييف العالم من خلال اتكائه على سلطة العقل، دون أن يخضع هو إلى أية تغيرات. استجمع شجاعتَه وأمسك بزمام مصيره: سوف يستخدم طاقاته الفكرية لفهم العالم وتشكيل مجتمع عقلاني جديد حمل أثقالَ عقائد تفتقر إلى أية أسس عقلانية. جاء الوقت لتبديد الظلمة بنور العقل. "التنوير هو تحرر الإنسان من الوصاية التي فرضها على نفسه. والوصاية هي عجز الإنسان

عن استخدام فهمه دون توجيه من قوة أخرى... 'تجرأ وفكّر! كن جريئاً واستخدم عقلك!' هو شعار التنوير"، كما قال فيلسوف التنوير الألماني العظيم إيمانويل كانط Immanuel Kant.(1)

تجرأ غاليليو على التفكير. فبعد القدّاس، هرع إلى غرفته وبدأ تجاربه على النّواسي: بدّلَ وزنَ النّواس، والقوة التي تحرك النواس، وطولَ السلسلة التي تحمله. وبعد بضعة أشهر فقط، تمكّن من تشكيل القانون الأساسي الذي يحكم حركة النواس: إن طولَ السلسلة (ذراع النواس) هو العامل الوحيد الذي يؤثر في المدة التي تستغرقها الحركة.

قام مفكرون عظام آخرون، من أمثال نيكولاوس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus وإسحق نيوتن Isaac Newton، بإزاحة الغشاوة العقائدية عن أعينهم لكي يتمكنوا من توصيف العالم من حولهم بعقل منفتح. وقد برهنوا على إمكانية التقاط أوجه معينة من الواقع في صيغ رياضية وميكانيكية بدقة هائلة. بدا الأمرُ محسوماً ونهائياً: إن كتابَ الكون مكتوبٌ بلغة الرياضيات.

لم يحقق هؤلاء المفكرون إنجازات فكرية هائلة فقط، بل سجلوا وقفة إنسانية وأخلاقية فريدة تجاه العالم وموضوعاته المادية. وتحلّوا بالشجاعة الكافية للتخلص من الأهواء والعقائد السائدة في عصرهم. كما اعترفوا بجهلهم وتميزوا بالفضول والانفتاح على ما تتكشف عنه الظواهرُ نفسُها. ولّد "غياب المعرفة" هذا نوعاً جديداً من المعرفة التي كانوا مستعدين لفعل أي شيء لتحصيلها وجاهزين للتخلي عن حريتهم من أجلها، وحتى عن حيواتهم إن لزم الأمر.

تكشّفَ هذا العلمُ الجديد – هذه المعرفة المتفتحة – عن جميع سمات ما أسماه الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو Michel Foucault "قول الحقيقة".(2) و"قول الحقيقة" هو طريقة في التكلم تعمل على تقويض الإجماع الاجتماعي القائم والضمني. فمن ينطق بالحقيقة يحطم القصة المحصنة التي تلجأ إليها الجماعة وتجد فيها السكينة والأمان. وهذا ما يجعل قول الحقيقة أمراً في غاية الخطورة. إذ إنّه يبث الرعبَ في الجماعة ويولّد الغضبَ والعدائية.

إن قول الحقيقة خطِر، لكنه ضروري أيضاً. فبغض النظر عن أهمية إجماعٍ اجتماعي ما في وقت معين، إن لم يتم تفكيكه وتجديده في الوقت المناسب فسوف يتعفّن ويرخي

بظلاله الخانقة على المجتمع. وفي أوقات كهذه، تنشأ الحقيقة كصوتٍ صادق يحطم اللازمةَ الرتيبة لقصة متجذرة ويمنح صوتاً جديداً للكلمات القديمة والأزلية. "الحقيقة جديدة دوماً"، كما قال ماكس جيكوب .Max Jacob(3)

يمكن تعريف العلم، في جوهره، بصفته انفتاحاً عقلياً. فقد عملت الممارسة الأصلية للعلم، التي شكلت أساسَ التنوير، على التحييد المؤقت للتحيز القائم تجاه الأشياء المدروسة. إذ كانت منفتحة على أكبر قدرٍ من التنوع في الأفكار والاعتقادات والفرضيات. كما عززت مبدأ الشك واعتبرت غيابَ اليقين نوعاً من الفضيلة. وتركت الحقائق تتحدث عن نفسها وتقرر بنفسها نوعَ الفكرة أو النظرية التي ترغب في التلاحم معها. وبهذه الطريقة، تخلّقت الحقائقُ في كلماتٍ جاءت بمثابة حقائقَ طازجةٍ ومتبرعِمة.

لم تكن الحقائق هي الوحيدة التي تتمتع بالحرية لتأكيد نفسها. "ربما لا أتفق مع ما تقوله، لكنني سأدافع حتى الموت عن حقك في أن تقوله"، أعلن فولتير Voltaire (أو، بالأحرى، أعلنت كاتبةُ سيرة حياته إيفلين بياتريس هول Evelyn Beatrice Hall). فقد حرر العلمُ الإنسانَ أيضاً من سذاجته الطوعية. حيث قوّض القوانينَ التي فرضتها العقائد الدينية والتي تحولت، في الفضاء العام، إلى نوع من القسر والقمع، والتظاهر والنفاق، والخداع والأكاذيب.

طرح هذا الانفتاحُ العقلي ثماراً وفيرة. فقد استُخدِمَت الطريقة العلمية لفهم واستقراء حركة الأجرام السماوية، وتوصيف النّواسي، وحساب تسارع الجاذبية، بالإضافة إلى دراسة سلوك الحيوانات، وفهم آلية عمل العقل، وتخطيط بنية اللغات، والمقارنة بين الثقافات. كما يمكن تكييفها بمرونة فائقة مع جميع المجالات الأخرى قيد الدراسة، ومواضيع الأبحاث، كما أنها قادت إلى اكتشافات هائلة في كل حقلٍ من الحقول. تم رسمُ الأشكال والألوان بدقة أكبرَ بالاستعانة بالعلم، كما بدت الأصواتُ أكثر نقاءً مما اعتادت على سماعه الآذان.

قاد هذا الانفتاح العقلي، وهذا السعي المخلص وراء العقل (Reason) – من خلال المحاولات المتواترة عبر عدة قرون – إلى اكتشافاتٍ ورؤىً غاية في السمو، كان بعضُها مفاجئاً ومذهلاً. فقد أثبت الفيزيائيون العظام في النصف الأول من القرن العشرين، وبأكثر الطرق صرامةً ودقة، استحالة فصل جوهر المادة عن الذات المراقبة. إذ بيّنوا أن مراقبة موضوع مادي تغير الموضوعَ نفسه ("من شأن النظر إلى الشيء أن يغيّرَه"، كما أعلن إرفن

شرودنغر Erwin Schrödinger).

ومن جهة أخرى، قاموا بتقويض الوهم القائل بقدرة الإنسان على بلوغ اليقين. فمن خلال مبدأ اللايقين (uncertainty principle)، بيّن فيرنر هايزنبيرغ Werner Heisenberg استحالة التحديد الدقيق لأية "حقائق" مادية خالصة، مثل الموقع الزمني والمكاني للجزيئات المادية.(4) وقد توصلت تلك العقول العظيمة التي احتذت بالعقل والحقائق بصرامة كبيرة إلى نتيجة مفادها أن جوهرَ الأشياء يقع، في نهاية المطاف، خارج حدود المنطق ولا يمكن القبض عليه. إذ استنتج نيلز بور Niels Bohr أن الشعرَ هو الوحيد القادر على توصيف السلوك العبثي للجزيئات الأولية: "عندما يتعلق الأمر بالذرات، لا يمكن استخدام اللغة إلا في شكلها الشعري".

تم أيضاً تقويضُ فكرة التنبؤ في العالم المادي – التي دفع بها بحماسة العالمُ الفرنسي بيار–سيمون لابلاس Simon Laplace–Pierre في القرن الثامن عشر – من قبل عالم الرياضيات والأرصاد إدوارد لورنز Edward Lorenz في القرن العشرين. فحتى لو تمكنتَ من القبض على ظاهرة معقدة وديناميّة (تشمل على ظاهرة طبيعية) في الصيَغ الرياضية، فلن تتمكن – حتى مع توفر الصِيغ المطلوبة – من التنبؤ بسلوكها قبل ثانية واحدة.

وأخيراً، أثبتت صورة الكون بصفته عملية ميكانيكية (لا غائية) وغير موجهة وميتة أنها قاصرة علمياً. فقد أظهرت نظرية الفوضى بطريقة ثوريةٍ حقة أن المادة تعمل على تنظيم نفسها بشكل مستمر بطرقٍ يستحيل تفسيرها بمفاهيمَ ميكانيكية. فالكونُ مزود بالوُجهة والإرادة. سوف نستكشف هذا بشيء من التفصيل في الجزء الأخير من هذا الكتاب.

كان نيوتن قد أتى على ذكر هذه الحقائق في القرن السابع عشر: لا تنطبق القوانين الميكانيكية إلا على جزء محدد جداً من الواقع. ومع تقدم العلم، أصبح هذا أكثر وضوحاً – على الأقل، بالنسبة إلى من يملك عيوناً يرى بها. ففي القرن العشرين، عبّر الرياضي الفرنسي رينيه ثوم René Thom عن ذلك بالطريقة التالية: "إن الجزء من الواقع، الذي يمكن توصيفه باستخدام القوانين الحسابية، محدودٌ للغاية". واستأنف قائلاً: "نشأت جميعُ الإنجازات النظرية الكبرى، في رأيي، من قدرة مخترعيها على 'النفاذ إلى جوهر الأشياء' والتماهي مع جميع مكونات العالم الخارجي. فهذا النوع من التماهي هو الذي يحول ظاهرةً موضوعية إلى تجربة فكرية محسوسة".(5)

يلقي هذا ضوءاً مذهلاً على طبيعة العلم. يعتقد معظم الناس أن العلمَ يتكون من تخليق الروابط الجافة المنطقية بين الحقائق القابلة للمراقبة "بشكل موضوعي". لكن العلم، في حقيقة الأمر، يتسم بالتماهي، أي بالعلاقة الحيوية بين المراقب والظاهرة الخاضعة للتقصي والدراسة. ولذلك فإن العلمَ يقع على جوهر غامض عصي على المعرفة ومقاوِمٍ للتفسير المنطقي لا يمكن توصيفه إلا بلغة الشعر والمجاز.

غالباً ما يفرز اللقاء بذلك الجوهر ما يمكننا وصفه بالتجربة الدينية الأصيلة – تجربة دينية سابقة على المؤسسات الدينية أو العقيدة ومتحررة منها. وقد قدّم ماكس بلانك Max Blanck توصيفاً لتلك التجربة بطريقة تتسم بالمباشرة والحساسية: يصل العلمُ في النهاية إلى النقطة التي بدأ بها الدين من قبل، إلى الاتصال الشخصي مع المجهول (Unnameable) (راجع أيضاً الفصل الحادي عشر).

استناداً إلى هذه التجربة، أعاد فيزيائيو القرن العشرين تثمينَ الكتابات الدينية والصوفية العظيمة، على غرار *Upanishads* [الأوبانيشاد]. يقدم محتوى وبنية تلك النصوص، والصور والرموز الموجودة فيها، فهماً للواقع أفضلَ من ذلك الذي يقدمه أي خطابٍ منطقي عقلاني. حرر العلمُ نفسَه من جميع عقائد الخطاب الديني لكي يكتشفَ – في نهاية رحلة طويلة – النصوصَ الدينية والصوفية ويعيدَ إليها قيمتها الأصلية الرائعة: نصوص رمزية ومجازية تنطوي على أشياءَ محجوبة أبداً عن العقل الإنساني.

كما سنناقش في الجزء الأخير من هذا الكتاب، حقق الاحتذاءُ الصارم بالعقل أكبر وأسمى إنجاز ممكن: رسم حدوده الخاصة. اعترف العقلُ الإنساني بقصوراته وأعاد موقعة المعرفة النهائية، مرة أخرى، وراء وخارج ذاته. إن الإنجاز النهائي للعلم يتمثل في استسلامه، وفي إدراكه أنه لا يمكن أن يكونَ المبدأ الموجّه للإنسان. فالمهم في الأمر ليس العقل البشري، بل الإنسان بصفته فرداً يتّخذ قرارات أخلاقية ونزيهة، الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان، والإنسان في علاقته مع المجهول الذي يخاطبه في حقيقة الأمر.

***

لكن شجرة العلم تبرعمَت، منذ البداية، في اتجاه آخر – الاتجاه المعاكس تماماً لتلك الممارسة العلمية الأصلية. فاستناداً إلى إنجازات العلم العظيمة، انتقل بعضُ الأشخاص من الانفتاح العقلي إلى الإيمان؛ فقد أصبح العلمُ بالنسبة إليهم نوعاً من الإيديولوجيا. كان

ذلك الفرعُ الميكانيكي–المادي – أو ما يسمى بالعلوم البحتة – هو الذي أدخل البهجة إلى قلوبنا. فبسبب بساطة مبادئه (القوانين الميكانيكية)، ودقة موضوعه (العالم المرئي المحسوس)، وروعته المتأتية من تطبيقاته العملية (من المحرك البخاري إلى التلفزيون، ومن القنبلة الذرية إلى الإنترنت)، يتمتع هذا العلمُ بكل السمات والخصائص التي من شأنها إغواء الكائنات البشرية. فبواسطة هذا الفرع من العلم، يغزو الإنسانُ الفضاء؛ إذ يمكننا من رؤية وسماع ما يحدث في الجهة الأخرى من الكوكب وتصوّر النشاط الدماغي؛ كما أنه يمدّنا بالقدرة على التحرك بشكل أسرع من الصوت والقيام بعمليات جراحية غاية في الدقة والصغر. في الماضي، كان الناس ينتظرون الآلهة لتأتي لهم بالمعجزات، لكن هذا العلم حوّل تلك المعجزات إلى حقائق. لقد غادر الإنسانُ مرحلة الإيمان وصار بمقدوره الاعتماد على ما يعرفه من حقائق. أو على الأقل، هذا ما كان يعتقده.

من هذا المنظار، تصبح الذاتية الإنسانية برمّتها نتاجاً ثانوياً تافهاً للعمليات الميكانيكية:

ربما لا يدرك الإنسانُ ذلك، لكن إنسانيته لم تعد مهمة، ولم تعد تشكل أية قيمة جوهرية. إذ يمكن لوجوده كله، وتوقه وشبقه، وتفجّعه الرومانسي وحاجاته السطحية، وفرحه وحزنه، وغضبه وحماقته، ومتعته ومعاناته، ونفوره وتذوّقه الجمالي السامي، وباختصار، وجوده الدرامي كله، أن يتحول في نهاية المطاف إلى مجرد جزيئاتٍ أولية تتفاعل تبعاً للقوانين الميكانيكية.

هذه هي العقيدة التي تستند إليها المادية الميكانيكية.

"كل من يشكك في هذه العقيدة يعبّر بشكل طوعي عن غبائه أو جنونه". لا يزال الشك متاحاً أمام الإنسان، ولكن فقط في الأشياء "الصحيحة". وبهذه الطريقة، أطلقت شجرة العلم غصناً نما في الاتجاه المعاكس للأغصان الأصلية. فعند ولادته، كان العلمُ مرادفاً للانفتاح العقلي المبني على تفكيرٍ يقوّض العقائدَ ويعرّض المعتقدات للتساؤل والتشكيك. ولكن مع تطوره، قام بتحويل نفسه إلى نوع من الإيديولوجيا، والإيمان، والتعصب.

وهكذا خضع العلمُ لنوع من التحوّل، كما يحدث لجميع الإيديولوجيات. في البداية، كان خطاباً تستخدمه الأقلية في مواجهة الأكثرية؛ ومن ثم أصبح خطابَ الأكثرية نفسها. وفي سياق هذا التحول، انحاز الخطابُ العلمي إلى أهداف وغايات تتناقض مع الأهداف والغايات الأصلية. فقد ساهم في استغلال الجماهير، ومكّنَ الأفرادَ من تأسيس المهن

("انشُر أو مُت")، والترويج للمنتجات ("تبين الأبحاث أن الصابون الذي ننتجه هو المنظف الأفضل")، ونشر الخداع ("لا أؤمن إلا بالإحصائيات التي لفّقتُها بنفسي"، ونستون تشرشل Winston Churchill)، وتحجيم الآخرين ووصمهم ("كل من يؤمن بالطب البديل غبي وغير عقلاني"). وقد وصل الأمر بهذا الخطاب إلى تبرير التمييز والاستبعاد (يمنع دخول الأماكن العامة لمن لا يحملون وسمَ - كمامة، شهادة لقاح - الإيديولوجيا العلمية). باختصار، أصبح الخطابُ العلمي - على غرار الخطاب المهيمن - أداة قوية يتمتع بها البعضُ في تعزيز الانتهازية، ونشر الأكاذيب، والخداع، والاستغلال، والسلطة.

***

وصل تحوّل الخطاب العلمي إلى إيديولوجيا مبلغاً فقد معه فضيلة قول الحقيقة. وخير مثالٍ على ذلك ما سمّي بأزمة الاستنساخ التي نشأت في العالم الأكاديمي في سنة 2005. نشأت هذه الأزمة مع اكتشاف عدد من الحالات الخطرة المتعلقة بالاحتيال العلمي. فقد تم إثبات التلاعب ببعض المسوحات العلمية والصور الأخرى،(6) كما تم اكتشاف زيف بعض القطع الأثرية،(7) وتم تزييف الأجنة المستنسخة؛(8) كما أن بعض الباحثين زعموا أنهم نجحوا في زرع الجلد باستخدام الفئران، إلا أنهم قاموا ببساطة بصباغة جلود الحيوانات المختبرة دون إجراء أية عمليات جراحية عليها.(9) وقام باحثون آخرون بتصنيع القطع المفقودة من جماجم البشر والقرود؛(10) كما تبيّن أن البعض قد ادعوا القيام بأبحاث لم يجروها قط.(11)

لكن هذا النوع من الاحتيال الصارخ كان نادراً نسبياً، كما أنه لم يكن المشكلة الكبرى. فقد تمثلت المشكلة الكبرى في حالات أقل درامية تتعلق بممارسات بحثية مريبة أخذت، في بعض الحالات، أبعاداً وبائية. أجرى دانييل فانِلي Daniele Fanelli مسحاً منهجياً، في سنة 2009، واكتشف أن 72% من الباحثين على الأقل كانوا مستعدين لتزوير نتائج أبحاثهم.(12) وفوق ذلك كله، كانت الأبحاث مليئة بالأخطاء الحسابية غير المقصودة والأخطاء الأخرى. وقد قدّمت مقالةٌ نُشرت في مجلة *Nature* توصيفاً لهذه الحالة: "تراجيديا الأخطاء".(13)

قاد هذا كله إلى مشكلة تكرار النتائج العلمية. وبكلمات أكثر بساطة، فإن هذا يعني أن نتائجَ التجارب العلمية ليست ثابتة. فعندما أجرى عدد من الباحثين التجربة نفسها، توصلوا

إلى نتائج متباينة. فعلى سبيل المثال، في الأبحاث الاقتصادية، فشل التكرار بنسبة 50% من الحالات،(14) وفي أبحاث السرطان بنسبة تجاوزت الـ60% من الحالات،(15) وفي الأبحاث الطبية الحيوية بنسبة لا تقل عن 85% من الحالات.(16) كانت نوعية الأبحاث شنيعة إلى درجة دفعت الإحصائي الشهير جون لوانيدس John Loannidis إلى نشر مقالة تحمل العنوان الفظ *Why Most Published Research Findings Are False* [أسباب زيف معظم نتائج الأبحاث المنشورة].(17) ومن باب المفارقة أيضاً، توصلت الدراسات التي عملت على تقييم نوعية الأبحاث إلى نتائج متباينة أيضاً. ربما يكون هذا خيرَ دليلٍ على عمق المشكلة التي نتحدث عنها هنا.

في العقود الأخيرة، حاول الأكاديميون تحسينَ نوعية الأبحاث عبر عدد من المبادرات. فقد شككوا في جدوى الضغوط التي تمارس على الباحثين من أجل نشر أبحاثهم، وشجعوا الباحثين على الإعلان عن البيانات التي يعتمدون عليها في أبحاثهم، كما طالبوا بالمزيد من الشفافية فيما يتعلق بالمصالح المادية، إلخ. ولكن لا يبدو أن هذه الإجراءات قد تركت أثراً كبيراً في هذا المجال. ففي سنة 2021، اعترف نحو 50% من الباحثين – في دراسات مسحية مخصصة – أنهم كانوا متحيزين في تقديم النتائج التي توصلوا إليها. إن هذه النسبة مشكلة بحد ذاتها، ولكن – تبعاً لفانيلي – فإن هذه النسبة المعلنة لا تمثّل الحقيقة. وهذا لأن نسبة لا بأس بها من الباحثين – حتى لو أن أسماءهم بقيت مجهولة – لن تعترف بتورطها في ممارسات بحثية مريبة. وبذلك فإن الإجراءات التي اتُّخذت لتحسين نوعية الأبحاث العلمية – بغض النظر عن نواياها الجدية والصادقة – قد فشلت في معالجة المشكلة القائمة.

لا تشير أزمة التكرار (replication crisis) إلى نقصٍ في الجدية والدقة في الأبحاث. إذ إنها، في المقام الأول، تدلّ على أزمة معرفية أساسية تتعلق بالطريقة التي تتم فيها الممارسة العلمية. إن تأويلنا للموضوعية خاطئ ومبنيّ بشكل مفرط على فكرة أن الأرقامَ تشكل المقاربة المفضلة للحقائق. فإذا نظرنا إلى الحقول العلمية التي تتسم بأسوأ النتائج التكرارية، يتضح أن قياسيّة الظواهر تلعب دوراً مهماً. ففي الكيمياء والفيزياء، على سبيل المثال، لم يكن الأمر سيئاً. أما في علم النفس والطب، فالحالة يرثى لها. ففي هذين الحقلين، يعمل الباحثون على تقييم ظواهرَ في غاية التعقيد والدينامية – الأداء الجسدي والسيكولوجي للكائنات البشرية. إذ لا يمكن قياس هذه "المواضيع"، في جوهرها، إلا إلى

درجة محدودة لاستحالة اختزالها إلى خصائصَ مجردة من الأبعاد (راجع الفصل الرابع). ومع ذلك، غالباً ما نرى محاولات يائسة تسعى لتحويلها إلى بيانات.

في حقلَي الطب وعلم النفس، يتم القياس عادة على أساس اختباراتٍ تفرز نتائجَ عددية. وتعطي هذه الأرقام انطباعاً بأنها موضوعية، لكن هذا بحاجة إلى تمحيص دقيق. تنطلق الدراسات التي تبحث فيما يسمى "توافق الطرائق المتقاطعة" (method-cross agreement) من سؤالٍ بسيط ومهم: إذا قستَ "الموضوع" نفسَه باستخدام طرائق قياسٍ مختلفة، فإلى أي مدىً ستتوافق النتائج التي تحصل عليها؟ فإذا كانت طرائقُ القياس دقيقة، يجب أن تكون النتائجُ متطابقة. لكن الأمر ليس كذلك، وبالكاد يقارب هذه المعادلة. ففي الحقل السيكولوجي، على سبيل المثال، نادراً ما يتجاوز التطابق بين النتائج المتأتية من طرائق قياسٍ مختلفة 0.45. وهذا رقم مجرد بالطبع، ولهذا السبب ألجأ إلى تقديم مثالٍ محسوس في محاضراتي الجامعية. تخيل أنك تبني منزلاً ويأتي نجارٌ ليأخذ قياسات ثماني نوافذ. يستخدم النجارُ ثلاث أدوات في قياس كل نافذة: مسطرة انطوائية، ومقياس شريطي، ومقياس ليزري. فإن كانت قياساتُ النجار متباينة كقياسات عالم النفس، فسوف يحصل على النتائج التالية (راجع الجدول 1-1).

الجدول 1-1 قياسات النجار في محاكاتها لدقة قياسات عالم النفس

	مسطرة انطوائية (سم)	مقياس شريطي (سم)	مقياس ليزري (سم)
النافذة 1	180	130	60
النافذة 2	100	200	150
النافذة 3	160	220	130
النافذة 4	100	170	210
النافذة 5	30	100	20
النافذة 6	120	80	160
النافذة 7	110	150	60
النافذة 8	30	90	10

بالمسطرة الانطوائية، يستنتج النجار أن عرض النافذة الأولى هو 180 سم؛ وبالقياس الشريطي، يبلغ عرض النافذة نفسها 130 سم؛ وبالمقياس الليزري يبلغ عرضها 60 سم. ويتكرر السيناريو نفسه في حالة النافذة الثانية: تبين المسطرة الانطوائية أن عرض النافذة الثانية هو 100 سم، أما المقياس الشريطي فيبين أن عرضها هو 200 سم، ويُظهر المقياس الليزري أن عرضها يبلغ 150 سم. وبالتالي فإن معدل التوافق بين القياسات الثلاثة هو 0.45.

هل تأتمنون هذا النجار على بناء منزلكم؟ هذا هو أفضل ما يمكنكم أن تتوقعوه عندما يستخدم العلماءُ النفسانيون ثلاث أدوات قياسٍ مختلفة. لكن هذا لا يعني أن جميعَ القياسات السيكولوجية فارغة، لكن القولَ بـ"موضوعيّتها" بحاجة إلى تدقيق أكبر.(18)

عندما كنت باحثاً شاباً، تعمّدتُ تناولَ مشكلة القياس ظناً مني أن الحقل السيكولوجي هو الوحيد الذي يعاني من هذه المشكلة إلى تلك الدرجة. لكنني اكتشفت لاحقاً أن الأمر ينطبق أيضاً على العلوم الطبية (والكثير من الحقول العلمية أيضاً، كما سنرى في الفصل الرابع). فالاختبارات وأدوات القياس المستخدمة في الطب – ويمكن لهذه المعلومة أن تفاجئكم – ليست أفضل، بشكل عام، من تلك المستخدمة في الحقل السيكولوجي. ألقوا نظرة على الدراسة الاستبيانية المعمقة التي قام بها غريغوري ماير **Gregory Meyer** وزملاؤه.(19)

خلال أزمة كورونا، أدرك العامةُ – ربما للمرة الأولى – نسبيّةَ القياسات الطبية، كما شهدنا المشكلات الواضحة المتعلقة باختبار PCR. وسرعان ما تبيّنَت إمكانية إجراء هذا الاختبار بطرق مختلفة، وأنه يُعطي نتائجَ متباينة كلياً، ويمكن أيضاً تأويل النتائج بطرق مختلفة، إلخ. قال جوان غوته **Johann Goethe** مرةً، "إن قياسَ شيء ما هو فعلٌ اعتباطي لا يمكن تطبيقه على الأجسام الحية إلا بطريقة تفتقر إلى الدقة". فمن خلال محاولة قياس ما لا يمكن قياسه، يصبح القياسُ شكلاً من الموضوعيةِ الزائفة. فعوضاً عن تقريب الباحث من موضوعه البحثي، فإن عملية القياس تبعده عنه أكثر؛ فهي تُخفي الموضوعَ المدروس خلف شاشة من الأرقام.

إن الاختبارات التي تفتقر إلى الدقة وطرق جمع البيانات ليست إشكالية بحد ذاتها فقط، بل تعمل على منع الباحث من محاولة فهمِ موضوعه بطريقة مختلفة، ربما تكون أقلّ تعقيداً ولكن غالباً ما تكون أكثر ملاءمةً، من خلال استخدام الكلمات فقط، على سبيل المثال. هذه هي الدراما الحقيقية لحقول مثل العلم والسيكولوجيا: فقد هجرا البحثَ الكلاسيكي، مثل

الدراسات التطبيقية العميقة التي يجريها الأطباء السريريون الخبيرون واستبدلاها بأبحاث ربما تبدو علمية لكنها ليست كذلك في غالب الأحيان. ربما تبدو البيانات القياسية طريقة أكثرَ تعقيداً وموضوعيةً لتوصيف موضوع البحث، لكنها غالباً ما تكشف عن حقائقَ أقلّ من تلك التي يقدمها التوصيف الكلامي. وقد قاد هذا، بشكل جزئي، إلى مشكلات أخرى ظهرت على السطح في الأزمة العلمية: الأخطاء المتفشية، والرداءة، والنتائج المتحيزة، التي أتينا على ذكرها سابقاً. فمن يحاول اختزالَ المواضيع العصية على القياس في أرقام سوف يشعر أن بحثه لا ينطوي على قيمة كبيرة، وسوف يفقد الاهتمام بما يقوم به، ويفتقر إلى الإحساس بالواجب لتقديم عمل دقيق.

يثير غيابُ النوعية في البحث العلمي مجموعة من الأسئلة الملحة، بما فيها تلك المتعلقة بنظام التحكيم العلمي السري (blind peer review system) المتبع في جميع المجلات العلمية، والذي يُعتبر بمثابة ختم الموافقة ومنح الشرعية العلمية. يتطلب نظام التحكيم السري قراءة الدراسة المقدمة وتقييمها النقدي من قبل خبيرين أو ثلاثة في الحقل المعني قبل الموافقة على نشرها. ويفترض هذا النظام أن هؤلاء الخبراء لا يعرفون كاتبَ الدراسة، لكنهم في حقيقة الأمر يعرفون المؤلفين لأنهم يعرفون الباحثين الآخرين العاملين في حقلهم. وبالتالي يمكنهم أن يخمّنوا من هو الشخص الذي قام بهذا البحث أو ذاك. ولهذا السبب، فإن التقييمَ العادل من قبل خبيرٍ ما لا يستدعي فقط استعداده وقدرته على تخصيص الوقت والطاقة اللازمين - وهما غير متوفرين في المناخ الأكاديمي الحالي. وفوق ذلك، فهو يستدعي قدرة هذا الخبير على تحديد تحيزاته الشخصية فيما يتعلق بالبحث المقدم ومؤلفيه وتنحيتها جانباً. وبكلمات أخرى، يتعلق نجاح التحكيم السري أو فشله بأخلاق الخبير وأخلاقياته المهنية - أي، بخصائصه الإنسانية الذاتية.

***

وهكذا يكون هذا الفصل قد عاد إلى نقطة البداية. فالعلم العظيم (العلم الذي يتحلّى بعقل منفتح ويتوخّى العقل) والعلمُ المتهافت (العلم الذي ينحدر إلى الإيديولوجيا) يواجهان، في النهاية، ما عملا على تحييده في بادئ الأمر: الإنسان بصفته كائناً ذاتياً وأخلاقياً. يقوم النوع الأول من العلم بذلك بطريقة إيجابية، من خلال إدراكه لأهمية ذلك البُعد وتضمينه في نظرياته. فقد بدأ كعلمٍ يافع جريء من خلال إطلالته الخارجية على العالم المادي، وتسجيل الظواهر، وتأسيس العلاقات المنطقية بينها. فقد افترض - وكان محقاً في ذلك،

إلى درجة معينة – أن هذه هي الطريقة للوصول إلى المعرفة المستقلة. ففي العلم العظيم، اختفى الكائنُ الإنساني في الخلفية بأبعاده النفسية والرمزية والأخلاقية. لكن ذلك لم يدُم طويلاً. إذ تبيّنَ أن المراقبَ، من خلال ميزاته الذاتية، يؤثر بشكل كبير في المواضيع قيد المراقبة. ولذلك فإن النظريات التي تستند إلى تلك الرؤى، مثل ميكانيك الكم ونظرية الأنظمة الديناميكية المعقدة، تعد من بين أعظم الإنجازات التي حققها الإنسان. (سوف نستكشف هذا بتفصيل أكبر في الجزء الثالث).

على الرغم من تقهقر العلم إلى الإيديولوجيا والإيمان والعقائدية – العلم المتهافت – فقد أكد أيضاً أن الإنسانَ، في بُعده الذاتي، يشكل موضوعاً مركزياً. ولكن في هذه الحالة، يؤدي العلمُ دورَه بطريقة سلبية من خلال تأكيد هذا عبر فشله الذريع. فقد تجاهل، بشكل متزايد، التجربة الذاتية واعتبرها لاحقاً نوعاً من المنتج الثانوي والزائف للعمليات المادية والكيميائية–الحيوية التي تجري في الدماغ، على سبيل المثال. لكن ذلك لم يستأصل البعدَ الذاتي. فسرعانَ ما تكاثرَ، وبلغ أبعاداً غرائبية، وتجلّى في سيلٍ من الأخطاء، والرداءة، والممارسات البحثية المشبوهة، والاحتيال الفاضح. وفي نهاية المطاف، استعادت الذاتية الإنسانية عرشَها في العلم المتهافت أيضاً.

وكما سنناقش بشكل موسع في الفصل الثالث، فإن الأمر الذي يبعث على الذهول هو أن الباحثين أنفسهم، بشكل عام، لا يدركون القصورَ الذي يعتوِرُ طريقتهم العلمية. إذ إنهم ينظرون إلى أوهامهم العلمية وكأنها واقع ملموس ويخلطون بين أرقامهم والحقائق التي يقدمون صدىً مشوهاً لها. وينطبق الأمر نفسه على نسبة كبيرة من الناس الذين يحملون ثقة عمياءَ بهذه الإيديولوجيا العلمية، مع تلاشي أي ملجأ إيديولوجي آخر بعد تداعي الدين. إذ يعتبر معظم الناس الأرقامَ والرسومَ البيانية التي يقدمها الباحثون في وسائل الإعلام الجماهيرية بمثابة حقائقَ راسخة. في هذا المستوى تماماً تُمَوقِعُ حنة آرندت الذاتَ المثالية للدولة التوتاليتارية: الذات التي لم تعد تميز بين الخيال شبه العلمي والواقع. لم يشهد التاريخ من قبل هذا العددَ الكبير من هؤلاء الأشخاص كما حصل في بداية القرن الواحد والعشرين؛ كما لم يشهد التاريخ من قبل تعزيزاً مماثلاً لهذه الشروط المجتمعية التي تشكل تربة خصبة للتوتاليتارية.

الفصل الثاني

العلم وتطبيقاته العملية

لا يقود العلمُ إلى المعرفة والتقدم الفكري فقط، بل يؤثر أيضاً في العالم الحقيقي عبر تطبيقاته العملية. وقد كانت للعلم الميكانيكي، على وجه الخصوص، طموحاتٌ كبيرة في هذا المجال. إذ حاول تكييفَ العالم مع حياة الناس، وجعل الحياة سهلة ومريحة، واستئصال الألم وحتى الموت.

نجح العلمُ، إلى درجة معينة، في تحقيق هذه الطموحات. فقد مكّنَ اكتشافُ غاليليو كريستيان هويغنز Christiaan Huyghens بعد خمسة عشر عاماً من بناء آلة ميكانيكية لقياس الزمن: الساعة النواسية. فحتى ذلك الوقت، كان الناسُ يعتمدون على الدورات الطبيعية في قياس الوقت؛ أما الآن فقد تمكنوا من تخليق دورات اصطناعية متفاوتة من خلال تغيير طول ذراع النواس. وبذلك، صار من الممكن تجزيء اليوم الواحد إلى 86.000 ثانية نواسية متكافئة. تغير الزمن من تيارٍ مراوغ من الدورات الطبيعية إلى عملية قابلة للقياس كمياً تقفز إلى الأمام بخطوات ميكانيكية متماثلة تماماً.

تلت ذلك سلسلةٌ لا متناهية من التطبيقات العملية: المحرك البخاري، والكاميرا، والضوء الصناعي، والمذياع، والتلفاز، والسيارة، والطائرة، والإنترنت. وخلال القرنين اللذين تليا وضعَ نيوتن لقوانين الحركة الأساسية – وهما عبارة عن رفة عين في التاريخ الإنساني – أصبح المجتمعُ مُمَكنناً ومُصنّعاً بطرق مخيفة. فعلى مدى آلاف السنين، كان الإنسان خاضعاً للعالم، أما الآن فقد تمكّن من فرض إرادته عليه. فللمرة الأولى، أصبح قادراً على تغيير وضعه البائس بشكل جذري وجعل الحياة أكثر سهولة. أو على الأقل، هكذا تصوّر.

ولكن كان لهذه العملة وجة آخر بالتأكيد. فقد كان لكل إنجاز ثمنه، بما في ذلك ضعف الارتباط بالبيئة الطبيعية والمجتمعية. فقد قوّض الضوءُ الصناعي الإيقاعَ الذي كانت تفرضه الشمس والقمر على الأنشطة اليومية؛ وأبعدت الساعة العقلَ الإنساني عن العمليات الطبيعية الدورية (الالتقاء عند جفاف الندى، وتناول الطعام عند بلوغ الشمس نقطة الذروة، والنوم عند حلول الليل)؛ كما أبعدت البوصلة الإنسانَ عن النجوم؛ وسحبه العملُ الصناعي بعيداً عن الحقول والغابات. لم يكتسب التأثير السيكولوجي لهذا كله أهمية كبيرة، أو أية أهمية ربما. لكنه كان مهولاً بلا أدنى شك. فقبل المَكننة، كان عالمُ التجربة الإنساني يصدح

بلغة الأشكال المتنوعة؛ ولكن بعد المكننة، غرق الإنسانُ في إيقاعٍ ميكانيكي رتيب.

خضعت الروابط الاجتماعية أيضاً إلى تحوّلٍ جذري. فقد ولّد اختراعُ المذياع والتلفاز وسائلَ الإعلام الجماهيرية ومعها تراجعاً في التفاعل الاجتماعي المباشر الذي تحول إلى مجرد وظيفة اجتماعية. حيث تم، بالتدريج، استبدالُ اللقاءات المسائية بين الجيران، والتجمعات في الحانات، ومهرجانات الحصاد، والطقوس، والاحتفالات باستهلاك ما تقدمه وسائل الإعلام تلك. وقد أغوانا هذا للجوء إلى نوع من الكسل الاجتماعي. إذ تلاشت الحاجة إلى بذل الجهد الضروري للتفاعل مع الكائنات البشرية الأخرى.

لا ضرورة للجدال والخصام، أو المواجهة التي تولد الغيرة المؤلمة أو العار أو الإحراج، أو التأنق أو حتى الخروج من البيت. وعملت أيضاً على توحيد أشكال التبادلات الاجتماعية. فقد تعرّض الفضاءُ العام، بشكل متزايد، للهيمنة من قبل عدد قليل من الأصوات التي اجتاحت غرفة المعيشة عبر الإعلام الجماهيري.(1) وبكلمات أخرى، فقدت العلاقات الاجتماعية تنوّعَها وأصالتَها.

كما انطوت مكنَنة العمل على تحوّل عميق في البنى والروابط الاجتماعية، وهو البُعد الذي كشفت عنه مادية ماركس التاريخية. فقد تمكن المحرك البخاري، على سبيل المثال، من تشغيل عدد كبير من الأنوال وتأمين العمل لعدد كبير من الأشخاص بحيث نشأت حوله أشكالٌ مجتمعية جديدة مثل القرى الصناعية. كانت هذه المجتمعات مسخّرة للإنتاج الضخم، وأصبح العملُ المأجور السمة الجمعية الوحيدة. وبذلك، عمل التصنيع على تقويض البنى الاجتماعية التقليدية المتشكلة من مهنٍ متنوعة، وإدارات عامة، وسلطة (الكاهن، المحافظ). وعلى الرغم من أن هذه البنى قيّدت حرية الإنسان على مدى قرون، أو قمعتها في بعض الأحيان، إلا أنها قدمت له أرضية سيكولوجية ونوعاً من الإطار المرجعي. فقد زودته بالقواعد والقوانين، والتعاليم والمحظورات، والحدود التي تلجم شهواته ورغباته، والقضايا المحددة المثيرة للقلق والإحباط والغضب. وقد أدى تلاشي هذه البنى إلى قدر كبير من الارتباك، فوجد الإنسانُ نفسه غارقاً في ظلمة وجوده ومسكوناً بقلقٍ وجودي يصعب تحديد ماهيته. وكما سنرى في الفصل السادس، يلعب هذا القلقُ المتفاقمُ دوراً مهماً في عمليات الجمهرَة ونشوء التوتاليتارية.

ولّدت مكنَنة العالم أيضاً أثراً مباشراً على مستوى صناعة المعنى. فقد حول الإنتاجُ الضخم نتيجة العمل النهائية إلى شيء أقل محسوسيّةً. ففي الماضي، كان الإنسان يعمل

لينتج الأشياء اللازمة لاستمرار وجوده الجسدي، هو والأشخاص المحيطين به. كان يعمل ليُطعمَ نفسه، ويدفئ بيته، ويكسي نفسه درءاً للظروف القاسية ونظرات الآخرين. لكن هذا كله تغير مع نشوء البيئة الصناعية. فقد أصبح الآن يعمل بهدف إنتاج الأشياء المصنعة لأشخاص بعيدين عنه. ولذلك فإن التساؤل عن معنى العمل الذي يقوم به الفرد لم يعد ينبثق من جسده.

إضافة إلى ذلك، أصبح الآخر الذي يعمل المرءُ من أجله مجهولاً. ولم يعد بالإمكان رؤية أو تحسّس أثر عمل المرء على هذا الآخر. فمع اختفاء (معظم) الإنتاج المحلي الصغير، تداعت تلك الرابطة المباشرة بين المنتِج والمستهلك. وفي معظم الحالات، لم يعد الشخص المنتج للبضائع المادية على احتكاك بالشخص الذي سيستخدمها. وعندما يتم تسليم منتَجٍ ما، لم يعد الشخص الذي قام بإنتاجه يشهد على الفرحة أو الامتنان على وجه المستهلك. إن هذه الآثار الجسدية البصرية الطفيفة هي التي تخلق الرضا عند الإنسان العامل، فهي العلامات المباشرة على أهمية العمل ومعناه. وبهذه الطريقة، تلاشى كل من جسد المنتج والمستهلك بصفتهما مصدرين لإنتاج المعنى. فقد أصبح العاملُ، كما يقولون، مجرد مسنَنٍ في الآلة الصناعية ينحصر تشحيمه في عامل واحد يتمثل في الأجور المنتظرة. ونتيجة لهذا كله،

تغير العملُ من مهمة شاقة تنطوي على معنىً وجودي إلى ضرورة منفعية مجردة.

***

بالإضافة إلى المعنى المتلاشي، نشأت مشكلة أخرى. فقد تبيّن أن تصنيع العمل ومكننته لم يؤدِّ إلى تخفيض كمية العمل المطلوب. في بدايات القرن العشرين، تنبأ الاقتصادي البريطاني جون مينارد كينز John Maynard Keynes أن التطورات التكنولوجية سوف تؤدي، في نهاية القرن، إلى 15 ساعة عمل في الأسبوع ستكون كافية للمجتمع لكي ينتج كل ما يحتاج إليه.(2) كان مصيباً في النقطة الأخيرة، بل أكثر من مصيب في حقيقة الأمر. ربما لا يحتاج المجتمع إلى 15 ساعة من العمل لتحقيق ذلك الهدف. لكن نبوءته تلك لم تكن صائبة. فمع نهاية القرن العشرين، صار الناس يعملون لساعات أطول من قبل.

ما لم يفكر فيه كينز هو تخليق العمل الذي يفتقر إلى المعنى والفائدة على نطاق واسع. وقد قدم البروفسور المختص في علم الأنثروبولوجيا، ديفيد غريبر David Graeber، هذا في كتابه المعروف *Bullshit Jobs* [وظائف وهمية]. فقد سأل عينة عشوائية من الأشخاص إن كانوا يعتقدون أن وظائفهم مفيدة للمجتمع. أجاب نحو 37% بـ"لا"، بينما لم

يكن 13% منهم متأكداً من ذلك.(3) تم تأسيس معظم هذه الوظائف الوهمية في القطاعين الإداري والاقتصادي، وفي المجالات الكثيرة التي تدعم هذين القطاعين. يروي غريبر قصة كيرت، الذي يعمل في شركة تزود الجيش الألماني بالخدمات المرفقية، ويبيّن درجة العبثية التي بدأت تسم أعمالَ العديد من الناس ووجودَهم:

كيرت: الجيش الألماني يوظف مقاولاً فرعياً لأعماله المتعلقة بتكنولوجيا المعلومات. وشركة تكنولوجيا المعلومات توظف مقاولاً فرعياً للاهتمام بالجانب اللوجستي. وشركة اللوجستيات توظف مقاولاً فرعياً لإدارة موظفيها، وأنا أعمل في تلك الشركة.

افترض أن جندياً ينتقل إلى مكتبٍ آخر مجاور لمكتبه السابق. فبدلاً من أن يحمل حاسوبَه وينقله إلى المكتب الجديد، عليه أن يملأ استمارة.

تتلقى شركة تكنولوجيا المعلومات الاستمارة، فيقرؤها موظفوها ويوافقون على الطلب، ومن ثم يرسلونها إلى شركة اللوجستيات. وعندها، توافق شركة اللوجستيات على نقل الحاسوب إلى المكتب الجديد المجاور وتطلب منا الموظفين. وعند ذلك يقوم موظفو شركتي بعملهم، وهنا يأتي دوري.

أستلم إيميلاً يقول: "احضر إلى الثكنة ج في الوقت ب". تقع هذه الثكنات، عادة، على مسافة تتراوح بين 100 ميل و300 ميل عن منزلي، ولذلك علي أن أستأجر سيارة. أقود السيارة المستأجرة إلى الثكنات، وأخبر الموظف المختص بوصولي، وأملأ استمارة، وأفصل الحاسوب، وأضع الحاسوبَ في صندوق، وأختم الصندوق، وأطلب من أحد موظفي اللوجستيات نقل الصندوق إلى المكتب الجديد الذي يقع في الرواق نفسه ويبعد نحو خمسة أمتار عن المكتب القديم، ثم أفتح الصندوق، وأملأ استمارة أخرى، وأقوم بوصل الحاسوب، وأتصل بالمنسق لأخبره بالوقت الذي تطلبه مني هذا العمل، وأطلب تواقيع بعض الموظفين، ثم أعود في السيارة المستأجرة، وأرسل جميع الأوراق إلى المنسق وأحصل على أجري.

فعوضاً عن السماح للجندي بنقل حاسوبه إلى مكتب آخر يبعد خمسة أمتار عن مكتبه السابق، يتوجب على شخصين السفر لمدة تتراوح بين 6 و10 ساعات، وملء نحو 15 استمارة وتبديد أكثر من 400 يورو على شكل ضرائب.(4)

تقدم هذه القصة صورة محيرة عن ظاهرة العمل العبثي؛ إذ يعتقد الناس أن مثل هذه

الأعمال العبثية غير موجودة في الشركات الخاصة المتمحورة حول رأس المال والربح. فلماذا تبذر شركة ربحية مثل هذه الأموال على موظفين لا يدرّون عليها أية أرباح؟ ولكن من الممكن إرجاع هذه الفكرة إلى عالم الأوهام.(5) فحتى في القطاع الخاص، هناك الكثير من الأعمال العبثية. يمكننا أن نعزو هذا، في المقام الأول، إلى التغيرات في ثقافة الشركات. فالمسؤولون التنفيذيون، اليوم، نادراً ما يتأثرون بنجاح أو فشل الشركة التي يديرونها. ولذلك يمكنهم تأسيس وظائفَ عبثية، ربما لتقديم خدمة لصديق ما، أو لإعطاء صورة معينة عن الشركة من خلال توظيف "الخبراء"، أو لمجرد إغناء وتعزيز الإحصائيات الوظيفية. وعندما تفلس الشركة، يكون المدير التنفيذي قد وجد عملاً آخر في شركة أخرى لبعض الوقت على الأقل.

لكن هذه السياسة تنطوي على شيءٍ أبعدَ من ذلك... إذ إن النمو المتسارع للقطاعين الإداري والاقتصادي يتعلق، بشكل أكبر، ببعض الميول السيكولوجية الأساسية في مجتمعنا. فكثرة القوانين والإجراءات والأعمال الإدارية تنبع من غياب الثقة بين الأفراد وعجزهم عن التعايش مع الشكوك والمجازفات. إذ إن الحكومة والشعب، على حد سواء، يصرّان دوماً على إنجاز الأشياء "بشكل صحيح". وينطوي هذا على اتخاذ تدابيرَ لا متناهية ضرورية لتحديد المسؤوليات المالية والقانونية في حال وقوع خطأ ما. وكما سنناقش في الفصل الخامس، فإن التوجه القسري اليوم للتنظيم والتحكم يمثل محاولة مسعورة للتعاطي مع القلق المتنامي باستمرار.

إذا كانت العلاقاتُ الإنسانية تتميز بغياب الثقة، فإن الحياة تصبح معقدة جداً بحيث يستهلك المجتمعُ طاقتَه كلها في توليد جميع أنواع "الآليات الأمنية" التي تعمل، في حقيقة الأمر، على تقويض الثقة أكثر فأكثر، كما أنها مُنهكة سيكولوجياً في نهاية المطاف. ولهذا السبب نرى أن ظاهرة الوظائف الوهمية مرتبطة مباشرة أيضاً بالضغط النفسي والإرهاق الجسدي في أماكن العمل. فما يجعل من الأداء الوظيفي شيئاً لا يطاق لا يتمثل، عادة، في المتطلبات الفعلية التي تمليها الوظيفة، بل في استحالة الشعور بالمعنى والرضا المتأتيين من العمل وممارسته كفعلٍ "خلاق". ضع شخصاً في مكتب وادفع له مرتباً جيداً لكي ينجز عملاً تافهاً، كأن يضغط على زرٍّ كل عشر دقائق. هل يحررك عملٌ كهذا من أعباء الحياة، أم هل يجعل حياتك خفيفة بشكل لا يمكنك احتماله؟

في النهاية، ينشأ تناقضٌ جوهري يتمثل في مشاعر الاستياء والرغبة في الانتقام من

أولئك الذين يملكون عملاً ينطوي على معنىً ما. فمن المذهل أن الأشخاصَ الذين يؤدون أعمالاً مفيدة بشكل مباشر – كموظفي الرعاية الصحية، وجامعي القمامة، والحرفيين، والمزارعين – هم الذين يتعرضون للطرد من أعمالهم أو يتلقون أجوراً زهيدة تكاد لا تسدّ رمقهم أو يضطرون معها إلى العيش على المساعدات (فكروا في المزارعين الذين ينتجون الغذاء، المادة الأهم على الإطلاق). ومن جهة أخرى، فإن الوظائفَ الأكثر تفاهة – كالأعمال الإدارية – تتكاثر باضطراد وتحصل على نصيب الأسد. وهذا، بشكل أو بآخر، هو التفسير (اللاواعي) لـ: "إن كنت محظوظاً بما فيه الكفاية وحصلت على وظيفة مفيدة، يجب ألا تتوقع مكافأة فوق ذلك". وهكذا، وصلنا إلى وضعٍ يبدو معه اختيار عمل مفيد ضرباً من الغباء.

يبيّن صعودُ المهن التافهة أن المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الإنسانية تكمن في العلاقات الإنسانية أكثر مما تكمن في القوى الطبيعية أو المتطلبات الجسدية للعمل. وببساطة أكبر، فإن الحياة تكون مقبولة في مجتمعٍ تسوده علاقاتٌ إنسانية مُرضية ومقنعة حتى في حال امتلاكه لوسائل إنتاج بدائية. أما في المجتمع الذي تسود فيه العلاقات الإنسانية البائسة والسامة، فإن الحياة ستكون صعبة، بغض النظر عن درجة "تقدّم" هذا المجتمع من حيث التطور الميكانيكي–التكنولوجي.

***

باختصار، ولّد العلمُ قدرة هائلة على تغيير العالم المادي عبر التصنيع والمكننة. لكن هذا أفرز مشكلات أيضاً، وخاصة فيما يتعلق بعلاقاتنا مع بعضنا بعضاً، ومع الطبيعة أيضاً. وفوق ذلك، فإننا نواجه مشكلات ناجمة عن حقيقة مفادها أن العلم – أو ما يسمى بالعلم اليوم – لم يعد دقيقاً ولا موثوقاً.

في الفصل الأول، بيّنتُ أن نوعية الأبحاث أكثرُ إشكالية في العلوم الطبية. إذ إن نحو 85% من الدراسات الطبية تتوصل إلى نتائجَ مريبةٍ بسبب الأخطاء والاستهتار والاحتيال. وهذا يفسر لنا، على سبيل المثال، لماذا تسبب العقاقيرُ التي تبدو آمنة في الأبحاث التجريبية آلافَ الوفيات أو تولد آثاراً جانبية خطِرة عند الاستخدام الفعلي. وربما تشكل فضيحة عقار thalidomide خيرَ مثال على ذلك. فقد تم تسويق thalidomide (Softenon) في سنة 1958 بصفته عقاراً مضاداً للإقياء يوصف للنساء الحوامل. وفي سنة 1961، تبيّن أن thalidomide قد سبّبَ تشوهات حادة عند 10.000 جنين على

أقل تقدير، معظمها تمثل في أطراف مشوهة أو في غياب الأطراف بشكل كامل. والجانب المحيّر في تلك الفضيحة هو أن الشركات الدوائية استمرت في إنتاج العقار لسنوات طويلة، وأنه كان يُباع في بعض البلدان (بما فيها بلجيكا) بشكل علني حتى سنة 1963. ولم يتم سحب هذا العقار، الذي شوّه آلاف الأجنة ودمر آلاف الحيوات، من السوق حتى سنة 1969. وقد جاء تبرير ذلك محيراً، على أقل تقدير: أرادت الحكومة أن تتأكد تماماً من وجود علاقة بين العقار وتشوهات الأجنة.

أما المثال الدرامي الثاني فيتعلق بالهرمون الصناعي Diethylstibestrol، الذي استُخدم على نطاق واسع بين عامَي 1947 و1976 لمنع الإجهاض. لم يمنع هذا الهرمون الإجهاض، ولكن كانت له سلسلة من الأعراض الجانبية الخطرة التي أثرت على عدة أجيال متعاقبة.(6) فقد أصبحت النساء اللواتي أخذنه أكثر عرضة لسرطان الثدي. كان الجيل الأول من المولودات أكثر عرضة لتشوهاتٍ في بطانة الرحم، وتعقيدات الولادة، وتشوهات الأعضاء التناسلية، والخطر المتزايد للسرطانات العنق والثدي والمهبل. كما أن الجيل الأول من المواليد الذكور كان معرضاً لخطر تشكل العُقيدات على البَربَخ، بينما كان الجيلُ الثاني من المواليد الذكور معرّضاً لتشوهات في الإحليل. ولا أحد يعرف إن كانت هذه التشوهات الناجمة عن هذا الهرمون ستتوقف، وفي أي جيل.

ربما يكون thalidomide وdiethylstibestrol الفضيحتَين الطبيّتَين الأكثر شهرة، لكنهما ليسا العقارين اللذين أوديا بالعدد الأكبر من الضحايا. ففي سنة 2019، تم رفع قضية ضخمة ضد عدد من الشركات الدوائية لدورها في أزمة المسكنات المورفينية Opioid التي قتلت نحو 400.000 شخص خلال السنوات العشرين الأخيرة ودمّرت حيوات الملايين من الأميركيين. كما أن أحد جوانب هذه المأساة يتمثل في أن العقاقير الدوائية التي المنتشرة على نطاق واسع ليست آمنة بالضرورة. ففي سنة 2021، تبيّن أن المسكّن الشائع الاستعمال acetaminophen (Tylenol)، الذي انتشر في الأسواق منذ سنة 1955، يحتوي على موادّ مسرطنة يمكن أن تلحق الأذى بالأجنّة.

ولكن ألا يتم اختبار تأثيرات العقاقير الدوائية وآثارها الجانبية بشكل جيد قبل طرحها في الأسواق؟ وكيف لا يتم اكتشاف هذه الأعراض الجانبية الضارة؟ هنا تكمن المشكلة: إن ظاهرة "الصحة" أو "الاستجابة للعقاقير" بالغة التعقيد والدينامية ولا يمكن قياسها أو فهمها بشكل كامل. إذ يمكن للباحث أن يسجّلَ ويراقبَ عدداً محدوداً من ردود الأفعال (مثل

التأثير على العرَض، أو التأثير على ضغط الدم، أو التنفّس). لكنه لا يعلم شيئاً عن الآثار الأخرى المحتملة. وبالإضافة إلى ذلك، يتم إجراء الأبحاث لفترة محدودة جداً. ولذلك لا يمكن الكشف عن الأعراض الجانبية التي يمكن أن تظهرَ بعد تلك الفترة، وحتى في الأجيال اللاحقة، كما في حالة thalidomide. وأخيراً، ربما تكون الأعراض الجانبية طفيفة جداً فيتعثر كشفها مباشرة، على الرغم من خطورتها اللاحقة التي يمكن أن تتمثل في تدهور المناعة العامة.

تساهم أيضاً العواملُ السيكولوجية القوية في تعقيد التنبؤات الدقيقة. إذ إنّ ظاهرتي "أثر بلاسيبو" (placebo effect) (حيث يفرز العلاج نتائجَ إيجابية لأن المريض يؤمن بفائدته) و"أثر نوسيبو" (nocebo effect) (حيث يخلف العلاجُ آثاراً سلبية لاعتقاد المريض بضرره) شائعتان جداً ومنتشرتان على نطاق واسع أيضاً. إذ يقدّر بعضُ الباحثين – من أمثال شابيرو Shapiro(7) ووامبولد (8) Wampold – إمكانية إرجاع نحو 90% من آثار العلاج الطبي إلى عواملَ نفسية. فإن كان هذا صحيحاً، يكون من الأدق توصيف معظم العلاجات الطبية كنوع من العلاج النفساني (المستتر).

ومع أن هذه البيانات – على غرار جميع البيانات الأخرى – نسبية، من الواضح أن تأثيرَ العوامل السيكولوجية كبير ولا يستهان به (الفصل العاشر مكرّس لتناول هذه المسألة). ومن هنا تنبع صعوبة التنبؤ بآثار العلاجات الدوائية والطبية، كما يمكنها أن تتغيرَ مع مرور الزمن بتغير روح العصر. إن الخطابات المختلفة تقود إلى توقعات مختلفة، والتوقعات المختلفة تولد آثاراً مختلفة. ويمكن لهذا أن يساعدنا في تفسير فقدان بعض العقاقير العلاجية لتأثيرها الأولي بعد طرحها في الأسواق بوقت طويل. فغالباً ما يولّد العلاجُ الجديد آمالاً كبيرة تولد، بدورها، أوهاماً كبيرة بفائدته. ولذلك لا يمكن الاعتقاد بإمكانية القياس الموضوعي للعلاج الطبي من خلال التجارب إلّا من منظور غاية في السذاجة.

من ناحية أخرى، تثير النوعية السيئة للأبحاث الطبية الكثيرَ من الأسئلة الأخلاقية الملحة. فهي تسلّط، على سبيل المثال، ضوءاً مبهراً على الدافع الجامح لإجراء التجارب. إذ تشهد كل سنة تزايداً كبيراً في عدد الحيوانات المخبرية التي تخضع للتجارب الطبية. (9) ففي سنة 2005، تمت التضحية بنحو مئة مليون حيوان في جميع أنحاء العالم (!)؛ ومع حلول سنة 2020، وصل هذا الرقم إلى ما يقارب مئتي مليون (!). إذ إن مصير هذه الحيوانات مرعب بشكل تعجز الكلمات عن التعبير عنه. فإذا افترضنا أن 85% من

الدراسات الطبية خاطئة، أو متحيزة، أو تنطوي على الاحتيال (راجع الفصل الأول)، يمكننا أن نستنتجَ أن هذا العذاب الشديد – في أغلب الحالات – عبثيٌ وغير ضروري فوق ذلك كله. فأين بالضبط نرسم الخطَ الفاصلَ بين التجريب والتعذيب؟ فإذا وصلت ممارسة كهذه إلى هذا المستوى وهذه الدرجة من العبثية في مجتمعٍ ما، فعلينا أن نستنتجَ أن هذا المجتمع مريض بحق.

***

منح التفكيرُ الميكانيكي الإنسانَ قدرة هائلة على استغلال العالم المادي. ومع نزعة التدمير (الذاتي) المتأصلة عند الإنسان، فقد وضعه ذلك في وضعٍ خطرٍ غير مسبوق. ففي المرة الأولى في التاريخ، تمكن الإنسان من تدمير "الموارد الطبيعية" التي يعتمد عليها، حيث استنزفَ الثروة السمكية العالمية – على سبيل المثال – وأباد بعضَ الغابات الاستوائية بشكل كامل. وفوق ذلك، مع تصنيع ومكننَة الحرب، تبدّى التفكيرُ الميكانيكي عن طاقاته التدميرية بطريقة مباشرة وجلية. وتمثل عشرات ملايين ضحايا آلات الدمار التي استُخدِمَت في الحربين العالميتين شاهداً صامتاً على ذلك. وقد ساءت الأمورُ أكثر في السنوات اللاحقة، حيث عمل ذلك الزواج الشرير بين العلم والنزعة الإجرامية على إحداث دمارٍ هائل بدت معه مآسي الحروب السابقة باهتة بالمقارنة. ولكي نقدم مثالاً واحداً، قامت شركة Monsanto بإنتاج 76 مليون لتر من العامل البرتقالي (Agent Orange) الذي تم رشّه في فيتنام بهدف تعرية الأشجار وإخراج المقاتلين الفيتناميين (Vietcong) من الغابات. والنتيجة؟ عانى الملايين من الفيتناميين والأميركيين من أمراض خطِرة، مثل الأورام والسرطانات، مما تسبب في تشويه ما لا يقل عن 150.000 طفل.

مع أن العلمَ الميكانيكي سعى إلى تحسين الوضع الإنساني، إلا أنه حوّله إلى وضعٍ أكثر خطورة من عدة نواحٍ. إذ شعر الإنسان بالتهديد الناجم عن القوى التي عمل هو على إطلاقها من الطبيعة. وفي معظم الأحيان، كانت تلك القوى تتركز في أيدي عدد قليل من الأشخاص. فنتيجة طغيان التصنيع والمكننَة والتكنولوجيا على العالم، تركزت الطاقات الإنتاجية، والقوة الاقتصادية (عبر نظامٍ مصرفي مركزي ذاتي)، والقوة السيكولوجية (من خلال وسائل الإعلام الجماهيرية) في أيدي عدد متضائل من الأفراد. كان تقليدُ التنوير قد وعد الناسَ بالاستقلالية والحرية، لكنه – وبشكلٍ ما – قلّص شعورَهم بالاستقلالية وعاظمَ إحساسَهم بالعجز أكثر فأكثر. فخلال القرن التاسع عشر، تضاءل عددُ الأشخاص الذين

يشعرون أن القادة السياسيين يمثلون صوتهم في الفضاء العام أو يدافعون عن مصالحهم. ونتيجة لذلك، انفصل الإنسانُ عن طبقاته الاجتماعية التي كان يمثلها السياسيون وشعر كأنه يقف في العراء، دون أي رابط مع المجتمع ككل، ودون أي انتماء إلى مجموعة اجتماعية تنطوي على أي معنىً أو فائدة.

على الرغم من أن تقليد التنوير قد نشأ من تطلّع الإنسان المتفائل والحيوي إلى فهم العالم والتحكم فيه، فقد أدى إلى نتيجة معاكسة من عدة نواحٍ؛ وبشكل خاص، تجربة فقدان السيطرة. فقد وجد الإنسانُ نفسَه في حالة من العزلة، إذ انفصل عن الطبيعة، وعن البنى الاجتماعية التي تربطه بالآخرين، واعتراه شعورٌ بالعجز نتيجة إحساسه العميق بفقدان معنى الأشياء، ووجد نفسه يعيش تحت غيومٍ حبلى بالقوى المدمرة الغامضة، ويعتمد سيكولوجياً ومادياً على القلة السعيدة التي لا يثق بها ولا يمكنه التماهي معها. هذا هو الفردُ الذي أطلقت عليه حنة آرندت اسمَ "الذات المتشظية" (atomized subject). في هذه الذات المتشظية نتعرّف على المكوّن الأساسي للدولة التوتاليتارية.

الفصل الثالث

المجتمع الصّنعي

ما هي نهاية لعبة الإيديولوجيا الميكانيكية (mechanistic ideology)؟ للإجابة عن هذا السؤال، علينا العودة إلى كاتدرائية بيزا حيث تلاحق عينا غاليليو غاليلي، البالغ سبعة عشر عاماً، مصباحاً متأرجحاً. تمكّن غاليليو، نتيجة انفتاحه العقلي وفضوله، من رؤية شيء لم تلاحظه الأعينُ من قبل: سواء كانت تأرجحُ النواس طويلاً أو قصيراً، فإن الزمنَ الذي يستغرقه في كلتا الحالتين هو نفسه دائماً. وإذا توخينا التحليلَ الدقيق، تتبيّن صحّة هذه المقولة. فالتأرجح الطويل يبدأ من موقعٍ أعلى، ومع بدء حركة الهبوط تتسارع حركة الكتلة المتأرجحة. أما التأرجح الأقصر فيبدأ من موقعٍ أدنى، ومع بدء حركة الهبوط يقل تسارع الكتلة المتأرجحة. إذ إن سرعة حركة النواس متوافقة مباشرة مع طول القوس الذي يرسمه؛ وبالتالي فإن حركة النواس تستغرق دوماً المدة الزمنية نفسَها.

مما لا شك فيه أن اكتشافَ غاليليو كان في غاية الذكاء. لكنه لم يكن صحيحاً تماماً. لاحظ كريستيان هويغنز شيئاً عندما كان يبني ساعاته النواسة: إذا علق عدة ساعات على الحائط نفسه، فإن نواسيها سوف تتحرك في النهاية بطريقة متزامنة تماماً.(1) وقد استنتج من ذلك أن الساعات تتواصل مع بعضها بعضاً. افترض هويغنز – وكان محقاً في ذلك، كما تبيّن لاحقاً – أن اهتزازات النواسي تنتشر عبر الجدران مما يسبب انحرافات صغيرة في الزمن تؤدي – بطريقة يصعب فهمها – إلى تزامن في حركات النواسي.

بكلمات أخرى، إن النواسي أكثرُ تعقيداً مما يفترضه قانون غاليليو البسيط. إذ يبدو أنها تمتلك القدرة على تكييف حركاتها تحت تأثير البيئة التي تحتضنها. وتؤكد القياسات الدقيقة لزمن الحركة رأيَ هويغنز، على الأقل إلى الدرجة التالية: على النقيض مما اعتقده غاليليو، لا تتأرجح النواسي دائماً للفترة الزمنية نفسها تماماً. ففي بعض الأحيان تأخذ وقتاً أطول قليلاً، أو وقتاً أقل قليلاً، لكي تُكملَ حركتَها.(2) وقد تبيّن أيضاً أن هذه هي الحالة أيضاً عندما يتأرجح نواسٌ في حالة معزولة، من دون عملية التزامن: ففترات التأرجح ليست نفسها دوماً. مبدئياً، تم استبعاد هذه الانحرافات كشكلٍ من أشكال "الضجة" الهامشية. فقد جرى الاعتقادُ أن الخلل في النواس هو نتيجة عواملَ ميكانيكية تصادفية، مثل التغيرات في تدفق الهواء المحيط أو التفاف السلسلة.

في النصف الثاني من القرن العشرين، تبيّن خطأ هذه الفرضية. إذ تشكل هذه الانحرافات، التي تبدو اعتباطية، نمطاً يمكن توصيفه بواسطة صيغة رياضية على الرغم من اعتباطيته. (تتمتع النواسي بخاصية الاعتباطية الجبرية، وهي مسألة سنعود إليها في الفصل التاسع). وفوق هذا، فإن النمط آنفَ الذكر فريد من نوعه في حالة كل نواس. طالما نظر البشر إلى النواسي بصفتها ظاهرة ميكانيكية بليدة تخضع لقوانين غاليليو، لكن تلك الأجهزة الميكانيكية البسيطة كانت، في حقيقة الأمر، خلاقة في طبيعتها وقادرة على التمرد والعصيان. يعبر جيمز غليك James Gleick، في كتابه *Chaos* **[نظرية الفوضى]**، عن هذه الظاهرة بالطريقة التالية: "اكتشف دارسو الديناميات الفوضوية أن السلوك الفوضوي للأجهزة الميكانيكية كان بمثابة عملية إبداعية. إذ ولّد نوعاً من التعقيد: أنماطاً غاية في التنظيم، تتميز بالاستقرار أحياناً وبالفوضوية أحياناً أخرى، وبالمحدودية أحياناً واللامحدودية في أحيان أخرى، لكنها تتسم دوماً بذلك السحر الذي تتميز به الأشياء الحية".(3)

من شأن اختزال سلوك النواس في قوانين غاليليو أن يسلبه خصائصه "الاجتماعية"، فضلاً عن تفرّده وإبداعه. فإن قمنا بتوليد نواس افتراضي في برنامج كومبيوتريّ يلتزم في سلوكه بقوانين غاليليو بشكل صارم، فسوف يبدو أشبه بنواسٍ حقيقي، لكنه سيكون ظاهرة ميتة تفتقد إلى الفوضى الحيوية التي يتمتعَ بها النواس الحقيقي.

***

يُلقي نواسُ غاليليو الضوءَ على قانون كوني: إن التفسيرَ المنطقي والعقلاني لظاهرة طبيعية – بغض النظر عن شموليتها – يحولها دوماً إلى ظاهرة مجردة. فالأنماط النظرية لا تقبض على أي شيء بشكل كامل، بل تترك دوماً بقية ما دون أي تفسير. وهذه البقية ليست شيئاً هامشياً وعديم الأهمية، كما أنها ليست مجرد "ضجة" اعتباطية. إنها جوهرُ الموضوع، بل هي مكوّنُه الذي ينبض بالحياة.

يمكننا رؤية ذلك، على سبيل المثال، في الفرق بين المُنتجات "الطبيعية" و"الصنعية". فسواء كان المُنتَج نبتة مهندسة وراثياً، أم لحماً مصنّعاً في المختبرات، أم مناعة ناجمة عن اللقاحات، أم دُمىً جنسية ذات تكنولوجيا عالية – فحيثما نعمل على توليد ظاهرة طبيعية بشكل مصطنع من التحليل العقلاني، فإن الظاهرة الصنعية لا تأتي مماثلة للظاهرة الأصلية. ولا تكون الجوانب المفقودة مرئية دائماً. وفي بعض الأحيان تكاد لا تكون مرئية. ومع ذلك

فإنها مهمة، على المستويين المادي والسيكولوجي. وخير مثال على ذلك هو التفاعلات الإنسانية الرقمية، التي استبدلت التفاعلات الإنسانية بتفاعلات رقمية.(4)

مع نشوء أزمة كورونا، حقق النزوعُ نحو المجتمع الرقمي قفزة كبيرة. فقد أصبح العملُ عن بعد ممارسة شائعة، وصار التدريس عبر الإنترنت،(5) وأصبح الناس يستهلكون المقبلات والقهوة أمام شاشة التلفاز أو الكمبيوتر،(6) وحتى الجنس بات يتم عبر وساطة آلية تكنولوجية،(7) وتم تنفيذ حكم الإعدام من مسافة رقمية آمنة.(8) وقد بدا ذلك كله نوعاً من الضرورة، وفي بعض الأحيان ميزة حقيقية. إذ شعر الناس أنهم محميون من الفيروس، ووفروا الوقت، وتخلصوا من زحمة السير، وخففوا من تأثيرهم على البيئة، وتجنبوا الضغوطات والتوترات التي يمكن أن تنشأ عن الاحتكاك المباشر مع الآخرين.

لكن تسارع هذا الوجود الإلكتروني أدى إلى تسارع الضغط والإرهاق، إلى درجة أن البعض يتحدث الآن عن "الكآبة الرقمية" (digital depression).(9) ربما يكمن لبّ المشكلة في التالي: المحادثة لا تنقل المعلومات فقط؛ فهناك أيضاً تبادل جسدي عميق يتم تقويضه من خلال الرّقمنَة (digitalization). وهذا الجانب الفيزيولوجي للكلام في غاية الأهمية. إذ يجعل من اللغة مسألة تتعلق بالحب والشبق، حيث تحمل شحنة إيروسية خالصة. ولهذا السبب فإننا نتوق فيزيولوجياً إلى محادثة حقيقية بعد قضاء أسبوع في الفضاء الإلكتروني.

المحادثة الرقمية ليست مكافئة للمحادثة الحقيقية. نلاحظ هذا بشكل واضح عن الأطفال الرضع. فخلال الأسابيع الستة الأولى، يتعلمون التمييز بين الأصوات اللغوية بسرعة مذهلة، ولكن فقط عندما يستمعون إلى شخص موجود جسدياً وليس عند الاستماع إلى تسجيل صوتي أو فيديو (راجع تجارب كول).(10) إن تعلم اللغة المبكر مرتبط بشكل وثيق بالحضور الجسدي للآخر. فالطفل يتمثل لغة الأم (الجسدية) لأنها تشبع حاجاته الجسدية بدفء جسدها وحليب ثدييها. يركز الطفلُ نظرَه على وجه الأم ويقلّد التعابيرَ التي ترتسم عليه؛ فهو يستمع باهتمام بالغ إلى الأصوات التي تصدرها، حتى أنه يردّد في حالات النشيج والبكاء المبكر نغمات صوتها وكلامها.

والأهم من ذلك هو أن هذا التزامن يحدث قبل الولادة، أي في الرحم. تبيّن تجارب آني ميرفي بول Annie Murphy Paul ("ما يتعلمه الأطفال قبل الولادة")(11) أن بكاء

الطفل بعد الولادة مباشرة يستمد نغمته ولحنه من صوت الأم. وإذا استمع الوليدُ إلى صوت أمه عبر السماعات وهو يرضع من ثديها الأيسر وصوت شخص آخر وهو يرضع من ثديها الأيمن، فإنه سيميل بشكل كبير إلى الرضاعة من الثدي الأيسر. والنتيجة واضحة وحتمية: لقد اعتاد الطفل صوتَ أمه وهو في الرحم؛ فقد أملَت حياتُه في الرحم تناغماً حتمياً مع ذلك الصوت.

وبعد الولادة، يطوّر الطفلُ هذا التناغم البدائي. لكن ذلك لا يحدث ذلك بشكل اعتباطي. إذ يحقق الطفلُ نوعاً من التوافق مع الأم عبر تقليده الإبداعي لأصواتها وتعابير وجهها؛ وبهذه الطريقة، فإنه يشعر بما تشعر به. ومع تمثّل الطفل لتعابير أمه السعيدة، فإنه يشعر بسعادتها أيضاً، وفي حال تمثله لتعابيره الحزينة فإنه يشعر بحزنها أيضاً. ويحدث شيء مماثل في تبادل الأصوات: فمن خلال لغة الأم المتخلقة من حياتها اليومية يتبدى كيانُها وحالاتها الشعورية المتقلبة، والطفل الذي يقلد تلك اللغة يتناغم معها على الموجة السيكولوجية نفسها.

إن هذا التناغم المبكر بين الطفل وبيئته (الاجتماعية) يولد ظاهرة فريدة: يتم "تحميل" جسد الطفل الرضيع بسلسلة من الاهتزازات والتوترات التي تتأصّل في أعمق مسامات جسمه وأدقّها. ومن ثم تشكل نوعاً من "الذاكرة الجسدية" لا تعمل فقط على برمجة وظائف العضلات والغدد والأعصاب والأعضاء، بل تؤسس في الطفل حالات، أو اعتلالاتٍ، سيكولوجية معينة.

إن الجسد الإنساني، وبالمعنى الحرفي للكلمة، هو "آلة وترية". فالعضلات التي تكسي الهيكلَ العظمي وأنسجة ومسامات الجسم الأخرى تكتسب توتراً معيناً في المرحلة المبكرة من الطفولة عبر التبادلات اللغوية التقليدية. ويحدد هذا التوتر الظاهرة (الاجتماعية) التي سيتناغم معها الطفل؛ فيحدد التواترات التي تثير حساسية المرء في حياته اللاحقة. ومن هنا ينبع التأثير المميز لبعض الأشخاص والأحداث، إذ إنها تلامس الجسد والروحَ معاً. ولهذا السبب أيضاً يمكن للصوت أن يولّد تأثيراً مُمرِضاً على الجسد أو يشفيه، بالمقابل.

من هنا يكتسب الصوتُ أهميته الحيوية، وخاصة في سنّ مبكرة. فغيابُ الصوت قاتلٌ بالنسبة إلى الطفل. درس عالمُ النفس النمساوي-الأميركي رينيه سبيتز **René Spitz** مجموعتين من الأطفال تتم تلبية حاجاتهم البيولوجية (الطعام، والشراب، واللباس، والمأوى) بطرق متماثلة، باستثناء تمتُّعِ إحدى المجموعتين بعلاقة سيكولوجية مستقرة مع

وصي يهتم بشؤون أفرادها وحرمان المجموعة الأخرى من هذه الميزة. وقد وجد سبيتز أن معدل الوفيات أكبر بكثير بين أفراد المجموعة الثانية.

يحافظ هذا البُعدُ الفيزيائي الطفيف للتبادل اللغوي على أهميته مدى الحياة. فأثناء الحديث يقلّد البالغون - على غرار الأطفال - تعابير وجه وإيماءات محدّثيهم دون أن ينتبهوا إلى ذلك (راجع الأبحاث المتعلقة بما يسمى العصبونات المرآتية).(12) يحدث هذا عبر نوعٍ من المحاكاة الداخلية، وذلك من خلال زياداتٍ طفيفة في التوترات العضلية. وبغض النظر عن طفافة هذه التغيرات، إلا أنها كافية للكشف - خلال فترة زمنية قصيرة جداً - عن المستويات العميقة لتجربة الآخر الذاتية - سواء كان ذلك الشخص متألماً أو حزيناً أو سعيداً، أو أنه يتظاهر فقط - ومحاكاتها.

يولّد هذا ارتباطاً مباشراً بين المتحدثين. أجريَت دراسات مهنية تفصيلية في المحادثات (العلاجية النفسية) لمدة خمسة عشر عاماً تمكنت من خلالها من تأكيد ذلك بطريقة عملية ملموسة. إذ بيّنَ أحدُ الجوانب أن الأشخاص يستجيبون بسرعة لبعضهم بعضاً أثناء الحديث. فعندما يتوقف شخصٌ عن الكلام، يبدأ الآخرُ كلامَه عادة بعد أقلّ من 0.2 ثانية (زمن الاستجابة لإشارة المرور أطول من ذلك بخمس مرات). ويحدث ذلك حتى عندما لا يُنهي المتحدث جملتَه، إذ إن الشخصَ الآخر لا يستطيع أن يتنبأ متى سيتوقف استناداً إلى بنية الجملة الدلالية.

عندما يتحدث الأشخاص إلى بعضهم بعضاً، فإنهم يتحسسون بعضَهم بعضاً بقوة لأنهم يستشعرون التغييرات الطفيفة في النغمة، وجرس الصوت، وتعابير الوجه، والهيئة الجسدية، وسرعة الكلام، إلخ. فهم يشكلون كتلة عضوية واحدة أشبه بسرب من الطيور. إذ يرتبط بعضهم ببعض بغشاءٍ سيكولوجي يعمل على نقل أدنى حركة جسدية أو روحية. ففي كل تبادلٍ كلامي، مهما كان تافهاً، يتبدى الأشخاصُ على هيئة راقصين بارعين يتناغمون مع شركائهم عبر موسيقا اللغة الأزلية. إننا نمارس الحبَّ أكثر مما نعتقد.

لكن هذه الظاهرة المعقدة تتدهور عند رقمَنتها (digitized). إذ تتعرض التفاعلات الرقمية لقدر من التأخير؛ كذلك تفتقر إلى بعض الأوجه التواصلية، مثل الرائحة والحرارة؛ كما أنها انتقائية (ترى وجهَ الشخص فقط)؛ وتولّد ذلك الترقبَ الدائمَ والمزعج الذي يتلاشى في حالات التواصل المباشر. ونتيجة لذلك، فإن التفاعلات الرقمية لا تتبدّى بصفتها نوعاً من التواصل الكتيم والمحدود فقط، بل تولد فينا شعوراً بالعجز عن استشعار

الآخر (جسدياً). فكما يقول خبيرُ القيادة الوظيفية جيانبييروبتريلييري Gianpiero Petriglieri: "في التفاعلات الرقمية، تتوهم عقولُنا أننا معاً، لكن أجسادَنا تدرك أننا لسنا كذلك؛ فالمرهق في المحادثات الرقمية هو الوجود الدائمُ في حضرة غياب الشخص الآخر". (13)

من هنا، نرى ارتباطاً مباشراً بين الرّقمنة والاكتئاب. تبعاً لنظرية التحليل النفسي الكلاسيكية، يكون الاكتئابُ مرتبطاً بتجربة العجز المحبطة التي تنشأ عن سلبية أو غياب شخصٍ محبوب (عادة ما يكون أحدَ الأبوين في مرحلة الطفولة).(14) ونتيجة لذلك فإنك تدفع للآخر بالعملة نفسها: إذ تصبح أنت سلبياً (أي، مكتئباً). ويقود "الارتباط" الرقمي إلى الدينامية نفسها: تشعر بالعجز أمام "آخر" تشعر بغيابه واستحالة الوصول إليه، وتتمثل ردة فعلك في نوع من الإحباط والسلبية (أي، بالشعور بالإرهاق).

إن الرّقمنة تجرد المحادثة من إنسانيتها. ويحدث هذا عادة بطريقة خفية وماكرة، ولكن ربما تبدو جلية في بعض الأحيان. أقدّم مثالاً حديثاً من المعالجة النفسية التي أمارسها: تستيقظ امرأة في الأربعينات من عمرها في إحدى الليالي ويداها ملطختان بالدم وتدرك أنها تُجهض الطفلَ الذي حلمت به طوال حياتها. تطلب مني، وهي تجهش بالبكاء، إجراء محادثة "حقيقية". في وضعٍ كهذا، يمكن لأي شخصٍ أن يعرف استحالة تسلق الجدار الرقمي للوصول إلى الكلمات التي تحاول هذه الدراما التعبيرَ عن نفسها من خلالها. وفي حال توفر أية إمكانية أخرى، تبدو المحادثة الرقمية في وضع كهذا عملاً يفتقر إلى الإنسانية.

يمكن استخراج أمثلة مشابهة من السياقات التعليمية (لا يمكن لحماس المعلّم، الذي يمكن استشعاره بشكل مادي تقريباً في القاعة الدراسية، أن يحتملَ الرحلة الطويلة عبر كبلٍ ضوئي)؛ والبيئات الوظيفية (إذ يتلاشى الدعمُ الذي يقدمه مديرُ المشروع في اجتماع إلكتروني)؛ وعلاقات الحب (حاول إنقاذَ علاقة حبٍ مضطربة، مع العذاب اللغوي الذي يميز هذه المحاولة، عبر التواصل الإلكتروني)؛ وكذلك من أي وضعٍ يتطلب من الشخص التحلي التامّ بإنسانيته.

إذا كان هذا كله صحيحاً، فما سرّ "جاذبية" التفاعلات الرقمية؟ لماذا تخلّينا بسرور عن الأحاديث الودية المباشرة مقابل الرسائل النصية قبل أزمة كورونا بوقت طويل؟ من المناسب التواصل بهذه الطريقة مع الأشخاص البعيدين؛ هذا صحيح بالتأكيد. ولكن هناك عاملٌ سيكولوجي آخر مهمّ. إن الشك هو الميزة الأساسية للتجربة الإنسانية؛ فالإنسان هو

الحيوان الوحيد المسكون بالشك أو الموبوء بالأسئلة الوجودية، وهذا صحيح بشكل خاص فيما يخص علاقتنا بالآخر. كيف أكون طيباً مع الآخر؟ هل يحبني؟ هل يجدني جذاباً؟ هل أعني شيئاً بالنسبة إليه؟ وما الذي يريده مني؟

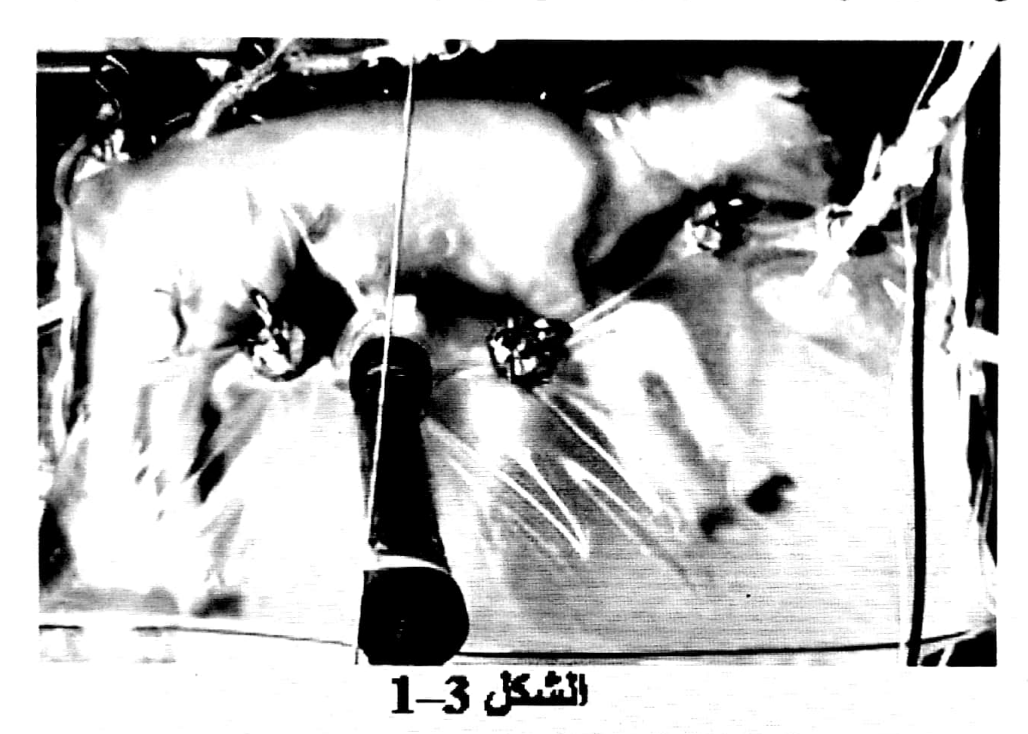
في المحادثة الرقمية، حيث نُبقي الآخرَ على مسافة منا مع إمكانية الوصول إليه، تصبح هذه الأسئلة الأبدية والشك والخوف اللذان تنطوي عليهما أقلّ ضراوة. إذ يكون التحكمُ أكبرَ بكثير؛ فمن السهل إظهار بعض الأشياء وإخفاء بعضها الآخر. وباختصار، فإن الناسَ يشعرون بأمان سيكولوجي أكبرَ وراحة أكبر خلف جدارٍ رقمي، لكن الثمن الذي يدفعونه يتمثل في الترابط والتواصل المباشر. ويحيلنا هذا إلى موضوعةٍ سوف تتكرر مراراً في هذا الكتاب: إن مكننَة العالم تجرّد الإنسانَ من الاحتكاك ببيئته وتحوله إلى ذاتٍ متشظية، على غرار الذات التي رأت فيها حنة آرندت المكوّنَ الأساسي للدولة التوتاليتارية.

***

إن العلمَ يكيّف نظريتَه مع الواقع، بينما تعمل الإيديولوجيا على تكييف الواقع مع النظرية. ويتضمن هذا الإيديولوجيا الميكانيكية التي تسعى إلى تكييف الواقع مع سردها التخييلي النظري. فهي تهدف إلى الارتقاء بالطبيعة والعالم. سبق أن أتينا على ذكر النباتات والحيوانات المهندسة جينياً، واللحوم المنتجة مخبرياً، ومنتجات صنعية أخرى، لكن الأمر يتجاوز هذا كله. إذ يزعم البعض أن الدورة الشهرية شيء مزعج يجب التخلص منه بواسطة الهرمونات وتحويل الدورة الأنثوية إلى خطٍ واحد مسطح.(15) وبعد سنوات من التجارب التي تهدف إلى "تنمية" أجنة البقر والكلاب في رحمٍ صناعية،(16) لا تتجاوز كونها مجرد كيس بلاستيكي (انظر الشكل 3-1)، يعتقد البعضُ أن الوقت قد حان لاستبدال رحم الأم بكييس صنعي.(17)

لكن الشيء الوحيد الغائب الكفيل بجعل هذه الممارسات مماثلة تماماً لبرامج الاستيلاد في رواية ألدوس هَكسلي Aldous Huxley، *Brave New World* **[عالم جديد شجاع]** يتمثل في استبدال صوت الأم بالتكرار الرتيب للرسائل التوجيهية. وفي هذه الحالة، فإن الأصداءَ الشجية لصوت الأم لن تنعكس بعد ذلك في بكاء طفلها الرضيع. فبدلاً من ذلك، سوف يأتي الطفلُ إلى العالم وقد تعرّض سلفاً لـ"التكييف الاجتماعي". كما لا يمكن التقليل من أهمية الميزات الأخرى. إذ سيكون بمقدور الأبوين المستقبليّين الاستمرار في حياتيهما

الطبيعيتين خلال أشهر "الحمل" التسعة.(18) ولكن لم يتضح بعد بشكل كامل إن كان وجود الطفل سيغيّر من الحياة شيئاً بعد فتح الرحم الصنعية و"ولادة" الطفل.



الشكل 3–1

إن الرحم الصنعية ليست بعيدة كما نعتقد. فالشيء الوحيد المطلوب لإقناع مجتمعٍ يرزح تحت هيمنة الإيديولوجيا الميكانيكية هو مجموعة من "الخبراء" الذين يقدمون إحصائيات وبيانات يومية في وسائل الإعلام تفيد بأن الأرحامَ الصنعية تحمي الأجنة من الفيروسات والعوامل المُمرِضة بنسبة أكبر بقليل من جسد الأم الذي يفتقر إلى التعقيم الكامل. فمن خلال هذا المنطق، سوف يتم اعتبار أي شخصٍ يختار الحملَ الطبيعي غيرَ مؤهلٍ ليكونَ أباً أو أماً؛ إذ إن مثل هؤلاء الأشخاص يعرّضون أطفالَهم لمخاطرَ غير ضرورية، حتى قبل الولادة. ولا يمكننا الآن التنبؤ بقدرة الأصوات المعارضة على دحض هذا المنطق. إذ لا يمكن الدفاع عن الحياة إلا من خلال المجاز والشعر، ومع ذلك فإنهما يبدوان باهتين أمام الهدير الرتيب للآراء الميكانيكية.

تتساوق هذه النزعات مع رؤية أكبر لمجتمع مثالي. فالمؤسساتُ التي تُعنى بالمجتمع المستقبلي، مثل المنتدى الاقتصادي العالمي (World Economic Forum)، تعتبر من البدهيات تحوّل العالم إلى عالمٍ رقمي (digicosm)، أي إلى "مجتمع" تتجسد فيه الحياة البشرية على الإنترنت. ومن الغريب أن الحركة المناخية في القرن الواحد والعشرين تتبنى هذه النزعة بشكل كامل. فمن خلال التزامها بالنهج "المناخي الحداثي"، فإنها تهدف إلى إنقاذ الطبيعة من خلال حمايتها من الإنسان. وتبعاً لهذا الخط فإن العيش في الريف

عبارة عن جريمة، على غرار استخدام مدافئ الحطب أو تناول اللحم الطبيعي (أي، المُجاز مخبرياً). وتبعاً لهذا المنطق، فإن الحياة المثالية تُعاش داخل الجدران وتتغذى على نوع من التنقيط الوريدي. أما الحقيقة القائلة إن الإنسانَ والطبيعة يشكلان وحدةً صوفية ويمكن لهما التعايش في نوع من التناغم فتتبدى – تبعاً لهذا المنطق – كرؤية رومانسية وغير واقعية، أو حتى خطرة، من منظور القضية الملحّة المتعلقة بالتغير المناخي.

تتقاطع هذه الرؤية الاجتماعية مع ما يسمى ما وراء الإنسانوية (transhumanism). وهذه استعادة عصرية للإيديولوجيا الميكانيكية التي ترى من المستحسن، أو الضروري، اندماج البشر المستقبليين جسدياً وعقلياً مع الآلات. إذ يهدف المروّجون لهذه الرؤية إلى استبدال فوضى الأجساد الدينامية المتضوّرة بنوع صارم من "إنترنت الأجساد" التكنولوجية (internet of bodies). ولتحقيق هذه الغاية، يجب تحميل الأجساد بالشرائح الدقيقة (microchips) ومراقبتها بواسطة الإنترنت. وحالما يتحقق ذلك، لن يكون من الممكن فقط محاربة الجريمة والتحرش الجنسي بشكل أكثر فعالية من قبل، بل سيكون بالإمكان تنفيذ الإصلاحات الجينية والطبّ الوقائي عبر تجميع البيانات البيومترية (biometric data) واستبدال مقاومة الجسد الطبيعية بنوع من المناعة الصنعية التي يتم توليدها عبر اللقاحات. ويمكن حتى للعقل البشري أن يفيدَ من هذه التطورات. فقد أعلن إيلون مَسك Elon Musk في سنة 2020 أننا لن نحتاج، بعد خمس سنوات، إلى لغةٍ إنسانية رديئة – تشكل مصدرَ سوء الفهم الأبدي – لأنه سيعمل على توفير شريحة دقيقة تُزرع في الدماغ بحيث تمكّن البشرَ من التواصل عبر إشارات رقمية دقيقة.(19)

أما الخطوة التالية فيجب ألا تأتي كنوع من المفاجأة: في هذا المجتمع المثالي، سوف يسعون أيضاً إلى التحكم بالظروف المناخية – التي طالما شكلت مصدرَ قلق للمزارعين حول العالم منذ الأزل – من خلال وسائلَ ميكانيكية–تكنولوجية حاسمة. وتُعتبر مثل هذه الإجراءات أساسية نتيجة الاحتباس الحراري، ويعتقد خبراء التكنولوجيا أنهم قادرون على فعل ذلك. فعلى سبيل المثال، يمكنهم حجب الشمس من خلال وضع مرايا "ذكية" بين الأرض والشمس، وإطلاق الغيوم الكبريتية من الصواريخ، أو زرع القنابل الطباشيرية في الجزء الأعلى من الغلاف الجوي .(20)(stratosphere) إن الإيديولوجيا الميكانيكية تعيش دوماً على مبدأ الائتمان! ففي المستقبل، عندما تتحقق المعرفة المثالية وتسود التكنولوجيا الدقيقة، سوف تنتقل هذه الوحدة المكونة من الإنسان والآلة إلى نوع من

النعيم. أما الآن، فإنها تُمرِض البشرَ وتصيبهم بالكآبة.

لكن موسيقا الإيديولوجيا الميكانيكية المنتصرة تحتوي دائماً نغمةً تنطوي على شيء من النشاز. فقد تعلّمنا أن هناك ثمناً ما لأي نوع من أنواع اليُسر والرفاهية، وأن هذا الثمن لا يتبدّى إلا في وقت متأخر جداً. فقد اتضح أن مكونات الـfluorine في طناجر Teflon والمركّبات الكيميائية العضوية الفلورية الاصطناعية (PFAS) التي تدخل في تصنيع المعاطف المطرية العازلة هي مواد مُسَرطِنة(21) وكذلك الأمر بالنسبة إلى أكسيد الإيثلين (ethylene oxide) المستخدم في مئات المنتجات اليومية.(22) فالعلاقة بين المواد الكيماوية والأمراض المزمنة وغير المُعدية - والمسماة بأمراض الحضارة - معروفة جداً، لكن ذلك لا يحول دون دفع عملية "التحضّر" نحو الهاوية.(23) فكلّما تعاظمَ تأثيرُ العلم الميكانيكي على العالم، توسّعَ إدراكنا بأننا نخلق مشكلات يصعب علينا إيجاد أية حلولٍ لها. فالحساء البلاستيكي (plastic soup) المتزايد في المحيطات والنفايات النووية التي تحافظ على نشاطها لمئات آلاف السنين لا يشكلان سوى مثالين اثنين من عدد كبير من الحالات المشابهة. كانت تلك المشكلات، من حيث المبدأ، جلية منذ البداية لكل من يتمعّن فيها. ففي القرن الثامن عشر، استشعرَ الرسام والشاعر البريطاني وليام بليك William Blake - على سبيل المثال - الطبيعة المدمرة والفتاكة لمكننة العالم. وبطريقة ما، فإن أعماله كلها تشهد على هذا الدمار القادم. ولسوء الحظ كان بليك، ولا يزال، حالة استثنائية.

ما الذي يُغري الجنسَ البشري إلى هذا الحد في الإيديولوجيا الميكانيكية؟ ربما يجيب الأثرُ الذي يولّده الوهمُ التالي عن هذا السؤال بشكل جزئي: القدرة على تحييد متاعب الوجود دون الحاجة إلى أي نوعٍ من مساءلة الذات. ويتجلّى ذلك، في شكله الأبهى، في الطب الحديث. يتم تقصّي أسباب الألم، بشكل نموذجي، في "عطبٍ" ميكانيكي يصيب الجسد أو في عامل خارجي، مثل البكتيريا المُمرِضة أو الفيروس. يتم تحديد السبب والتحكم به (من حيث المبدأ)، والتعاطي معه، واستغلاله دون أن يحتاج المريضُ إلى مواجهة أية تعقيدات سيكولوجية أو أخلاقية. "تساعدك حبة الدواء في التخلص من مشاكلك"، "تحررك الجراحة التجميلية من عُقدك دون الحاجة إلى البحث عن أسباب إحساسك بالعار أو الخجل". ففي حين تعمل التطبيقات العملية على تسهيل الحياة، يأفلُ جوهر الحياة أكثر فأكثر. وتحدث هذه العملية في أغلبها تحت مستوى الوعي، لكنّ تفاقمَ الألم العقلي يشكل علامة حاسمة تتبدى بسهولة على سطح المجتمع.

لم يكن أمام إنسان التنوير خيار آخر سوى التمسك بنوع من التفاؤل الطوباوي. ففي القرن التاسع عشر، أخذ المجتمع الأرستقراطي والطبقي في التلاشي ومعه البنى الاجتماعية المحلية المرتبطة به. ونتيجة لذلك، خرج الإنسانُ من سياقه الاجتماعي والطبيعي، ومع سقوطه تلاشى المعنى أيضاً (راجع الفصل الثاني). وفي هذا العالم الميكانيكي "المُحبَط" (ماكس فيبر Max Weber)، فقدت الحياة معناها، كما فقدت الأطرُ المرجعية اللاغائية (تعمل الآلة الكونية من دون أي معنىً أو غاية) والأطر الدينية أهميتَها واتساقَها.(24) ثم بدأ القلقُ والتوتر، اللذان كانا يُعزيان فيما مضى إلى الاضطهاد الذي يمارسه الأرستقراطيون ورجال الدين، يموران في الروح البشرية. كما أن الإحباط والعدائية، اللذين كانا يقبعان تحت ظل الخوف من الجحيم ويوم الحساب، صارا عرضة للتنشيط والاستغلال. ونتيجة ذلك كله، بدأ مفهومُ الآخرة في التلاشي وحل محله إيمانٌ بنوع من النعيم الميكانيكي–العلمي الصنعي.(25)

في هذا المفصل بالذات نحدد، مع حنة آرندت، الأساسَ المشكلَ للتوتاليتارية: الاعتقاد الساذج بإمكانية إنتاج كائنٍ شبه إنساني (humanoid) مثالي ومجتمع طوباوي استناداً إلى المعرفة العلمية.(26) تشكل الفكرة النازية المتمثلة في تخليق إنسان متفوقٍ نقيّ بناءً على علم الأنسال والداروينية الاجتماعية، والمثال الستاليني لمجتمع بروليتاري مبني على المادية التاريخية مثالين نموذجيين، على غرار الصعود الحالي لفلسفة ما وراء الإنسانوية. فعندما نسمع عن مثل هذه الإيديولوجيات، نميل إلى التفكير بأنها نتاجُ عقول مختلّة. لكن هذا التفكير ينطوي على مغالطة. فقد وجد أفلاطون Plato، على سبيل المثال، في علم الأنسال ممارسة مقبولة وجدت لها مكاناً في مدينته الفاضلة.(27) كما علّمنا القرنُ العشرون أن هذه الممارسة تقود حقاً إلى "نجاحات" معينة. إذ أدّت عمليات الإجهاض المنهجية للأجنة التي تحمل مورثات مرض التلاسيميا في قبرص إلى اختفاء مرض الدم الوراثي هذا من الجزيرة بشكل كامل.

علينا أن نطرح على أنفسنا السؤالَ التالي: ما المانعُ من تبني مبادئ علم الأنسال؟ بصفتها استراتيجية اجتماعية، يمكن رفضها على أسسٍ أخلاقية صرفة، ولكن من الضروري أيضاً أن نتمكنَ من رفضها على أسس عقلانية. ويمكن لجوهر هذا الرفض العقلاني أن يتمثل فيما يلي: يمكن لعلم الأنسال أن يقود "محلياً" إلى بعض النتائج الجيدة، ما دام الأمر يتعلق بـ"استئصال" الخصائص "غير المرغوبة"؛ أما من منظور شامل، فإن أضراره تفوق فوائده.

إذ إن التنظيم الحكومي للفضاء الحميم يقود إلى اليأس النفسي، وبالتالي إلى تدهورٍ في الصحة الجسدية. (سوف نتوسع أكثر في هذا الموضوع في الفصول الأخيرة). فحتى في سياق إيديولوجيا تضع الصحة الجسدية هدفاً نهائياً لها، يبقى علمُ الأنسال استراتيجية مشبوهة تتجاهل تعقيدات ورهافة الكائن الإنساني.

وكما تقول حنة آرندت، إن التوتاليتارية هي الامتدادُ المنطقي لهوسٍ عام بالعلم وإيمانٍ راسخ بنعيمٍ صنعي: "لقد (أصبح) العلمُ إلهاً يمتلك قدرة سحرية على علاج شرور الوجود وتغيير طبيعة الإنسان".(28) سوف نتعمق بشكل أكبر، في الفصل التالي، في واحد من الملامح الرئيسة للخطاب الميكانيكي والتوتاليتاري: الاعتقاد الساذج بإمكانية قياس الواقع والاستخدام والاستغلال المفرطين للبيانات والإحصاءات.

الفصل الرابع

الكون (غير) القابل للقياس

في الفصل الثالث، قمنا بإخضاع الهدف (الطوباوي) للإيديولوجيا الميكانيكية لنوع من التحليل النقدي. أما في هذا الفصل، فسوف نركز على الطريقة التي تستخدمها هذه الإيديولوجيا في تحصيل المعرفة. إن الكونَ آلةٌ يمكن قياسُ مكوِّناتها؛ ويشكل هذا الزعمَ الأساسي لهذه الإيديولوجيا. إذ تشكل القياسات والحساباتُ أساسَ الطرائق البحثية الميكانيكية. وتؤثر نقطة الافتراق هذه على مفهوم الإيديولوجيا للمجتمع المثالي. فمن وجهة نظرٍ مثالية، يقود المجتمعَ تكنوقراطيون خبراءُ يتخذون قرارات مبنية على بيانات عددية موضوعية. وخلال أزمة كورونا، بدا تحقق هذه الهدف الطوباوي قاب قوسين أو أدنى. ولهذا السبب، فإن أزمة كورونا تشكل موضوعاً مثالياً لإخضاع الثقة في القياسات والأرقام للتحليل النقدي.

قبل نشوء هذه الأزمة الأخيرة، لم يسبق للمجتمعات أن حُكِمَت على أساس البيانات العددية. إذ كان يتم توجيهها بواسطة "القصص"؛ أولاً بواسطة القصص الأسطورية والدينية، ومن ثم بواسطة القصص السياسية. لكن الإيديولوجيا الميكانيكية لا تقبل هذه الثقة بالقصص لأنها لا عقلانية وذاتية بطبيعتها؛ إذ تعبّر عن مؤلف القصة أكثر مما تكشف عما يسمى بالواقع الموضوعي الذي تمثله. فالقصص تتكون من الكلمات، الكلمات التي يمكن أن تعني أي شيء، ولا تتمتع بأية علاقة متينة وعقلانية بالحقائق.

ومن دون أي أساس عقلاني، فإن الإنسان يضل طريقه؛ أو هذا ما تؤمن به الإيديولوجيا الميكانيكية. ففي نهاية الأمر، عادة ما تفضل جميع هذه القصص مؤلفيها؛ فكروا في اهتمامات رجال الدين والوظائف الوهمية التي تُمنح للسياسيين. علينا ألا نتعامل مع هذه المسألة بنوع من الخفة. فهي تقود إلى استغلال السلطة، أو إلى نوع من الرعب العبثي في نهاية المطاف. إذ تمثل الأراملُ الهندية اللواتي يتعرضن للحرق الطقسي والساحراتُ الأوروبيات اللواتي كنّ يتعرّضن للموت غرقاً مثالَين فقط على مجموعة كبيرة ومتنوعة من الضحايا. هذه هي الطريقة التي كانت المجتمعات السابقة تنتقل فيها من السيئ إلى الأسوأ: القصص؛ الذاتية؛ العقلانية؛ الظلم الشديد؛ والرعب العبثي.

قدّمت أزمة كورونا فرصة غيرَ متوقعة للإيديولوجيا الميكانيكية؛ فقد وفر الشك

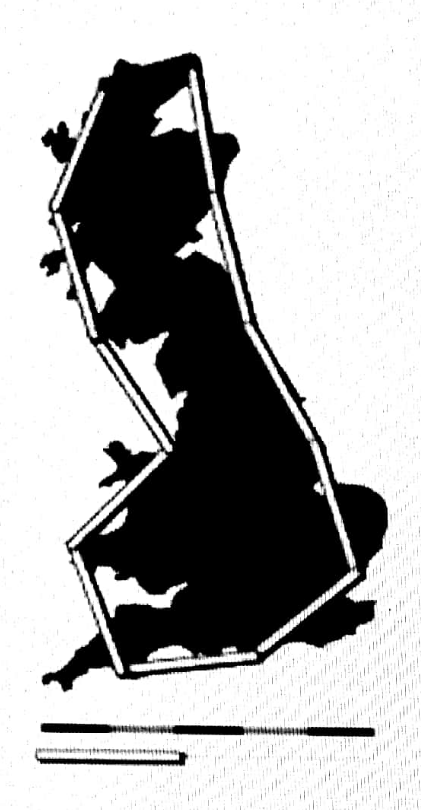
والخوفُ من الفيروس أساساً لتشكل وتطوّر مجتمع تبني فيه القراراتُ على الأرقام عوضاً عن القصص. فاليوم نتحدث عن أعداد "بسيطة" نسبياً عن حالات العدوى، وإسعاف المرضى إلى المشافي، والوفيات؛ أما في المستقبل فربما نتحدث عن البيانات التكنولوجية المتعلقة بالاستدلال الإحيائي التي تقيس جميعَ الوظائف الفيزيولوجية.

على النقيض من الكلمات، تقدم الأرقام أساساً موضوعياً للقرارات الشفافة والعقلانية. وفي هذه الحالة، فإنها تشكل ترياقاً لاستغلال السلطة والرعب العبثي. وفوق ذلك، فإنها تتيح الفرصة لتخفيف الألم الإنساني. هذا هو الطريق المؤدي إلى المجتمع العقلاني المستقبلي: البيانات؛ الموضوعية؛ الدقة؛ والتخفيف من الألم. ومن هذا المنظور، يمكن لفيروس كورونا أن يصبحَ تتويجاً للمنجزات الإنسانية. على الأقل، هذا ما تنطوي عليه الحكاية بطريقة أو بأخرى.

ألقوا نظرة على الشكل 1-4. إذا قسنا طولَ الخط الساحلي لبريطانيا العظمى استناداً إلى وحدة قياس 200 كم، فإن طوله يبلغ 2.400 كم. أما إذا قسناه بوحدة قياس 50 كم، فإن طوله يكون 3.400 كم. فمع تخفيض وحدة القياس، يتزايد طولُ الخط الساحلي إلى ما لا نهاية. والسبب في غاية البساطة؛ فمع تضاؤل وحدة القياس، فإنها تتتبّع بدقة أكبر الخطَ الساحلي المتعرج مما يجعل الحدّ الجغرافي أطولَ. وبهذه الطريقة بيّنَ الرياضيّ اليهودي-البولندي البارز بونوا ماندلبروت Benoit Mandelbrot أن القياسات نسبية دائماً، تبعاً لسلسة من الخيارات الذاتية مثل وحدة القياس.(1)



الوحدة= 50 كم
الطول= 3400 كم
(تقريباً)



الوحدة= 200 كم
الطول= 2400 كم
(تقريباً)

الشكل 4–1

***

وحتى في الحالات النادرة التي تُعتبر فيها القياساتُ نفسها دقيقة وشبه موضوعية (مثل قياس طول أشياءَ أحادية الأبعاد، كالعصا، أو عدّ أعضاء أصناف منفصلة)، يبقى هناك عاملٌ ذاتي مهم على المستوى التأويلي. يتوضح هذا من خلال مثال يُعرف في علم الإحصاء بمفارقة سيمبسون.(2) يبيّن الجدول 4– 1 عدد الإعدامات المنفذة على جرائم القتل في ولاية فلوريدا، موزعة بين المرتكبين البيض والسود. والخلاصة واضحة: الأشخاص البيض معرّضون لعقوبة الإعدام أكثر من السود في فلوريدا. وقد استنتج الباحثون أن التحيّز ضد السود لا يشكل دافعاً لإنزال عقوبة الموت بالمتهمين؛ أي، إلى أن قام إحصائيٌ بتقديم الأرقام نفسها بطريقة مختلفة قليلاً. إذ لم يكتفِ بتقسيم عرق المرتكبين إلى الأبيض والأسود، بل قام أيضاً بتقسيم عرق الضحايا تبعاً لذلك (انظر الجدول 4–2). وقد قاد هذا إلى النتيجة المناقضة.

الجدول 4– 1 الإعدامات في فلوريدا تبعاً لعرق المرتكب

عرق المرتكب	عقوبة الإعدام		النسبة المئوية لتنفيذ العقوبة
	نعم	لا	
أبيض	19	141	11.9
أسود	17	149	10.2

الجدول 4-2 الإعدامات في فلوريدا تبعاً لعرق الضحية

عرق المرتكب	عرق الضحية	عقوبة الإعدام		النسبة المئوية
		نعم	لا	
أبيض	أبيض	19	132	12.6
	أسود	0	9	0
أسود	أبيض	11	52	17.5
	أسود	6	97	5.8

إن الأشخاص السود معرّضون لنيل عقوبة الإعدام إذا قتلوا شخصاً أبيضَ أكثر من الأشخاص البيض في حال قتلوا شخصاً أسودَ. من المغري التفكير أن هذا هو التحليل النهائي، ولكن هناك طريقة أخرى لتقديم هذه الأرقام، مما يمكن أن يؤدي إلى نتائجَ مختلفة أيضاً.

تتمتع الأرقام بتأثير سيكولوجي فريد. إذ تولّد وهماً قوياً بالموضوعية يتعزز أكثرَ عند تقديم هذه الأرقام بصرياً من خلال جداولَ أو رسوم بيانية. فعندما نرى الأرقام، نعتقد أنها أشياء أو حقائق. ويعمينا هذا عن الحقيقة الجلية بأن الأرقام تتمتع دوماً بالنسبية والغموض، وأنها تتأتى من قصة تنطوي على عواملَ إيديولوجية وذاتية.

***

رأينا، في الفصل الأول، أن ما يسمّى بأزمة التكرار التي نشأت في الحقل العلمي في سنة 2005 لم تلقَ طريقَها إلى الحل. ومنذ ذلك الوقت حتى الآن، لم يتوقف العلم عن مواجهة وابل من الأخطاء والتناقضات والاستنتاجات الاعتباطية والمزيفة. فبطريقة ما، كانت أزمة

كورونا مجرد استمرار لهذه الأزمة الأساسية. لكن الفرق هذه المرة تمثل في أن المشهد لم يتخلّق داخل الدوائر الأكاديمية بل في الفضاء العام. وقد تجسدت جميعُ المشاكل التي ظهرت على السطح قبل عقد من الزمن في وسائل الإعلام الجماهيرية وعلى مرأى من الجميع. فلم يصدق الكثيرُ من الناس أعينَهم وآذانهم وهم يرون علماءَ مرموقين يناقضون أنفسَهم وزملاءَهم، ويرتكبون أخطاء عددية وحسابية بسيطة، ويبدلون آراءَهم بشكل ارتجالي وغير مدروس، ويتأثرون علناً بالمصالح المالية في تصريحاتهم العلمية، وصولاً إلى الاعترافات الصريحة بتضليل الناس بشكل متعقد.

لعبت الأرقامُ دوراً هاماً في هذه الحكاية المتطاولة. من حيث المبدأ، كانت أزمة كورونا حول حسابات تتعلق بظاهرة بسيطة نسبياً، كعدد الإصابات، وإسعاف المصابين إلى المشافي، والوفيات. ولكن كان واضحاً وضوح الشمس أن البيانات لم تكن موضوعية قط. إذ كان يتم تحديد الإصابات بواسطة اختبارات PCR التي تفتقر إلى الدقة. فهذه الاختبارات مصمَّمة لتحديد وجود سلاسل RNA ذات منشأ فيروسي في الجسم.(3) ولكن يمكن لسلاسل RNA تلك أن تنشأ من فيروسٍ نشط ومن فيروسٍ "ميت" أيضاً. ونتيجة لذلك يمكن لنتائج الاختبارات أن تأتي إيجابية حتى بعد أشهر من التقاط العدوى (وبالتالي بعد مضي وقتٍ طويل من تلاشي قدرتهم على عدوى الآخرين). كان هذا واحداً فقط من القصورات التي ينطوي عليها هذا الاختبار.

من جهة أخرى، كانت تقديراتُ التغير في نسب العدوى استناداً إلى نتيجة الاختبار الإيجابية في غاية الإشكالية. فعلى سبيل المثال، رفض خبراءُ الصحة العامة الذين تحدثوا إلى وسائل الإعلام حول أنماط العدوى ضبطَ العدد الإجمالي للاختبارات الحاصلة. (من الناحية التقنية، قاموا بالإبلاغ عن العدد الكامل للاختبارات الإيجابية عوضاً عن نسبة النتائج الإيجابية). ففي صيف 2020، سُمِحَ لعالم الفيروسات والرئيس الأسبق لجامعة لييج، برنار رونتييه Bernard Rentier، بالاطلاع على البيانات الأولية لما يسمى بالموجة الصيفية (التي شميت آنذاك بالموجة الثانية). وبعد أن أجرى تحليلاً نقدياً لهذه البيانات، استنتج أن العدد المقدّر لحالات العدوى بعد ضبطه مع العدد الكلي للاختبارات المجراة كان أقلّ بعشرين إلى سبعين مرة من التقديرات المذكورة في وسائل الإعلام.(4) وإن كنتم تعتقدون أن أخطاء كهذه تُرتكب مرة واحدة فقط فأنتم مخطئون. ففي صيف 2021، تكرر السيناريو نفسُه. وفي هذه المرة، ذُكرت نسبة الاختبارات الإيجابية بشكل عابر لكنهم

حذرونا مرة أخرى من موجة صيفية مبنية على جداولَ تصور العددَ الكامل لحالات العدوى.

كانت البياناتُ حول قبول المصابين في المشافي نسبية جداً أيضاً. فخلال هذه الأزمة، تم تصنيف أي مريض يأتي اختبارُه إيجابياً لدى دخوله المشفى على أنه مصاب بكوفيد-19، سواء بدت عليه أعراض كوفيد-19 أو كان يعاني من كسرٍ في الساق. وفي مرحلة معينة، بدّلت الحكومة الأسكتلندية مقاربتَها للموضوع وبدأت تصنف الأشخاص المصابين بفيروس كورونا بناءً على نتيجة الاختبار الإيجابية والأعراض الناجمة عن كوفيد-19. والنتيجة؟ تقلصت النسبة إلى 13% من العدد الأصلي لمرضى كوفيد-19. (5)

لم يكن هذا العاملَ الوحيد الذي حرّفَ بيانات المشافي. ففي ربيع 2021 نشر جيرون بوسرت Jeroen Bossaert في الصحيفة الفلمنكية *Het Laatste Nieuws* واحدة من المقالات الصحفية الاستقصائية القليلة المهمّة حول أزمة كورونا بأكملها. بيّنَ بوسرت أن المشافي ومؤسسات الرعاية الصحية الأخرى قد بالغت في أعداد الوفيات وحالات العلاج الناجمة عن كوفيد-19 بهدف الكسب المالي.(6) لكن هذا ليس مفاجئاً بحد ذاته، بما أن المشافي تلجأ إلى هذه الوسائل منذ زمن طويل. أمّا المفاجئ فهو أنّ الناس رفضوا، أثناء أزمة كورونا، الاعتراف بالأثر الذي تركته الدوافع الربحية على البيانات. إذ إن قطاع الرعاية الصحية برمّته قد اكتسب فجأة نوعاً من القدسية، على الرغم من أن الكثير من الأشخاص كان يعبّرون عن استيائهم، قبل أزمة كورونا، من نظام الرعاية الصحي الربحي وBig Pharma ويوجهون لهما انتقادات حادة (راجع، على سبيل المثال، كتاب *Deadly Medicine and Organised Crime* [الطب القاتل والجريمة المنظمة] لبيتر غوتشه Peter Gøtzsche.(7)).

إضافة إلى ذلك، تكشّفَ أن البيانات المتعلقة بإحصاء الوفيات – والتي ربما تكون أكثر المتغيرات الأولية من بين جميع البيانات – تتميز بالغموض. إذ إن نحو 95% من الوفيات التي تم تسجيلها بصفتها ناجمة عن كوفيد-19 أظهرت حالات مرضية أخرى. وتبعاً للمراكز الأميركية المتخصصة في التحكم في الأمراض والوقاية منها، لم تتجاوز نسبة الوفيات في حالة الأشخاص المصابين بكوفيد-19 فقط 6%.(8) وفوق ذلك، كان معظم ضحايا كورونا متقدمين في السن، بمعدل 83 سنة في بلجيكا خلال الموجة الأولى، أي أكبر بقليل من متوسط العمر. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف نحدد من يموت "بسبب" كوفيد-19؟ وفي حال أن شخصاً عجوزاً يعاني من مشكلات صحية "أصيب بفيروس

كورونا" ومات، فهل يكون هذا الشخص قد توفي "بسبب" الفيروس؟ وهل جعلت القطرة الأخيرة الوعاءَ يفيض أكثر من القطرة الأولى؟

***

خلاصة القول إن الأرقام الأساسية في أزمة كورونا لا تشكل بيانات موضوعية؛ إذ إنها مبنية على أساس التوقعات والاتفاقيات الذاتية. وبناءً على الطريقة التي تتم بها تلك الاتفاقيات، يمكن للأرقام أن تختلفَ بعامل لا يقل عن خمسة عشر أو حتى عشرين. وفي هذه "الغابة الذاتية"، يهتدي الجميع – عن وعي أو بلا وعي – بتحيّزاتهم ويختارون الأرقامَ التي تعزز قناعاتهم الذاتية. ولذلك فإن بعض الأشخاص يستقرئون من الأرقام التي نتعامل معها مشكلةً تضاهي الإنفلونزا الإسبانية، بينما يعتقد آخرون أن الوضع في حدوده العادية. ويمكن، بالطبع، تدعيم وتعزيز هذين الرأيين المتناقضين بواسطة "البيانات الموضوعية".

إن الأرقامَ التي تقدمها سرديةُ فيروس كورونا السائدة تبالغ في خطورة الفيروس. وينعكس هذا الميلُ أيضاً في الأنماط الوبائية التي تستند إليها هذه السردية. فقد ارتكز قرارُ استراتيجية الإغلاق، بشكل أساسي، على الأنماط التي طورتها الكلية الملكية في لندن. فقد تنبأت تلك الأنماط بحدوث 40 مليون وفاة في جميع أنحاء العالم مع نهاية شهر أيار/ مايو من سنة 2020 في حال عدم اتخاذ إجراءات جذرية تهدف إلى احتواء الوباء. لكن العديد من الباحثين البارزين – من أمثال مايكل ليفيت Michael Levitt، الحائز جائزةَ نوبل في الكيمياء؛ وجون لوانيدس، الذي يُعدّ أسطورة في حقل الإحصائيات الطبية – احتجّوا على ذلك بقوة. إذ أشاروا إلى أن الأنماط التي قدّمتها الكلية الملكية مبنيةٌ على افتراضات خاطئة، كما أنها بالغت جداً في تقدير الخطر الناجم عن الفيروس.

مع نهاية أيار/ مايو 2020، ثبت أن هؤلاء النقاد كانوا على حق. فلم يقترب أيّ من البلدان، سواء تلك التي اتبعت سياسة الإغلاق أم لا، من أعداد الوفيات التي توقعتها تلك الأنماط. وربما تمثل السويد المثالَ الأهم. فتبعاً لأنماط الكلية الملكية، سوف يسجل هذا البلد 80.000 حالة وفاة مع نهاية شهر أيار/ مايو إن لم يطبق استراتيجية الإغلاق، وهو شيء لم يحصل طبعاً؛ إذ لم تتجاوز الوفيات 6000. وقد تطلّب الوصولُ إلى هذا الرقم اللجوءَ إلى طرق الإحصاء "الحماسية" الموصوفة أعلاه، وإلا لكان الرقمُ أقلّ من ذلك بكثير.

المثير في الأمر هو أن المرء يتوقع نوعاً من تكييف السردية العامة مع الإجراءات

(تخفيف الإجراءات، في هذه الحالة) حالما يتبيّن خطأ الأنماط المبنية عليها بشكل لا يداخله الشك. لكن هذا لم يحدث على الإطلاق. فلم يعمل مسؤولو الصحة العامة أو الناس على مراجعة الحقائق. فقد ساهم شيء ما في تعزيز السلوك الجماعي المسعور، وكأن المجتمعَ مدفوعٌ بحاجة سيكولوجية ملحة. سوف نتناول هذه الظاهرة السيكولوجية في الفصل السادس.

من ناحية أخرى، أثرت الموثوقية المحدودة بالبيانات الأساسية – عدد الإصابات، وحالات الإسعاف إلى المشافي، والوفيات – على الإحصائيات الوبائية أيضاً. فقد كان معدّل الوفيات الناجمة عن العدوى (IFR)، ومعدل حالات الوفاة (CFR)، ومعدل الوفيات، والنسبة الإيجابية، وعدد التكاثر، كلها مبنية على هذه الأرقام الأساسية. فإن تغيّرت هذه الأرقام بعامل العشرين، فإن الإحصائيات المبنية عليها سوف تتغير بالعامل نفسه. وبكلمات أخرى، يبدو الخطابُ الوبائي–الإحصائي معقداً ومؤثراً باختصاراته، وحساباته إلى 4 منازل عشرية، ونمذجته الحسابية لمسار الوباء، لكنه استعراضٌ مؤثر للدقة المزيفة والموضوعية الزائفة.

***

يمكن أن يعترضَ البعض ويقول بعدم إمكانية إخضاع الأرقام إلى نسبية لا متناهية. صحيح أن الأرقام تخضع للنقاش في بعض الأحيان، ولكن هناك قضايا عصية على الشك لأنها تثبت – فيما لا يدع مجالاً للشك – خطرَ الفيروس وأهمية الإجراءات؛ أليس كذلك؟

فعلى سبيل المثال، من الواضح أن وحدات العناية المشددة مكتظة بمرضى كورونا؛ أليس كذلك؟ هذا صحيح. لكن الطريقة التي يجب أن نؤوّلَ بها هذه الحقيقة هي مسألة أخرى. فبدلاً أن يكون هذا الازدحامُ مؤشراً على الخطر الاستثنائي الناجم عن فيروس كورونا، يبدو أنه نتيجة نزعتين متناقضتين شهدتهما العقود الأخيرة: أولاً، الارتفاع الحاد في قابلية تطوير الأعراض الجدية في الأمراض الرئوية الفيروسية عند جزء كبير من الأشخاص (خاصة أولئك الذين يعانون من السمنة والسكري)؛ وثانياً، الانخفاض المنهجي في عدد الأسرة المتوفرة في وحدات العناية المشددة. ولذلك فإن من شأن ارتفاع عدد المرضى وانخفاض عدد الأسرة في وحدات العناية المشددة أن يولّد مثل هذه الظاهرة. وفي حقيقة الأمر، حصل هذا النوع من التقاطع قبل سنوات طويلة من انتشار فيروس كورونا. كما حدث هذا الازدحام في وحدات العناية المشددة أثناء أوبئة الإنفلونزا الأخيرة، على

سبيل المثال، مما أدى إلى التأخر في عمليات العلاج واتخاذ الإجراءات الضرورية خلال تلك الأوقات أيضاً.

وهكذا يمكن تأويل العبء الواقع على المشافي بصفته دليلاً على خطر الفيروس الكبير، كما يمكن تأويله بالقدر نفسه كمؤشرٍ على الإدارة السيئة (التقليص المستمر لعدد أسرة وحدات العناية المشددة)، أو كنتيجة للتدهور الصحي (التزايد المستمر في حالات السمنة ومرض السكري)،(9) أو كنتيجة لإجراءات كورونا نفسها (أي، تدفق الأشخاص الخائفين، والزيادة في الأعراض الجسدية الناجمة عن القلق النفسي). وبالاعتماد على التأويل، يجب اتباع سياسات مختلفة جذرياً.

ثم هناك حقيقة أخرى في غاية الأهمية: بينما كانت القدرة الاستيعابية المحدودة لوحدات العناية المشددة السببَ الأول والرئيس في تطبيق الإجراءات الجذرية والمدمرة – من منظور اقتصادي وسيكولوجي – لم يتم تزويد وحدات العناية المشددة بالأسرّة الإضافية خلال الأزمة، ولم تنشأ أية محاولات للقيام بذلك. وعلى غرار الأفراد، يبدو أن المجتمعات تستمد بعض "المكاسب المرَضية" من أعراضها السيكولوجية، مما يدفعها إلى التمسك بتلك الأعراض.

إضافة إلى ذلك، يبدو أن الأعراضَ الرئوية الحادة المرتبطة بكوفيد-19 قد حالت دون أية نقاشات حول البيانات. من المؤكد أن تلك الأعراض حقيقية. ولكن من الصعب تحديد تجاوز هذه الأعراض للأعراض الناجمة عن الإنفلونزا العادية. وبما أن مرضى الإنفلونزا لم يخضعوا لأية معاينات رئوية جادة، فمن الصعب المقارنة بين الحالتين. وفي الحالات التي جرت فيها المقارنة، ظهرت في بعض الأحيان نتائج غير متوقعة. في نهاية سنة 2020، نُشرت دراسة جمعَت الفحوصات الرئوية لمرضى الإنفلونزا حول العالم وقارنتها بالفحوصات الرئوية للمصابين بكوفيد-19. (10) وقد توصلت هذه الدراسة إلى غياب الفوارق المهمة. من الصعب القول إن كانت هذه الدراسة تقدم صورة دقيقة. فمنذ أزمة التكرار (راجع الفصل الأول)، نعرف أنه لا يمكننا التأكيد على دقة أية دراسة تحصل أو أن النتائج تقدم صورة دقيقة. وفوق ذلك، من المحتمل جداً أن فيروس كورونا يؤثر على الرئتين بشكل سيئ جداً، وذلك استناداً إلى شهادات المرضى والعاملين في مجال الرعاية الصحية.

يتمثل العاملُ الثالث الذي يقدم دليلاً ساطعاً على خطورة كوفيد-19 في عدد الوفيات

الزائدة. من الممكن لأعداد المصابين، وحالات الدخول إلى المشافي، والوفيات أن تكون ذاتية، ولكن في نهاية الأمر يمكننا أيضاً التأكد إن كان عدد الوفيات أزمة كورونا أكبر من عدد الوفيات في السنوات السابقة. ولسوء الحظ، مع أن هذا يبدو المقياسَ الأكثر موضوعية، إلا أن هذه البيانات تنطوي على طبيعة ذاتية تم تجاهلُها أيضاً. فكما بيّنَ الخبير السيكولوجي والإحصائي في جامعة غِنت، إلس أوومز Els Ooms، يمكن حساب الوفيات الزائدة بطرق عديدة.(11) فعلى سبيل المثال، يمكن للفروقات في الفترة المرجعية وحدها (أي الفترة التي تتم مقارنة معدلات الوفيات بها) أن تقودَ إلى فروقات كبيرة في تحديد الوفيات الزائدة.

وبعد جمع بيانات الوفيات الزائدة، هناك مهمة أكثر صعوبة تتمثل في تأويل هذه البيانات. فالوفيات الزائدة ليست بالضرورة مؤشراً على الوفيات الناجمة عن الفيروس. إذ يمكن أن تكون أيضاً نتيجة أذىً ملازم لإجراءات تخفيف كورونا نفسها (المناعة المتناقصة، والعلاج المتأخر، والانتحار، والكآبة، والإدمان، والفقر، والجوع، إلخ)، أو ربما نتيجة الطريقة العلاجية نفسها. ففي سنة 2020، على سبيل المثال، توفي الآلاف من العجائز في أماكن العناية الصحية في هولندا نتيجة الوحدة والإهمال أثناء فترات الإغلاق.(12) كما نوّهت دراسة ألمانية إلى أن نحو نصف حالات الوفاة المرتفعة في وحدات العناية المشددة أثناء الموجة الأولى قد نتج عن الأنبَبَة (التهوية).(13) من الصعب الجزم بدقة هذه الأرقام، لكننا نعرف أن المشافي تقاعست عن تنفيذ هذا البرتوكول في أواسط 2020 بسبب نتائجه السلبية. كيف ستبدو الرسوم البيانية للوفيات في حال ضبطها تبعاً لهذه العوامل؟

ربما تتمثل الحقيقة الأكثر إزعاجاً في هذه الأزمة في أننا تسببنا، إلى درجة كبيرة، في المأساة التي عملت وسائلُ الإعلام الجماهيرية على تصويرها بطريقة درامية؛ وفي أن العلاجَ نفسه قد أصبح جزءاً أساسياً من المشكلة. ففي بداية الأمر، في آذار/ مارس 2020، كتبتُ مقالة قلتُ فيها إن الخوفَ ينشأ إلى درجة محدودة فقط من المخاطر الحقيقية لكنه يولّد، في جميع الحالات، مخاطرَ حقيقية.(14) وربما يشكل العزلُ التام للعجائز واستخدامُ التهوية القسرية في حالة مرضى وحدات العناية المشددة مثالين بارزين على ذلك.

ربما ينتمي التلقيح إلى الصنف نفسه. ففي جميع أرجاء العالم، اتُّخذ قرار بإعطاء نوع من اللقاح لم يُختبَر بشكل كافٍ، أو على الأقل لم يتم التمحيص في آثاره بشكل كافٍ ولفترات زمنية كافية على غرار اللقاحات الأخرى. ويمكننا أن نلاحظ هنا أيضاً أن الأرقام

تثير الكثيرَ من الأسئلة فيما يخص الفعالية والأعراض الجانبية. إن السردية السائدة ترسم صورة إيجابية، ولكن يمكننا أن نرسم أيضاً صورة سلبية استناداً إلى التدفق الهائل للبيانات. فمن سمع في الإعلام عن الدراسة التي صدرت عن جامعة هارفرد والتي لم تجد أي فارق في مسار الوباء بين البلدان التي سجلت معدلات تلقيح عالية وتلك التي سجلت معدلات متدنية؟(15) ومن سمع في الإعلام عن الدراسة التي أكدت أن معدّل الإجهاض عند النساء الحوامل الملقحات أعلى بثماني مرات من المعدل العادي؟(16) لسنا متأكدين أن هذه الدراسات ترسم صورة دقيقة. لكننا لا نعلم أيضاً إن كانت الأرقام المقدمة في الوسائل الإعلامية، والتي تعزز سردية كورونا السائدة، دقيقة بدورها. فالقصص هي التي تصنع الأرقام وليس العكس. وهنا تكمن المشكلة الرئيسة.

***

هكذا نكون قد وصلنا إلى مشكلة أخرى في المقاربة العددية لأزمة فيروس كورونا؛ إذ إنها تتجاهل الأذى المتلازم مع الإجراءات، على الرغم من كونها عاملاً مهماً. لم تتوفر أية بيانات وإحصائيات عامة حول عدد ضحايا العلاج المتأخر، والانتحار، والتلقيح، ونقص الغذاء، والاضطراب الاقتصادي. وهذا لافت بسبب الظهور المبكر منذ بداية الأزمة للمقالات العلمية والتقارير الصحفية المنتظمة التي أشارت إلى تلك المخاطر.(17) ففي بداية الإغلاق الأول، كانت Oxfam، ومنظمة الصحة العالمية، والأمم المتحدة تحذر سلفاً أن الوفيات الناجمة عن سوء التغذية والجوع بسبب سياسات الإغلاق في البلدان النامية ربما تتجاوز حالات الوفاة الناجمة عن الفيروس، حتى في أسوأ السيناريوهات التي لا تُتخَذ فيها أية إجراءات على الإطلاق.(18)

يمكننا ملاحظة التجاهل نفسه للأنماط الرياضية المركبة لتقصي مسار الأزمة. إذ لم يتم بناء نمط رياضي يمثل، فضلاً عن ضحايا الفيروس المحتملين، الضحايا المحتملين لإجراءات الوقاية من كورونا. وعندما سُئل الخبراءُ الذين أسّسوا بعض الأنماط أثناء شهادتهم أمام مجلس العموم البريطاني عن سبب غياب الأذى المتلازم الناجم عن الإجراءات في الأنماط التي قدموها، أجابوا بصراحة تامة أن هذا يقع خارج نطاق خبرتهم كعلماء أوبئة. لم يكن من واجبهم إجراء أية قياسات كميّة أو لفت الانتباه إلى الأذى المتلازم.(19) لا يبيّن هذا حدودَ النمط التخصصي فقط، بل يمكننا أن نستشفّ منه أيضاً نوعاً من العمى السيكولوجي المذهل. ولذلك فإننا نرى كيف يمكن لمجتمع بأكمله أن

يتغاضى تماماً عن السؤال الأكثر أهمية في الطب: هل نحن على ثقة من أن العلاج ليس أسوأ من المرض؟ في الفصل السادس، سوف نرى أن تحجيمَ حقل الانتباه هذا ناتجٌ عن العملية الاجتماعية-السيكولوجية للتشكيل الجماهيري.

ومن جهة أخرى، لم يكن هناك أي اهتمامٍ جديّ بتقييم فعالية الإجراءات القاسية. فبالإضافة إلى إهمال هذا الجانب تماماً، تبيّن أن تأويل الأرقام يتميز بالغموض والضبابية. وربما يتجسد أفضلُ مثال في السويد؛ هذا البلد الذي قرر – على النقيض من جميع البلدان الأوروبية الغربية الأخرى – ألا يتبعَ سياسة الإغلاق وارتأى تطبيق إجراءات أخفَّ بكثير. أولاً، قارنت وسائلُ الإعلام الرسمية عددَ الوفيات في السويد ببلدان مثل بلجيكا وهولندا. وعندما اتضح أن عددَ الضحايا في السويد كان أقل، توصل الباحثون إلى نتيجة مفادها أن الإجراءات الصارمة كانت عديمة الفائدة. ثم أخذوا يقارنون بين السويد وجاريها، النرويج وفنلندا، معتبرين أن هذين البلدين قد طبّقا الإجراءات "العادية" الأكثر صرامة. وعندما تبين أن عدد الضحايا في السويد فاق ضعفَ عددهم في النرويج وفنلندا معاً، استنتج الباحثون أن الإجراءات الصارمة كانت مفيدة فعلاً. ثم ظهرت دراسة تقول إن الحكمَ على الإجراءات المطبقة في النرويج وفنلندا كان خاطئاً؛ إذ كانت أكثرَ ليونة من الإجراءات المطبقة في السويد.(20) وهكذا تغيّرت النتيجة مرة أخرى في الاتجاه المعاكس: إن الإجراءات الصارمة عديمة الفائدة في نهاية المطاف. ولا نعرف بعد إن كانت هذه هي النتيجة النهائية. لكن ما نعرفه بشكل قاطع هو سهولة تكييف الأرقام مع القصتين المتعارضتين.

تعكس المقارناتُ التي حصلت داخل الولايات المتحدة المشكلة نفسها. إذ لا تبيّن تلك المقارنات أي فرق في الأرقام الكاملة لضحايا فيروس كورونا بين الولايات الخمس وعشرين التي طبّقت الإجراءات الأكثر صرامة والولايات الخمس وعشرين الأخرى التي طبقت إجراءات متساهلة جداً. ولكن في الوقت نفسه، أظهرت مقارنة بين الولايات العشر الأكثر صرامة والولايات العشر الأكثر تساهلاً فرقاً لصالح الولايات الأكثر صرامة في تطبيق تلك الإجراءات. تؤوّل القصةُ التي نقلتها وسائل الإعلام الأعدادَ لصالح السردية السائدة دون أي تردد أو تراجع. فإن كان هناك بعض الضحايا في ولاية طبّقت بعض الإجراءات، فيتم عزو ذلك دوماً إلى عامل خارجي (مثل المناخ أو التناثر السكاني). فهذه الولاية محظوظة. وإن كان هناك عدد كبير من الضحايا في ولاية طبقت إجراءات صارمة، فإن ذلك يُعزى أيضاً إلى عواملَ خارجية. فهذه الولاية غير محظوظة، لأن الفيروس ضربها بقوة. أما إذا كان هناك

عدد كبير من الضحايا في ولاية طبقت بعض الإجراءات، فهذا هو خطأها هي. فقد كان عليها أن تتخذ المزيدَ من الإجراءات! وإن سجلت ولاية طبقت إجراءات صارمة عدداً قليلاً من الإصابات، تكون قد حصدت منافع الحزم الذي تعاملت فيه مع الأزمة. وبكلمات أخرى، في جميع الحالات التي تقدمها السردية السائدة، تكون السردية السائدة مصيبة دوماً.

إضافة إلى المقارنات الحاصلة بين بلدٍ وبلد آخر، هناك أيضاً تحليلات متنوعة لمنحنيات العدوى استناداً إلى تطبيق إجراءات متنوعة: ارتداء الكمامات، وبدء تطبيق التباعد الاجتماعي، وإجراءات الإغلاق، وإطلاق حملات التلقيح. وعندما يتم تقديم هذا النوع من التحليلات من قبل مؤيدي السردية السائدة، فإنهم عادة ما يبينون أن المنحنى يتفاعل على الفور مع الإجراءات وأن حالات العدوى تنخفض بعد تطبيق هذه الإجراءات. أما عندما يتم إجراء مثل هذه التحليلاتِ من قبل الباحثين الذين يتمتعون بموقف نقدي من فيروس كورونا، فعادة ما يستنتجون أن المنحنى لا يتأثر أبداً بالإجراءات المتخذة.

ربما تعتقدون أن هذا كله ينطبق على المعلومات المقدمة في وسائل الإعلام الشعبية وليس على المقالات المنشورة في المجلات العلمية الرصينة؟ لكن الأمر ليس كذلك، للأسف الشديد. فسواء كان الأمر يتعلق بأصل الفيروس (الخفاش أو المخبر)، أو بفعالية hydroxychloroquine، أو بالأعراض (الجانبية) للقاحات، أو بفائدة الكمامات، أو أهمية اختبار PCR، أو قابلية انتقال العدوى بين أطفال المدارس، أو بفاعلية المقاربة السويدية، فإن الدراسات العلمية تقود إلى استنتاجات متعارضة تماماً.

مُنح الفيلسوف الألماني فيرنر هايزنبيرغ جائزة نوبل على مبدأ اللايقين الذي طلع به – "الأمر لا يقتصر على غياب اليقين الآن، بل يتجاوز ذلك إلى استحالته الدائمة" – لكن ذلك لا يعجبنا. فإن لم تحقق البيانات نوعاً من اليقين الآن، فسوف نجمع المزيدَ من البيانات. وبهذه الطريقة فإننا نقع، كمجتمع، تحت وطأة سلسلة لا متناهية من الأرقام ولا نصل أبداً إلى ما يهمنا حقاً؛ أي الحوار المفتوح حول الأطر الذاتية والإيديولوجية التي نؤوّل بها هذه الأرقام. فالتوترات الصامتة، والمخاوف، والتباينات على مستوىً إيديولوجي هي التي تحول دون استقرار هذه الأرقام وتولّد الاستقطابَ في المجتمع. فمثلاً، هل ننظر إلى الإنسان بصفته آلةً بيوكيميائية يجب إخضاعها للمراقبة التكنولوجية والتكييف الصيدلاني، أم بصفته كائناً يهتدي إلى وجهته عبر التناغم الصوفي مع الآخر ومع لغة الطبيعة الأبدية؟

***

تم استهلال هذا الفصل ببعض الأمثلة البسيطة التي تشكّك في الإيمان الساذج بموضوعية الأرقام. فقد بيّن مثالُ قياس ساحل بريطانيا العظمى (راجع الشكل 4-1) أن القياسات نسبية دوماً، كما أنها تعتمد على وحدة القياس المستخدمة؛ كما أن مفارقة سمبسون تبيّن أن الأرقام البسيطة والدقيقة يمكن أن تقود إلى تأويلات متناقضة. فما ينطبق على هذه الأرقام البسيطة ينطبق أيضاً بشكل بدهي على رقصة الأرقام المحمومة في أزمة كورونا: يمكن لأي أحد انتقاء الأرقام التي تناسب تحيّزاته، ويمكن لأي شخص تأويلها بطريقة تعزز رأيه الذاتي الإيديولوجي. إذ إن التوهّمَ الراسخ بقدرة الأرقام على تمثيل الحقائق يضمن إيمان الناس المتزايد بواقعية آرائهم المتخيّلة.

إن استخدام الأرقام في هذه الأزمة يحدّ من إدراكنا بأن ما نتفاعل معه لا يجسّد الحقائقَ بل يمثل القصصَ المركبة حول الحقائق. ويتم سبكُ هذه القصص من قبل العاملين في الرعاية الصحية الذين يبذلون أقصى طاقاتهم لتقديم المساعدة، ومن قبل أشخاص لا يرغبون في رؤية عائلاتهم تتألم، وسياسيين يسعون إلى اتخاذ القرارات الصائبة، وأكاديميين يرغبون في تقديم المعلومات الموضوعية قدر الإمكان. لكن هذه القصص مركبة أيضاً من قبل السياسيين الذين يعانون من ضغط الرأي العام ويشعرون بالحاجة إلى اتخاذ قرارات حاسمة، وقادةٍ فقدوا السيطرة ويحاولون انتهاز الفرصة للإمساك بزمام الأمور من جديد، وخبراءَ يحاولون إخفاء جهلهم، وأكاديميين رأوا فرصة سانحة لتأكيد ذواتهم، ونتيجة ميل الإنسان الفطري إلى الهستيريا والدراما، وشركاتٍ دوائية تشتمّ رائحة الدولار، ووسائل الإعلام التي تزدهر على القصص المثيرة، وكذلك من قبل إيديولوجيات ترى في النظام التوتاليتاري التكنوقراطي الحلَّ الوحيد لمشكلات عصرنا التي تبدو مستعصيةً على الحل.

إن تأثير الذاتية على تركيب الأرقام وتأويلها قويٌ إلى درجة أن العلماءَ، الذين تفرض مهنُهم عليهم توخي الموضوعية، يقعون فريسة لها أيضاً. فعلى سبيل المثال، من المعروف أن النتائج البحثية في العلاج النفسي تؤكد الميولَ الذاتية للباحث. فالمعالج النفسي يستنتج من هذا البحث أن العلاج النفسي هو الممارسة الأكثر فعالية، أما المعالج السلوكي فيستنتج أن العلاج السلوكي هو العلاج الأفضل، أما المعالج المنهجي فيؤكد أن العلاج المنهجي هو الأنسب. ويطلق على هذه الظاهرة اسم "أثر الولاء" (allegiance effect)؛ أي أثر ولاء الباحث لنظرية معينة. ولكي نكون واضحين تماماً، فإن ذلك الأثر يتجلى أيضاً

في الأبحاث التجريبية الصارمة والمجالات العلمية الأخرى، مثل الأبحاث المجراة لتحديد فعالية العلاجات الطبية الدوائية.

الغريب في الأمر هو أن هذا الأثر يتجلى بشكل كبير دون إدراك الباحثين لذلك. فعلى غرار المتنزهين الذين لا يحملون خارطة أو بوصلة، فإنهم يسيرون في دائرة ويعودون إلى نقطة الانطلاق التي تتمثل في تحيزاتهم الذاتية. وهذه، بالطبع، مشكلة جدية بما أن هدف العلم يتمثل في تقديم التقييمات الموضوعية وتحييد الميول الذاتية عن النتائج التي يتوصل إليها.

كيف يمكن للباحثين أن يقعوا فريسة لتحيّزاتهم الذاتية؟ يمكن لتفسير هذه الظاهرة أن يتخلّق، بشكل جزئي، من المسائل التالية: كل إجراء بحثي يتطلب خيارات لا حصر لها تفتقر إلى أية أسس منطقية صارمة. ما أدوات القياس التي علي استخدامها؟ وكيف سأقوم بتأويل القياسات؟ وكيف سأتعامل مع البيانات الناقصة؟ إلخ. ومن بين هذه الاحتمالات الكثيرة، يقوم الباحثون بشكلٍ لا واعٍ بانتقاء الخيارات التي تضمن النتائجَ التي يرغبون فيها.

فضلاً عن أن الإيمان الأعمى بموضوعية القياسات والأرقام، والذي يميز الإيديولوجيا الميكانيكية، يفتقر إلى أسس متينة، فهو يتسم بالخطورة أيضاً. إذ ينشأ نوع من التعزيز المتبادل بين الأهواء الذاتية والأرقام؛ فكلما كانت الأهواء قوية، قام المرء بانتقاء الأرقام التي تؤكد هذه الأهواء. وكلما عززت الأرقامُ هذه الأهواء، ترسخت الأهواء. فإذا سحبنا هذه المعادلة على أزمة كورونا، نرى أن المجتمع الواقع تحت وطأة الخوف والقلق يميل إلى انتقاء الأرقام التي تؤكد خوفه. ومن ثم تعمل الأرقامُ المنتقاة على تعزيز هذا الخوف.

ونتيجة لذلك، يتفاعل الناس بطريقة تفتقر إلى التوازن، مما يقود إلى مجموعة من النتائج: فمن منظورٍ اقتصادي، الكساد وإفلاس عدد كبير من الشركات والأعمال الصغيرة؛ ومن منظور اجتماعي، الأذى الدائم للروابط (الفيزيولوجية) بين الأشخاص؛ ومن الناحية السيكولوجية، المزيد من الخوف والكآبة؛ ومن الناحية الفيزيولوجية، انهيار المناعة والصحة الجسدية (انظر الفصل العاشر) نتيجة الأزمة السيكولوجية والاجتماعية. ويمكننا أمن نضيف ما يلي: من الناحية السياسية، نشوء الدولة التوتاليتارية. فإن اعتقدتَ أن أوهامك الذاتية تمثل الواقع، فسوف تعتقد أن واقعك متفوق على أوهام الآخرين. وبهذه الطريقة نقتنع بإمكانية فرض أوهامنا على الآخر بأية طريقة ممكنة.

في بداية هذا الفصل، أشرنا إلى أن الإيديولوجيا الميكانيكية تهدف إلى تأسيس مجتمع تكنوقراطي يخضع لحكم متأسس على معلومات رقمية "موضوعية" تنتفي فيه أشياء مثل الأهواء الذاتية واستغلال السلطة. ولكن في نهاية هذا الفصل، نستنتج أن الإيمان الساذج بموضوعية الأرقام يقود إلى النتيجة المعاكسة. إذ إن الإيديولوجيا السائدة تقدم في وسائل الإعلام الجماهيرية الأرقامَ التي تعزز سرديّتها، مما يولّد واقعاً تخييلياً تؤمن به شريحة كبيرة من الناس. إذ يتحدد مفهوم الواقع، مرة بعد أخرى، من خلال الأرقام التي يتضح - بعد بضعة أشهر - أنها نسبية جداً، أو خاطئة بشكل فاضح، أو حتى مخادعة. ولكن خلال ذلك الوقت كله، يتم استخدام هذه الأرقام بشكل متكرر لفرض الإجراءات الجذرية وتحييد المعتقدات الإنسانية الأساسية: تعمل "وزارة الحقيقة" الواقعية [إشارة إلى رواية جورج أورويل، (1984)] - التي تعجّ بمجموعة كبيرة من "متقصّي الحقائق" - على وصم وتسفيه الأصوات البديلة؛ وتعمل الرقابة والرقابة الذاتية على تقييد حرية التعبير؛ وينحسر حق تقرير المصير أمام عمليات التلقيح القسري، مما يفرض نوعاً من الاستبعاد والتمييز على المجتمع ككلّ.

يتكشف الخطابُ المحيط بأزمة كورونا عن خصائصَ نمطية تميّز بها الخطاب الذي قاد إلى نشوء الأنظمة التوتاليتارية في القرن العشرين: الاستخدام المفرط للأرقام والإحصائيات التي تنطوي على "ازدراء متأصل للحقائق"،(21) وتمويه الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال،(22) وإيمان إيديولوجي أعمى يبرّر الخداعَ والاستغلال ويُفضي إلى تجاوز جميع الحدود الأخلاقية.(23) سوف نقدم توصيفاً لهذه الخصائص بشيء من التفصيل في الفصلين السادس والسابع. ولكن أولاً، سوف نتناول في الفصل الخامس الشروطَ الاجتماعية التي تدفع مجتمعاً ما للتمسك بوهم اليقين الرقمي. وسوف نرى أن الهروب إلى الأمان الزائف نتيجةٌ منطقية للعجز السيكولوجي عن التعاطي مع الشك والمجازفة، هذا العجز الذي طالما تنامى في المجتمع على مدى عقود، وربما قرون.

الفصل الخامس

الرغبة في السيّد

تناولنا في الفصول السابقة كيف تحول العلمُ من الانفتاح العقلي إلى العقيدة والإيمان الأعمى (الفصل الأول)، وكيف تعمل تطبيقاتُه العملية على عزل البشر عن بعضهم بعضاً وعن الطبيعة (الفصل الثاني)، وكيف يرتقي سعيُه الطوباوي إلى كون صنعيٍ يخضع لسيطرة عقلانية إلى نوع من تدمير جوهر الحياة (الفصل الثالث)، وكيف يقود إيمانُه بالموضوعية وقابلية العالم للقياس إلى التعسف العبثي والذاتية (الفصل الرابع). أما في هذا الفصل، فسوف نتناول مصيرَ طموحٍ عظيم آخر للعلم: تحرير الإنسان من قلقه وخوفه ومن الوصايا والمحرمات الأخلاقية التي يهتدي بها في حياته.

على مدى قرونٍ، أثقلَ الخطابُ الديني الروحَ الإنسانية بخوفٍ عبثي من الجحيم واللعنة. فالألم والمرض عقوبة من الله، والعجز والسقم شيئان يجب علينا تقبّلهما، والمتع الحسية ضربٌ من الخطيئة، ووقع على كاهل المجتمع حملٌ ثقيل من الوصايا والمحرمات.

ولكن في مرحلة ما من القرن السابع عشر، سطع نجمُ العقل الإنساني في السماء. ولم يعد هناك أي سبب لقبول العقد الاجتماعي الذي فرضه رجالُ الدين على المجتمع. أخذ الإنسانُ باستكشاف العالم المحيط به، وانكبَّ على دراسة الجسم البشري وأسباب المرض والألم. ليس على الإنسان أن يقبلَ بالشرط البشري، بل عليه أن يعمل على تحسينه. وعلى مدى ثلاثة قرون، طغى نوعٌ من التفاؤل الحيوي. سوف يتم علاج المرض والألم بواسطة العقل الإنساني.

تم اعتبار وصايا ومحرمات الماضي بصفتها أشياءَ زائفة وغير ضرورية لتوجيه المجتمع في الاتجاه الصحيح. وسوف تعمل أخلاقيةٌ منفلتةٌ بشكل متسارع على مصالحة الإنسان مع رغباته الجسدية التي كانت تُعتبر خطِرة فيما مضى. كما تلاشت الرقابة القاتلة على أي شيء يتعارض مع الخطاب الديني. وأصبحت حرية التعبير حقاً أساسياً، وصار التعليم متاحاً على نطاق واسع، وأصبحت المساعدة القانونية حقاً للجميع، كما تم تحرير الحب من واجب الزواج وإنجاب الأطفال، واستعادت الجنسية مكانتَها الطبيعية وتحررت من مفهوم الخطيئة والفساد.

لكن هذه العملية انحرفت، بطريقة ما، في الاتجاه المعاكس. فقد أفضى تقديسُ العقل

الإنساني إلى تكثيف الخوف من الألم والمرض، واتسمت العلاقات الإنسانية بنوع من الشك والارتباك. ومن ثم تم استبدالُ الوصايا والمحرّمات القديمة بغابة من القوانين والأنظمة وأخلاقية جديدة في غاية الصرامة. كيف يمكننا فهمُ ذلك من منظورٍ سيكولوجي؟

***

على الرغم من تزايد معرفة الجوانب الميكانيكية للجسم البشري، وعلى الرغم من الأموال المخصصة للرعاية الصحية (التي تفوق نسبة 10% في البلدان الأوروبية الغربية من الناتج القومي الإجمالي)، لم يختفِ الخوف والألم على الإطلاق. فالعناوين الرئيسة في السنوات الأخيرة لم تترك أي مجال للشك في ذلك: إن إرسال المراهقين إلى المدرسة على درّاجة نارية صغيرة تصرف غير مسؤول،(1) والسباحة في الأنهار أو البحيرات في الطقس الحار يعرض المرءَ للعدوى البكتيرية،(2) ويمكن للجنس الفموي أن يسبب سرطان الحنجرة،(3) والمصافحة تنطوي على مخاطرَ جمّة لأنها تسبب انتقال الفيروسات،(4) وحتى الجلوس بقرب المدخنين الذين لا يدخنون يمكن أن يؤذي صحتك.(5) هذه مجرد عينة صغيرة من التقارير الإعلامية التي تعكس مدى الخوف المسيطر على حياة البشر من الأذى الجسدي في القرن الواحد والعشرين.

الألم، بالتعريف، شيءٌ مزعج لكن البشر كانوا ينجحون في مقاومته وتحمّله فيما مضى. ففي القرن السابع عشر، عندما حاول اليسوعيون تحويل الأميركيين الأصليين إلى المسيحية من خلال إحراقهم على الأعمدة، اكتشف المبشّرون أن السكان الأصليين غير قلقين من هذه الإجراءات، مما أغاظهم وزرع فيهم إحباطاً شديداً. ومع مرور الوقت، اقترح الأميركيون الأصليون أنفسُهم أنواعاً أكثر إيلاماً من التعذيب. وكانوا يسألون المبشرين: "لماذا تحرقونهم على الأعمدة دائماً؟".(6)

لم يقتصر الأمر على تحوّل فكرة الألم الجسدي إلى شيء لا يمكن احتماله، بل أصبح الناس أقلّ ميلاً إلى المجازفة. وربما يشكّل هوَس التأمين الذي انتشر خلال القرون القليلة الأخيرة خيرَ مثال على ذلك. فقد بدأ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين مع تأسيس التأمين ومَأسَسته ضد الحوادث والحرائق. ومن ثم انتقل إلى الحياة، والمشافي، والسفن، وضمانات إلغاء الحجوزات، وفي نهاية الأمر إلى التأمين على كل شيء تقريباً. فاليوم، لم يعد التأمين يقتصر على الأشجار والنباتات والكلاب والقطط،(7) بل امتدّ إلى ساقَي

كريستيانو رونالدو Christiano Ronaldo ومؤخرة جينيفر لوبيز Jennifer Lopez وثديَي تيلر سويفت Taylor Swift وابتسامة جوليا روبرتس Julia Roberts والسائل المنويّ لديفيد لي روث David Lee Roth، وذلك ضد الأذى مقابل ملايين الدولارات.(8) هذا بالإضافة إلى التأمين ضد الصدمات العاطفية، وتأثير الشهب والنيازك، والأذى الناجم عن الأرواح والأشباح والتعرض للاختطاف على يد الكائنات الفضائية.(9) وليس من الغريب أن يكون بمقدورك اليوم التأمين على تأمينك نفسه (مع مصرف لويدز في لندن، على سبيل المثال).

تتعاظم المحاولات الهادفة إلى تفادي المجازفة، وليس من خلال عمليات التأمين فقط. فالتدخلات الطبية، التي يجب أن تخفف من معاناة الناس، قد أصبحت نفسُها مصدراً لليأس. إذ إن الاستهلاك الواسع للعقاقير النفسية، ومضادات الألم، والمنتجات الصيدلانية الأخرى قد أدى إلى إدمان عشرات الملايين ووفاة أعداد هائلة من البشر. كما أن فحوصات الكشف عن السرطان والأمراض الأخرى ليست ضارة فقط بحد ذاتها بل تقود أيضاً إلى مزيد التدخلات الضارة وغير الضرورية، مثل الاستئصال غير الضروري للأثداء أو الأعراض الجانبية للمعالجة الكيماوية.(10) وبالإضافة إلى ذلك فإن الطب الوقائي يهدد بانتشار العقم وتجريد الحياة من جانبها الإنساني. وربما تكون أزمة كوفيد-19 خيرَ مثال على ذلك؛ إذ قاد التفادي الهستيري للعدوى إلى زيادة معاناة البعض بشكل هائل نتيجة العلاج المتأخر، والعنف المنزلي، واليأس السيكولوجي، ونقص الغذاء في البلدان النامية.(11) وبكلمات أخرى، أصبح هذا التفادي الهستيري لأي نوع من أنواع الخطر، بحد ذاته، شيئاً في غاية الخطورة.

لا تقتصر آثارُ هذه المحاولة اليائسة للتحكم في الحياة على التأثير الضار على صحتنا الجسدية. فهي تؤثر بشكل كبير على حريتنا وحقوقنا كأفراد. ففي بداية القرن العشرين، أدت الحربُ على الإرهاب، مثلاً، إلى اجتياح خطِر للخصوصية. وفي حقيقة الأمر، كانت جزءاً من محاولة مستمرة لضبط "العوامل الخطرة" في المجتمع وعزلها. قاد تقليدُ التنوير، بشكل عرَضي، إلى ما أسماه فوكو "السجن الكبير" (le grand renfermement)؛ حيث تم احتجاز المزيد من المجموعات "الخطرة".(12) ففي القرن التاسع عشر، لم تظَل هذه المقاربة "سوى" المرضى النفسيين والعاهرات والمجرمين؛ أما في القرن الواحد والعشرين فإنها تكاد تؤثر على كل شيء وكل شخص. إذ تُسجَن الحيوانات خوفاً من إنفلونزا الطيور،

ويوضَع سكان العالم تحت الإقامة الجبرية بسبب فيروس كورونا. فالبشر والحيوانات – الذين يمكن أن ينشروا الأمراض – يشكلون خطراً كبيراً على بعضهم بعضاً ولا يمكن تركهم طليقين.

***

إن تعزيزَ الخوف والقلق في المجتمع يُنتج ظاهرتين سيكولوجيتين أخريين تتمثلان في النرجسية، وفي شيء أسقيه هوَس التنظيم (regulation mania). ولكي نفهم هذا الترابط، نحتاج إلى بعض المعلومات المتعلقة بالسيكولوجيا التطورية. وسوف نبدأ بتوضيح الترابط بين القلق الإنساني والنرجسية.

في الفصل الثالث، عندما تناولنا الفرقَ بين المحادثات الرقمية و"الحقيقية"، عرَضنا الطريقة التي يتناغم بها الرضيعُ بشكل تكافليّ مع أمه عبر التبادل المبكر للغة الجسدية ويدرك، بهذه الطريقة، الرغبة الأولية للاندماج مع الآخر. لكن هذا الفردوسَ المبكر يفتقر إلى شيء ما. فبمعنى من المعاني، لا يكون الطفلُ موجوداً هناك تماماً بصفته كائناً سيكولوجياً منفصلاً. فخلال أشهر الحياة الأولى، وقبل أن يتمكن من تمييز نفسه في المرآة، لا يمكن للطفل أن يشكّلَ صورة ذهنية–مرئية عن جسمه. ونتيجة لذلك، لا يعرف أين ينتهي جسمه وأين يبدأ العالمُ المحيط به، ولا يُمَوقع أحاسيسَه في جسمه فقط بل أيضاً في الأشخاص والأشياء المحيطة به (الروحانية) [animism، مذهب حيوية المادة]. إليكم مثالاً ماديّاً: عندما يتلقى الطفل ضربة على ذراعه، فهو لا ينظر إلى ذراعه لأنه لا يدرك أن الإحساس بالألم متموقعٌ هناك. والعكس صحيح أيضاً؛ فالطفل يشعر بأحاسيس الآخرين في جسده بشكل مباشر. فعلى سبيل المثال، عندما ينظر إلى شخص يتعرض للضرب، تظهر على وجهه مشاعر الألم نفسها ويبكي كأنه هو من يتعرض للضرب (التعدّي) (transitivism).

في هذا الاندماج التكافلي والفوضوي للتجربة، على الطفل أن يستوعب ذهنياً ماهية وجوده؛ أي عليه أن يكتشفَ، من خلال التفاعل مع الأم، ما عليه أن يفعله ليضمنَ رعايتَها وقربَها. وفي هذه المرحلة، من المفيد إجراء مقارنة مع حيوان صغير. فالحيوانات والثديات الصغيرة تعتمد على أمهاتها أيضاً، ويسعون أيضاً إلى ضمان رعايتهن. ولكن هناك فرق سيكولوجي مهم في حالة الطفل البشري متموقع على مستوى النظام التواصلي.

يؤسس الحيوان رابطة مع حيوان آخر عبر تبادل الإشارات. وترتبط هذه الإشارات –

صيحات نمطية، وأوضاع، وحركات – بشكل وثيق مع نقطتها المرجعية. فهناك إشارة تدل على الخطر، وأخرى تدل على أن الطعام قادم؛ كما أن هناك إشارات أخرى تدل على إمكانية العلاقة الجنسية، أو الخضوع، أو السيطرة. فسواء كان نظام الإشارات الحيواني بسيطاً أم معقداً، وسواء كان إتقانه غريزياً أم أنه ينتقل من جيل إلى آخر من خلال التعليم، فإن الحيوان يعرف هذه الإشارات ويؤديها بشكل واضح لا يداخله الشك. ويمكن لتبادلها أن يقود إلى معركة شرسة في بعض الحالات – مثل المعركة التي تنشب بين ذكور أسماك "أبو شوكة" عندما تشير بطونُها الحمراء إلى رغبتها في التكاثر – لكنه لا يقود عادة إلى أي نوع من الشك أو الشبهة.

لكن هذا مختلف عند البشر. فالتواصل الإنساني مثقلٌ بالغموض وإساءة الفهم والشك. والسبب في ذلك يعود إلى أن الإشارات – أو بشكل أصح، الرموز – التي تنطوي عليها اللغة البشرية يمكن أن تدلّ على عدد لا متناهٍ من الأشياء تبعاً للسياق الذي تصدر فيه. فعلى سبيل المثال، تشير الصورة الصوتية sun (الشمس) إلى شيء مختلف تماماً في التعاقب الصوتي sunshine (نور الشمس) وفي التعاقب الصوتي sundering (تباعد). ولذلك فإن كل كلمة تكتسب معناها من خلال كلمة أخرى (أو مجموعة من الكلمات). إضافة إلى ذلك، تحتاج تلك الكلمة الأخرى، بدورها، إلى كلمة أخرى لكي تكتسب معناها. وهكذا إلى ما لا نهاية. هناك دوماً كلمة مفقودة قادرة على التقاط المعنى الدقيق للكلمات. ولهذا السبب فإن اللغة بصفتها نظاماً عقلانياً – نظاماً تكتسب فيه الكلماتُ معانيها بصورة بدهية – تتميز بنوع من النقص الداخلي الذي لا يمكن إصلاحه. ويوضح هذا على الفور أن التأمين–على–التأمين عاجزٌ عن تحرير الإنسان من الالتباس اللغوي.

يخلف هذا نتائجَ مباشرة على التفاعلات الشخصية. إذ لا يمكننا، بصفتنا كائنات إنسانية، إيصال رسالتنا بطريقة تخلو من الغموض، ولا يمكن للآخر أبداً أن يحدد معناها الدقيق. لكن الأمر يتعدى ذلك أيضاً؛ فنحن لا نعرف الرسالة التي نريد إيصالها. إذ لا نعرف أبداً ما الذي نريد قوله، لأن أفكارَنا تعمل بواسطة الكلمات أيضاً، وبالتالي هناك دوماً كلمة مفقودة على ذلك المستوى أيضاً. وهذا هو السبب الذي يدفعنا إلى البحث الدائم عن الكلمات، وإيجاد صعوبة في قول ما نريد قوله، ونشعر دوماً أننا نقول شيئاً لم نكن نرغب في قوله أو أننا عنينا شيئاً مختلفاً بعض الشيء. لكن هذا كله غير موجود في عالم الحيوانات؛ إذ إن سلوكها التواصلي لا يتكشف عن هذا النوع من التردد والتلعثم.

نميل إلى التفكير أن البشرَ يتميزون عن الحيوانات من خلال قدر أكبرَ من المعرفة والوعي، لكن الفرق الأكثر نمطيةً يكمن في أننا - على خلاف الحيوانات - نعاني بشكل دائم من نقص المعرفة. وبالتالي فإن الأسئلة المركزية في حياة الإنسان، والمتعلقة بموقعه في رغبة الآخر، لا تجد أي نوع من الإجابة الدقيقة. ما فكرة الآخر عني؟ هل يحبني؟ هل يجدني جذاباً؟ هل أعني شيئاً بالنسبة إليه؟ ما الذي يتوقعه الآخر مني؟ وما الذي يريده مني؟ فجميع العلاقات الإنسانية - وبالتالي الوجود الإنساني برمّته - تدور حول هذه الأسئلة. ولكن لا توجد أية دلائل على ذلك في عالم الحيوانات؛ إذ لا يمكن أن ترى حيواناً يجلس على الأريكة ويفكر بقلق في معنى حياته أو ما يعنيه بالنسبة إلى حيوان آخر.

طالما كان هذا الالتباس الذي يميز عالمَ الرموز الإنسانية موجوداً منذ نشأة الحياة الإنسانية عندما كانت اللغة لا تزال بدائيةً ولا تدلّ على الأشياء بعد. أشار عالم النفس التطوّري الفرنسي البارز هنري والاون Henry Wallon إلى أننا نرى، منذ البداية، شيئاً على وجوه الأطفال الذين يتفاعلون مع رعاتهم لا يمكن أن نراه عند أي كائن حي آخر. فعندما يقلّد الرضيعُ تعابيرَ وجه أمه، فإن وجهه يشي بنوع من التساؤل وكأنه يواجه - حتى في مرحلة وجوده المبكرة هذه - شيئاً مفقوداً في لغة الآخر الشكلية.

وبالتالي فإن الطفل البشري، على النقيض من الحيوان الصغير، يواجه التباساً كبيراً في فهم رسائل أمه، مما يجعل التحكم الذهني بها أمراً في غاية الصعوبة. ما الذي تريده مني؟ ما الذي عليّ أن أفعله لكي أضمنَ وجودَها؟ فبغض النظر عن بساطة النظام العقلي في تلك اللحظة، فإن هذا الأسئلة تنشأ حتى في الأشهر الأولى من حياة الطفل. ويفسر هذا واحدة من الظواهر الغريبة التي تحدث في تطور الطفل. فعندما يكون عمر الطفل بين ستة وتسعة أشهر، يعرف نفسه في المرآة للمرة الأولى، وعادة عندما تشير الأم بحماسة إلى الصورة البادية في المرآة. لكن هذا، بحد ذاته، ليس حكراً على البشر؛ فالدلافين والأصناف المتطورة من القرود قادرة على ذلك أيضاً بسهولة بالغة. ولكن، وكما أشار تشارلز داروين Charles Darwin، فإن الإدراك عند الطفل البشري يترافق مع شيء لا يحدث لأي حيوان آخر، ويتمثل في الفرحة العارمة التي يُبديها.

فما الذي يحيلُ هذا الإدراك في المرآة إلى شيء مفرح، بينما يولد نوعاً من اللامبالاة عند الحيوانات؟ على النقيض من الحيوان، يعاني الطفلُ البشري من توتر دائم نتيجة الأثيرية الأزلية التي يتسم بها عالمُ الرموز الذي يغلّفه منذ لحظات وجوده الأولى. وينطبق هذا

بشكل خاص على السؤال المركزي: ما الذي تريده أمي مني؟ ويتلاشى ذلك التوتر حالما يرى هناك، أمام عينيه، صورته المنعكسة في المرآة والتي تشير إليها أمه بحماسة كبيرة. فالانعكاس يُخبر الطفلَ على الفور مَن هو وما يجب أن يكونه حتى يشكل موضوعاً لرغبة الأم. إذ يبدو أن الصورة، في الحال وبكامل حضورها المادي، تقدم إجابةً تعجز اللغة عن تقديمها: أنا هو بالنسبة إلى الآخر. وتمثل هذه التجربة النمطَ الأعلى للتجربة النرجسية. وهي طاغية إلى درجة أن بعض الأشخاص يبحثون بنوع من الهوَس عن تجربة كهذه في عمرٍ متقدم في محاولة لتفادي الشعور بالعوَز والقلق في العلاقات الإنسانية.

لكن هذه التجربة تترك أثراً سلبياً على العلاقة والفرد معاً. فلكي يتجنّب الطفلُ نشوءَ هذا القلق الكامن من جديد، عليه الدخول في منافسة عدائية مع أي شخص آخر يحظى باهتمام الأم (أو المحبوب، في مرحلة لاحقة)؛ إذ يمكن لشخص واحد فقط أن يحظى باهتمام الأم. فكلما بالغ الشخص في تفادي القلق من خلال التماهي مع الصورة في المرآة، كان عليه أن يُفرط في التفوق على الآخرين والتقليل من شأنهم وتدميرهم؛ أي أن يتجرّدَ من إنسانيته.

إضافة إلى ذلك، يتعزز هذا التجرد من الإنسانية عبر الحقيقة القائلة إن تماهي الشخص مع صورته في المرآة يحدّ من قدرته على التماهي مع الآخرين. ويزوّد هذا التماهي الطفلَ، للمرة الأولى، بصورة مرئية كونية (أو بديلاً عن ذلك عند الأطفال العميان) لجسده. وتمكّن هذه الصورة الكونية الطفلَ، للمرة الأولى، من رسمِ حدّ - يأخذ شكلَ الخط الذهني، بالمعنى الحرفي - حول جسده. وهذا ضروري، إلى درجة معينة، لبناء بنيةٍ أنويّة مستقرة. فمن دون هذه الصورة، لا يمكن للطفل أن يعرف نفسَه ذهنياً بصفته وحدة. ولكن، في حالة النرجسية المفرطة، فإن الحدّ الذهني-البصري بين الذات والآخر يصبح كثيفاً وبارزاً فتصبح الذات حبيسة ذهنية في هذه الصورة الذاتية. ومن ثم تجذب الصورة الذاتية البصرية الطاقة الذهنية والانتباه الذهني إلى درجة لا تعود فيها صورةُ الآخر "تضيء" في التجربة الذهنية. ونتيجة لذلك، لا يعود بمقدور المرء الشعور بالارتباط أو التماهي مع الشخص الآخر أو مع العالم. وبكلمات أخرى، تتنامى النرجسية المفرطة على حساب التماهي. وبما أنها تقوّض قدرةَ المرء على التناغم مع الآخرين ومع العالم، فإنها تحيله إلى شخص وحيد ومعزول.

نستنتج من هذا التحليل أن الاستثمارَ المفرط في صورة المرآة هو تعويضٌ للالتباس الذي تولّده اللغة الإنسانية في العلاقات الشخصية. لكن هذه المبالغة في التعويض لا تتجاوز كونها حلاً وهمياً. فالمرء يسعى إلى إقناع نفسه بالتكافل مع الآخر، لكنه يؤولُ إلى

نوع من العزلة السيكولوجية عن الآخر وتدميره، بالإضافة إلى التدمير الذاتي أيضاً. ومن الأفضل لنا أن نتخيَلَ هذا بطريقة محسوسة-بصرية: يتم امتصاص الطاقة الموجودة داخل النظام السيكولوجي واستثمارها في سطح الجسد، أي في الصورة البصرية للجسد. فليس من باب المصادفة أن يعترف الأشخاصُ الذين يهتمون بالمظاهر بشكل مفرط بأنهم يشعرون بنوع من "الخواء" في جلسات العلاج النفسي.

شهدنا في العقود الأخيرة - بالإضافة إلى تفاقم الخوف والقلق - تنامياً ملحوظاً للنرجسية. فقد بات من نافلة القول إن مجتمعَنا يركز بشكل متزايد على المُثُل الخارجية، لكن ذلك ينطوي على شيء من الصحة. فعددُ الإجراءات الجراحية التي "تقوّم" الجسد لكي يشبه مثالاً اجتماعياً في تزايد مستمر، كما تنامى بيعُ الأخلاط الهرمونية والبروتينية لفرض مثال بصري معين على آلة الجسد، ويشكل التقاط صور "السلفي" جزءاً من مخزون السلوك الاجتماعي (أو الانعزالي)، وصارت المنازلُ والحدائق تشبه الصورَ المنتشرة في مجلات الديكور، وتقدم الإعلانات واللوحات التجارية أمثلة منمقة عن السيارات وتسريحات الشعر والألبسة. وفي جوهر الأمر، تعود هذه النزعة إلى هوَس متنامٍ بنوع من "الحلول" البصرية الوهمية في محاولة لاستئصال الشكوك المتجذرة في العلاقات الإنسانية. وفي الوقت نفسه، نرى بشكل طبيعي تنامياً هائلاً للظاهرة السيكولوجية المرتبطة بالاستثمار المفرط في الصورة المثالية الخارجية: تجارب العزلة والخواء الداخلي، والشعور بالاستهلاك الناجم عن التنافس مع الآخرين (المسمّى بسباق الجرذان).

***

بالإضافة إلى النرجسية، هناك ظاهرة اجتماعية ثانية ترتبط مباشرة بتنامي الخوف والقلق: الزيادة الهائلة في أعداد القوانين، التي تتم الإشارة إليها أحياناً باسم "الأنظمة". ويمكننا مَوقعة هذا الهوَس التنظيمي في علم النفس التطوري نفسه الذي قمت بتوصيفه أعلاه.

إن إدراك الطفل لصورته المنعكسة في المرآة يضمن قدرتَه على التمييز السيكولوجي بين كيانه (جسده) والعالم المحيط به. ففي هذه المرحلة فقط تتخلّق الأشياءُ الخارجية ذهنياً بالنسبة إلى الطفل. ويسبب هذا تغيراً في وظيفة اللغة. إذ تبدأ الكلماتُ الآن بالإشارة إلى تلك الأشياء الخارجية (أي، تكتسب وظيفة مرجعية) وتكتسب معانيها في الوقت نفسه. لم يكن الأمر على هذه الشاكلة في المرحلة السابقة. فقبل "لحظة المرآة"، كانت تعابيرُ الطفل

مجرد "أفعال" فيزيولوجية غريزية تعبر عن الأحاسيس الجسدية بهدف إدراك تناغم تكافلي مع الآخر.

في اللحظة التي تكتسب فيها الكلماث المعاني، فإن العلاقة مع الآخر ستنتقل أيضاً إلى مستوىً آخر. إذ يحاول الطفلُ جاهداً الآن فهمَ الكلمات التي يستخدمها الشخص الآخر للتعبير عن رغباته. ماذا يعني أن يكون المرءُ شخصاً "جيداً"؟ ما الذي عليّ فعله لأكون "فتاة شجاعة"؟ وببساطة شديدة، يرغب الطفلُ في معرفة القوانين التي عليه اتباعها لكي يكون محبوباً. وفي لحظات معينة، يأخذ هذا شكلَ المطالبة بالقوانين؛ فبغض النظر عن وضوح قاعدة ما، إلا أنها تبقى غامضة وتستدعي المزيدَ من التوضيح. وبما أن الكلمات التي تتشكل فيها هذه القوانين لا تكتسب معانيها إلا من خلال ارتباطها بكلمات أخرى، يبدأ الطفلُ بالتساؤل عن معنى كل كلمة محتملة.

في سنّ الثالثة والنصف تقريباً، يصل هذا الهوسُ بالكلمات ذروتَه بما يسمى مرحلة "لماذا". ففي هذه المرحلة، يطرح الطفلُ عدداً لا متناهياً من الأسئلة التي تبدأ بكلمة "لماذا". "لماذا هذا حمار؟" "لأنه ينهق"، "لماذا ينهق؟" "لأنه غاضب"، "لماذا هو غاضب؟"، إلخ. في هذه المرحلة، يرى الطفلُ في أمه/أبيه شخصاً يعرف كل شيء، وعلى الرغم من أنه يرفض الخضوع والامتثال بعناد كبير في بعض الأحيان، إلا أنه يطالب أهلَه بتبنّي ذلك الموقف. فعليه أن يعرف كل شيء. وإن لم يتمكن الأهلُ من تحديد ما يريده بدقه، فإن الطفل لا يعرف كيفية الامتثال لرغبته. وهذه هي المرحلة التي يواجه فيها الطفلُ القلقَ الإنساني الأساسي ويعتريه الخوفُ الإنساني الأساسي؛ أي التعرض للإهمال من قبل الآخر (الأم، في الدرجة الأولى) لأنه ليس محبوباً.

إن محاولات الطفل لجعل القوانين واضحة وحاسمة تبوء بالفشل لأن اللغة الإنسانية، مرة أخرى، لا تكتسب أبداً أي معنىً دقيق. فكلما حاول الطفلُ توضيحَ القوانين من خلال استجواب الأهل، تاه أكثرَ في التأويلات المعقدة والمتناقضة. وفي حالة الأطفال الذين يتمتعون بميول قهرية، يحدث هذا بشكل جليّ وينتهي بهم المطاف إلى الكبت التام، فيغرقون في سعي لا متناهٍ نحو الكمال الذهني الذي يواجه المزيد من الإحباط والفشل. سوف نرى لاحقاً أن الأطفالَ يتحررون من مطالبتهم بالقوانين من خلال تقبلهم بعدم وجود إجابة دقيقة عن السؤال فيما يتعلق بالرغبة. وسوف يستدعي هذا، في الوقت نفسه، تخلّيهم عن سعيهم النرجسي ليكونوا موضوعَ الآخر (الذي عادة ما يكون الأم، في هذه

المرحلة).

***

يمكن أيضاً تطبيق هذه السيكولوجيا التطورية على المستوى الاجتماعي. من الصعب أن نتجاهلَ أن المجتمع يتعرض لإحباط متزايد نتيجة القوانين الكثيرة. فمن جهة، تفرض الحكومة هذه القوانين، ولكن من ناحية أخرى هناك أيضاً مطالبة دائمة بالمزيد من القوانين – الأخلاقية المفرطة في الصرامة – من قبل المواطنين أنفسهم. وعلى غرار النرجسية، هذه محاولة يائسة لاحتواء تنامي الخوف والقلق في العلاقات الإنسانية.

إنها ظاهرة مدهشة حقاً: فمنذ مطلع القرن العشرين، نشأت أخلاقية جديدة من رحم الفكر التنويري أكثر صرامة ونزَوِيّةً ونفاقاً وعبثية من الأخلاقية الدينية السابقة التي سعى عصرُ التنوير إلى استئصالها بهدف تحرير الناس. فمع نشوء ثقافة العمل، صار المجتمعُ فريسةً لقوانينَ ضمنية وصريحة ولّدت قلقاً وحذراً أكبرَ في كل تفصيل من تفاصيل التفاعل الإنساني. ففي أعقاب حركة #أنا أيضاً (Me Too#) تعلّم الطلاب كيف يغازلون بشكل قانوني ومنضبط،(13) وتم إخضاع الطلاب الجدد لتعاليمَ وأنظمة أكثر صرامة،(14) وسنّت السويد قانوناً يقول إن الجنسَ يكون قانونياً فقط في حالة موافقة الأطراف المعنية من خلال عقد يوقعون عليه،(15) وتم منع نشر لوحات الرسامين الفلمنكيين العارية على وسائط التواصل الاجتماعي،(16) وأصدرت Netflix قانوناً ينص على أن التواصلَ البصري بين الموظفين يجب ألا يتجاوز خمسَ ثوانٍ ومن غير المسموح للموظفين طلب أرقام هواتف بعضهم بعضاً دون إذن مسبق يجيز لهم القيام بذلك (!).(17) لقد أصبحت الأخلاقية السائدة أكثر صرامة إلى درجة أن التنويه إلى وجود الفروق الفيزيولوجية بين الرجل والمرأة يمكن اعتباره نوعاً من انتهاك الكرامة الجنسية.(18)

سقطت حركة Black Lives Matter في حبائل هذه النزعة أيضاً. فالميل نحو المعايير الصارمة فيما يتعلق بالعرقية لم تحقق الكثير؛ إذ من غير المتوقع لهذه القوانين أن تساهمَ جدياً في التغلب على مشاعر التفوق النرجسية التي تنطوي عليها العرقية.

من ناحية أخرى، أنتجت الحركة المناخية صنفاً جديداً من الجرائم يندرج تحت الجرائم البيئية. فقد وصل الأمر بهذه الحركة إلى اعتبار استخدام حطب المدافئ، أو أكل اللحم، أو العيش في الريف بمثابة انتهاكات بيئية، مما أدى إلى دفع الإيديولوجيا البيئية إلى حدّ

صارت معه متناقضة مع هدفها الأصلي المتمثل في العودة إلى الطبيعة. كما أن الانتهاكات البيئية تتميز بالانتقائية والتفاوت من حيث صرامتها. فعلى سبيل المثال، هناك مبالغة كبيرة في تقليص إنتاج الكربون على المستوى الفردي، ولكن هناك مرونة كبيرة في موضوع استهلاك الطاقة عبر استخدام الإنترنت (الذي يوازي الطاقة المستهلكة في جميع أشكال التنقلات الجوية) و"تصنيع" Bitcoins (الذي يوازي استهلاك الطاقة الذي يتم في أي من البلدان الأوروبية الغربية). كما لا يتم التطرق، إلا فيما ندر، إلى الضرر البيئي الناجم عن استخراج خامات التعدين المستخدمة في صناعة بطاريات السيارات الكهربائية. كانت الحركة البيئية صوتاً مناوئاً فيما مضى، ولكن مع اعتناقها "الحداثة البيئية"، انصهرت بشكل واضح في الإيديولوجيا الميكانيكية السائدة.

يتجلّى هذا الهوَس التنظيمي أيضاً في الفضاء العام. يطلّ مكتبي في جامعة غِنت على تقاطع رئيس. وخلال العشرين سنة المنصرمة، شهدتُ تحوّل هذا التقاطع من شارع إسفلتي ضخم يحتوي على بعض الخطوط البيضاء المتناثرة إلى مجموعة كبيرة من الخطوط والمناطق الملونة التي تحدد مسارَ الدراجات الهوائية والمشاة والسيارات، مع مزيد من الإشارات والأضواء المرورية المعلقة. ولا يقتصر الأمر على التقاطعات فقط. ففي محطات القطار، عليك أن تشتري بطاقة لكي تدخل إلى دورات المياه، وهناك دوائرُ صفراء مخصصة للمدخنين الذين يمارسون إدمانَهم الخطِر، كما لا يسمح لك بركن سيارتك إلا في أماكنَ مخصصة ومأجورة لمدة زمنية محددة. وخلال أزمة كورونا، بلغت هذه الظاهرة ذروتَها المؤقتة مع إدخال عدد هائل من الأسهم التي تدل على الطوابق والأدراج والمسارات والاتجاهات التي يجب اتباعها، واللوحات التي تذكر الناسَ بضرورة ارتداء قناع الوجه، والمناطق المعزولة بالحواجز التي تمنع الاختلاط في المهرجانات والأنشطة الثقافية، والنقط الحمراء والخضراء على الكراسي التي ترشدك إلى الأماكن التي يمكنك الجلوس فيها وتلك المحظورة عليك. يتم تأجيل اللحظة التي تشهد إلغاء هذه القوانين إلى أجلٍ غير مسمّى في حال كان الأمر يعود إلى مناصري المقاربة الحالية لأزمة كورونا. كما أن احتمال حدوث بضع مئات الآلاف من الوفيات الناجمة عن إنفلونزا "عادية" سيكون مبرراً كافياً لتطبيق مثل هذه الإجراءات في المستقبل.

إضافة إلى ذلك، تتغيّر غابةُ القوانين التي يتم تفعيلُها لمواجهة التهديدات المختلفة من موقع إلى آخر. فخلال أزمة كورونا، كان رؤساء البلديات مخوّلين بتعديل القوانين في المناطق الواقعة تحت سلطتهم بالطرق التي يرونها مناسبة. كما أن القوانين تتغير مع

مرور الزمن. فأثناء العواصف الرعدية، والحوادث الإرهابية، وانتشار الفيروسات، يمكنها أن تنتقل بسهولة بين الرمز الأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر. وعلى المدى الطويل، تصبح القوانينُ أيضاً مفصّلة جداً إلى درجة تدفع المرءَ إلى الغضب أو الضحك؛ ففي صيف سنة 2020، تقرَّرَ أن الرقصة الافتتاحية مسموحة في الأعراس، ولكن شريطة ألا تكون رقصة البولونيز.(19) ويبدو أن فيروس كورونا يلمّ بالرقص. فقد اتضح أن مراعاة القوانين مهمة مستحيلة، مما يدفع السلطات إلى حالة من الارتباك واليأس. ففي مرحلة معينة خلال الإغلاق الثاني في 2020، ذكر الموقعُ الإلكتروني لوزارة الصحة البلجيكية أن بمقدور الأزواج الذين لا يشتركون في المسكن نفسه أن يزوروا بعضهم بعضاً، ولكن من صلاحية الشرطة تغريم من يفعل ذلك.

إن المشكلات التي تكشف عنها الأخلاقية الجديدة تتسم بالشرعية. فالتمييز الجنسي والعرقية من أعراض الانحدار الثقافي، وعلى الناس الاهتمام بالطبيعة (أو بالمناخ) وإلا فسوف ندمّرها في نهاية المطاف، كما أن التضامن مع ضحايا فيروس كورونا (وضحايا تعاطي قطاع الصحة العامة معه) دليلٌ على إنسانيتنا. لكن هذا لا يعني أن الحلولَ المقترحة شرعية أيضاً. فهي تتسم بالإفراط والتفاوت والفشل من نواحٍ عديدة. ففي خطاب حركة ‎#MeToo‏، تبدو الخطوط الفاصلة بين الغزل والاغتصاب مشوشة؛ وفي خطاب حركة Black Lives Matter، يبدو أي تلميح إلى لون البشرة أشبه بالمشي فوق قشر البيض؛ كما أن الحركة المناخية تعزل الإنسان بشكل أكبر عن الطبيعة؛ وفي أزمة كورونا، أضحت الرعاية الصحية هجوماً على الحياة والحرية. وكما يشير فرويد Freud، إن الطبيعة القمعية للأخلاقية الجديدة تحرّض على "عودة المقموع". فبين عامي 2015 و2020، تضاعف استخدامُ اللغة الجنسية مرتين، كما تضاعف استخدام اللغة العرقية والعدائية ثلاث مرات على وسائط التواصل الاجتماعي.(20) ولذلك علينا الاعتراف بهذا الفشل الذريع، على الرغم من التحفظات التي نُبديها دوماً فيما يتعلق بالأرقام والإحصائيات.

من جهة أخرى، تُفرَض الأخلاقية الجديدة بصورة قسرية وعدوانية من الحكومة والشعب نفسه. وبالتالي نشهد تراجعاً سريعاً لدعم حرية التعبير، وحرية الصحافة، والحرية الفنية، وحق تقرير المصير؛ فقد تعرّضت ج. ك. رولينغ J. K. Rowling لهجوم شرس (وصل إلى درجة اقتحام منزلها) عندما هزئت من الإشارة إلى "الأشخاص الذين يحيضون" عوضاً عن "النساء".(21) وتطالب شركات التأمين الألمانية بتزويد السيارات الجديدة بنظام

حماية ضد السائقين المخمورين،(22) وتم تسريح أحد محرّري New York Times لنشره مقالة لسياسي يميني حول موت جورج فلويد George Floyd،(23) وفي أستراليا تم توصيف رجلٍ على أنه عدو لدود للشعب وتعرض للملاحقة من الشرطة والجيش لعدم امتثاله للحجر الإلزامي بعد النتيجة الإيجابية التي أظهرها اختبار كوفيد-19 (والتي يمكن أن تكون نتيجة زائفة).(24)

***

لا يزال بمقدوركم الشك إن كانت هذه القوانين الصارمة والعبثية والمتناقضة تقدم صورة نمطية للمجتمع المعاصر. هل كان هناك حقاً عدد أقل من القوانين في الماضي؟ وهل كانت القوانين أقلّ عبثيةً في الماضي؟ نشأت الوصايا والمحرمات التي يبلغ عددها 613، والتي تشكل التعاليم الدينية اليهودية (الهالاشا)، منذ آلاف السنين. وتنطوي على إخضاع حيوات اليهود المتديّنين لقوانينَ تطال أدق التفاصيل. وغالباً ما يعترف اليهودُ أنفسهم بغموض هذه التعاليم في بعض الأحيان. فبالإضافة إلى القوانين المبنية على أساسٍ منطقي (الميشباتيم)، هناك أيضاً قوانين تعزز الرابطة بين الإنسان والأزل وتستعصي على الفهم المنطقي (الشوكيم، التي تتضمن القوانين الغذائية والختان).

عرفت الشعوبُ الأصلية أيضاً الكثيرَ من القوانين. فغالباً ما تهتدي المجتمعات القبَلية الطوطمية بنظام معقد من القواعد السلوكية، والتعاليم الأخلاقية، والمحظورات التي تجرد الحياةَ اليومية من عفويتها. فلا يمكن لمسُ أشياءَ محددة، مثل الأسلحة والألبسة، في أوضاع معينة، وهناك بعض الأطعمة المحظورة (بما في ذلك لحم حيوان طوطميّ)، كما يُحظر اقتفاء آثار أقدام معينة (فبين سكان جزيرة ليبر، على سبيل المثال، يتفادى الأخ والأخت تتبعَ آثار بعضهما بعضاً).(25) وعلى النقيض مما يشي به التصويرُ الرومانسي للمجتمعات القبَلية، ليس هناك حبٌ أو جنسٌ مباح فيِ العراء. فبين بعض القبائل الأسترالية الأصلية، مثلاً، ربما نقع على قبيلة معينة انقسمت تاريخياً إلى اثنتي عشرة عشيرة. ولا يُسمح بالعلاقات الجنسية العابرة والعلاقات الجنسية طويلة الأمد إلا بين أعضاء ثلاث عشائرَ أخرى. ولذلك، فبالنسبة إلى الرجل هناك ثلاث من أربع نساء محرّمات عليه مسبقاً. وأي انتهاكات يقوم بها الرجال أو النساء تلاقي عقوبة الموت. أما قبيلة thi-Ta-Ta في نيو ساوث ويلز فتتمتع بتاريخٍ أقل صرامة. فقد كانوا يقتلون الرجلَ و"يكتفون" بضرب المرأة وتعليقها على عمود حتى تكاد تفارق الحياة.(26)

إن المقارنة بين الأنظمة القانونية الدينية والأصلية والحديثة لا تقع ضمن نطاق هذا الكتاب، لكن الفروقات موجودة بكل تأكيد. فعلى سبيل المثال، كانت الأنظمة القانونية الدينية والأصلية صريحة وواضحة بشكل عام. وهناك فرق مهم آخر يتمثل في استقرار هذه القوانين. أما الأنظمة القانونية الحديثة فهي على غرار ذلك. إذ إنها تتغير بشكل سريع وغير متوقع. فإن اشتريتَ سيارة في مدينة غِنت اليوم، فمن المحتمل ألا تتمكنَ من زيارة مدينة أخرى في العام التالي لأن سيارتك لا تتطابق مع المعيار الأوروبي السائد حينها. كما أن القوانين تتزايد من حيث الحجم. فعلى سبيل المثال، تُظهر البيانات، بشكل تناسبي، استهلاك المزيد من الطاقة والوقت على تشكيل واحترام وتطبيق مجموعة كبيرة من القوانين المتنوعة. فعلى المستوى السياسي، نرى كيف تطور الهوسُ التنظيمي عبر الأشكال الحكومية البيروقراطية المتزايدة، أولاً في إمبريالية أواخر القرن التاسع عشر (كنتيجة منطقية للكولونيالية، التي لم تكن طبيعتها بيروقراطية بعد)، ومن ثم في توتاليتارية العصابات المارقة في النصف الأول من القرن العشرين (الأنظمة المبنية على الأسس النازية والستالينية)، وبعد ذلك في التوتاليتارية التكنوقراطية الناشئة لمطلع القرن الواحد والعشرين. وقد تميزت جميعُ أنظمة الدولة هذه بقوانينَ معقدة وعبثية.

ينعكس هذا التغير التنظيمي أيضاً في الزيادة الهائلة للوظائف الإدارية عبر القرنين التاسع عشر والعشرين. فبين عامي 1840 و2010، تزايدت الوظائف الإدارية والإشرافية من 20% إلى 80% من عدد الوظائف الإجمالي.(27) فقد تضاعف عدد الموظفين الإداريين في الجامعات الأميركية خلال فترة لا تتجاوز ثلاثين عاماً.(28) ولا يقتصر الأمر على الوظائف الإدارية فقط، إذ إن عدد المهام الإدارية في تزايد أيضاً، حتى في مهن لا علاقة لها - بطبيعتها - بالإدارة. فعلى أصحاب المخازن التجارية والمزارعين والمدرّسين أن يتعاطوا مع عدد متزايد من القوانين ويهدروا المزيد من الوقت على المهام والواجبات الإدارية.(29)

***

من المؤكد أن الهوَس التنظيمي، بكل غلوائه وعبثيته، يساهم في تعزيز المشكلات السيكولوجية التي تميز عصرَنا. إذ إن تناقض وغموض الكثير من القوانين يولّدان أثراً عصابياً شبيهاً بكلب بافلوف Pavlov تعمل طبيعته المفرطة على تقويض متعة الحياة وعفويتها والإحساس بالرضا والإشباع، حيث يتقلص فضاءُ الحرية والاستقلالية بشكل

مضطرد. فعلى سبيل المثال، تبدو للوهلة الأولى ميزاتُ ما يسمى "قانون الاندماج" الذي يستدعي الاندماج المتأخر على الطرقات الأوروبية. لكنه يشكل عقبة سيكولوجية دقيقة. إذ إن الاندماج المتأخر القسري يقوّض الخيارَ الفردي واحتمالَ لقاء عابر وقوي يتمثل في وضع يقرر فيه شخصٌ إعطاءَ الأولوية لشخص آخر. فلا يعود السائق يملك خيارَ التصرف بعفوية ونبل لأنه مرغم على ذلك. ربما لا يبدو هذا منطقياً أو ذا أهمية، لكن الأمر على خلاف ذلك. إذ إن لحظات اللقاء الإنساني تلك هي التي تنقي الرابطة الاجتماعية من الداخل. فمن دون تلك اللحظات، يتغضّن النسيجُ الاجتماعي مما يؤدي تدريجياً إلى تفكك المجتمع إلى مجموعة من الأفراد المبعثرين.

يبرز الأثرُ الخانق لهذا الإفراط في القوانين عند اختفائها بشكل مفاجئ، كما يحدث – مثلاً – عندما تصل إلى قرية فرنسية صغيرة ولا تقع على تلك الخطوط البيضاء في الشوارع التي توجّه مسارَك وتحدد الأماكنَ التي يمكن لك أن تركنَ سيارتك فيها. إذ يمكنك أن تركن السيارة على جانب الطريق، دون أن تدفع شيئاً مقابل ذلك، ولفترة زمنية غير محدودة. أو في محطة قطار ريفية حيث لا تضطر إلى دفع المال لكي تركن سيارتك، وحيث تتوفر دورات المياه للجميع بشكل مجاني، وحيث يمكنك الدخول إلى أرصفة القطار في الوقت الذي تريده. والأمر أشبه بالأزيز الذي يصدره مكيّفُ الهواء في مكتبك. فأنت لا تشعر بالضغط الذي يسببه إلى أن يختفي في الساعة السادسة، ومن ثم تشعر بالهدوء والسكينة.

تنامى هذا الإفراط التنظيمي دون أن نشعر به تقريباً. كما أنه يترك فينا ذلك الأثر الخانق دون أن ندرك ذلك. ولكن في كل مرة تتسارع فيها هذه الآلة التنظيمية، فإننا نخسر المزيدَ من فضائنا الوجودي بصفتنا كائنات حية، حيث يولّد نوعاً من الحلقة المفرغة؛ فلكي نحدّ من التوتر والإحباط في الفضاءات الاجتماعية، علينا أن نأتي بالمزيد من القوانين والبروتوكولات والإجراءات. وبالتالي فإن هذه القوانين تولّد المزيد من القلق والإحباط. وفي كل مرة يضيق فيها هذا النسيجُ التنظيمي، يتناقص الأوكسجين الذي يغذي الكائن الإنساني. فإن استمرت هذه النزعة التنظيمية وتعززت بهذا الشكل المفرط في المجتمع، فسوف يبدو الازدياد في محاولات الانتحار نتيجة طبيعية. وسوف تكون آلة القتل الرحيم – وهي عبارة عن صندوق يمكّنك من التخلص من الحياة بطريقة خالية من الألم بواسطة غاز الهليوم – النتيجة الحتمية للتفكير الميكانيكي.

يسعى الهوَس التنظيمي، كما يتجلى في البيروقراطية الحكومية، إلى تحويل التفاعلات

الاجتماعية إلى عمليات عقلانية ومنطقية من خلال قولبتها في أنماط أدائية. وفي هذه الحالة، يتحول البيروقراطي المثالي إلى كمبيوتر. فهذا النوع من الأشخاص يهتدي بمنطق النظام الذي يعمل فيه دون أي "تشتت" ناجم عن فردانية الأشخاص الذين "يساعدهم". ولهذا السبب يولّد النظامُ البيروقراطي ذلك النوع من الإحباط الذي يولده الكمبيوتر؛ فنحن نواجه آخرَ ميكانيكياً لا يتمتع بأية حساسية تجاه فردانيتنا ككائنات إنسانية. فالكمبيوتر ليس آخرَ مجرداً من العدل، بل هو آخر يفرض منطقاً صارماً. ولا يهمّ إن كان علينا أن نذهب إلى اجتماع خلال خمس دقائق ونحتاج إلى طباعة تقرير آخر؛ إذ إن الكمبيوتر لن يكون أكثر تفهماً أو مرونة ("الكمبيوتر يقول لا"). ومن هذه الناحية فإن الكمبيوتر يشبه الزعيمَ التوتاليتاري المثالي الذي يفرض منطقَه على الشعب بطريقة صارمة وعنيفة. سوف نتناول هذا الموضوع في الجزء الثاني من الكتاب.

***

لذلك يتبدّى كل من النرجسية والهوس التنظيمي كحلولٍ زائفة للقلق والخوف اللذين تولّدهما اللغة في العلاقات الإنسانية. فهما يقودان إلى العزلة الاجتماعية ويتمتعان بنوع من النزعة التدميرية الذاتية. ولكنْ هناك أيضاً حلولٌ حقيقية. نعود للمرة الأخيرة إلى السيكولوجيا التطورية.

وصلنا إلى مرحلة "لماذا"، حيث يستمر الطفلُ في سؤال أبويه (وأحياناً جميع الكبار حوله) "لماذا". وينتج عن هذا الاستفسار الملح استشعار الطفل لشيء مهم؛ فإن استمر في طرح هذا النوع من الأسئلة، سوف يكون على الأبوين الاعتراف بحدود معرفتهما في نهاية المطاف. وبالنسبة إلى معظم الأطفال، يتلاشى اعتقادُ الأطفال – في هذه المرحلة – بأن الأبوين يعرفان كل شيء. فبعد المرحلة التي يتعرف فيها الطفلُ على نفسه في المرآة، تمثل هذه المرحلة الثورة الثانية في التطور السيكولوجي:

في تلك المرحلة يتولّد وعيٌ حدسي لدى الطفل بأن السلطات حتى لا تفهم تماماً معنى الكلمات وأن الغموض الذي يغلف الأشياء لن يتلاشى أبداً. عند ذلك ينشأ احتمالان: الخوف أو الإبداع. ففي حال هيمنة الخوف على الطفل، نراه يتعلق بالنرجسية والبحث عن القوانين. لكن إدراك هذه الحتمية يفتح المجالَ أمام احتمال آخر؛ فبما أن أحداً لا يعرف معنى الكلمات بشكل دقيق – ما معنى أن "أكون جيداً"، وما معنى أن أكون "فتاة شجاعة"، إلخ – يمكن للطفل تحرير نفسه من خطاب أبويه وتخليق إجاباته الإبداعية الخاصة على

تلك الأسئلة والاهتداء إلى طريقة حياتية فريدة خاصة به.

فمن ناحية، على الطفل أن يقبض على هذه الفرصة المتاحة ويحقق نفسه بطريقة إبداعية في الفضاء الناشئ أمامه. ومن ناحية أخرى، يلعب الأبوان دوراً مهماً في هذه العملية أيضاً. إذ يمكنهما دعم مساعي الطفل التدريجية لإضفاء المعنى على الحياة وتحديد خياراته الشخصية. أو ربما يحاولون، بطرقٍ واضحة أو مستترة، الحفاظ على تظاهرهم المعرفيّ والاستمرار في اتخاذ القرارات نيابة عن الطفل. في الحالة الأولى، ربما يكون الطريق إلى الفردانية سهلاً وسلساً. أما في الحالة الثانية، فمن المحتمل جداً أن يواجه الطفلُ مجموعة من الأزمات والعواصف. ولكن من الصعب التنبؤ بالسيناريو الذي سيثمر عن نتائجَ أصيلة في نهاية الأمر.

مع إدراك الطفل أن خطاب أبويه العارفين بشكل شيء لا يتمتع بالدقة، يتولد نوع من الحساسية الأولية لخطاب لا يهدف إلى الدقة التامة ويتمثل في السرد التخييلي والشعر. فخلال هذه الفترة، يتوق الطفلُ إلى الحكايات التي تدور حول الأهل والأجداد والجدات، حكايات تزود الطفل - بأحداثها الحقيقية والمتخيَّلة - بأسايس لهويته ومبادئَ سلوكية معينة ("إن أحد أفراد عائلتنا شخص مهذب، ويعمل بجد، ويحب الشراب والطعام"). من الناحية السيكولوجية، تختلف هذه المبادئ بشكل جذري عن القواعد الصارمة التي كان يعتمد عليها فيما مضى؛ فهي تشكل توجيهات يتم اتباعها بصدق ومرونة في كل وضع جديد يواجهه الطفل. وهذه هي المبادئ التي تحرر الطفلَ من ذلك التوق الشديد إلى القواعد والقوانين.

إن الاستخدامَ المرن للغة والكلمات، الذي لا يهدف إلى تحديد المعنى بشكل دقيق، يمكّن الطفلَ من إعادة اكتشاف شيء في السياق الفريد الذي يجد نفسه فيه. فبعد اكتسابه صورة ذاتية في مرحلة المرآة وفترة العقلانية الوليدة يكتشف الطفلُ، في الحكايات والشعر، أصداء وروائحَ الفردوس الأمومي المفقود الذي كان ينعم به في أشهر حياته الأولى.

ولذلك فإن تخليق الفردانية، عبر الانتقال من استخدام اللغة بشكل منطقي-عقلاني إلى استخدامها بشكل استحضاري-إبداعي، يشكل تفاعلاً محتملاً ثالثاً مع الشكوك الأساسية التي تميز الوضعَ الإنساني. ولا يشكل ذلك سقوطاً في اللاعقلانية (سوف نتناول هذا في الفصل التاسع). لكن هذا الفعل الإبداعي، بالمقارنة مع النرجسية والهوَس التنظيمي، هو حلٌّ حقيقي للشك المتأصل في العلاقات الإنسانية والوجود الإنساني بشكل عام. فهو يربط

الإنسانَ بالآخر ويقود إلى التناغم مع موضوعات (الحب) بدلاً من العزلة السيكولوجية والنزعة التدميرية (الذاتية). وفي الوقت نفسه، يساهم في التخليق الإبداعي للفردانية والاستقلال السيكولوجي.

***

فلنعد قليلاً إلى الأسئلة التي طرحناها على أنفسنا في مطلع هذا الفصل. كيف قاد تقليدُ التنوير إلى المزيد من الخوف والقلق، ومن ثم إلى أخلاقية صارمة ومفرطة؟ ألم يهدف بشكل واضح إلى خلاف ذلك؟ إن الخطة السيكولوجية التطورية، الموصوفة أعلاه، تجعل الإجابة في غاية السهولة. كان تقليدُ التنوير، المتمثل في إيديولوجيا العقل، محاولة حثيثة لتقنين الحياة في المنطق والنظريات. فقد اعتبر الرمزية والصوفية والتخييل، والشعر بمثابة أشياءَ ثانوية. لكن هذا النوع من الخطاب هو الذي يمكننا من التفاعل مع الشكوك المتأصلة في الحياة بشكل إبداعي وفرداني وإيجاد الكلمات التي تلامس أوتارَ الآخر.

هكذا تحول القلق إلى خوف، وقد تمت مواجهة هذا الخوف من خلال النرجسية ونوع من الخطاب التنظيمي المفرط. وهذه الطريقة الثانية المستخدمة في "حلّ" مشكلة الخوف هي التي تهمنا هنا. فكلما حاولنا استئصالَ الخوف والقلق عبر العقلانية والقوانين، واجهنا مزيداً من الفشل. تذكروا ما قلناه حول بنية اللغة؛ إن الكلمة الأخيرة، التي يجب أن تودي بالقلق والشك وتأتي بالحل الأخير، غير موجودة. فمن الناحية المنطقية (من المنظور التطوري، كما تناولناه في هذا الفصل) والتاريخية (كما سنرى في الفصول التالية)، في هذه المرحلة بالذات يتحول الإنسانُ نقيض ما كان يسعى إليه في توقه إلى الحرية: السيد المطلق – الزعيم التوتاليتاري – الذي يزعم أنه يملك الكلمة الأخيرة.

يلقي هذا ضوءاً مختلفاً على ظواهرَ اجتماعية مثل MeToo#، وBlack Lives Matter، والحركات المناخية، وأزمة كورونا. فهي مرتبطة بمشكلات حقيقية، لكن تلك المشاكل الحقيقية ليست السببَ الحقيقي لوجود هذه الظواهر. إذ إنها تنشأ، بشكل أساسي، من حاجة الشعب الماسة لمؤسسة سلطوية تقدم التوجيهات لترفع عن كاهله عبءَ الحرية والقلق المتلازم معها.(30) والحكومة متشوقة لملء ذلك الفراغ. فتراها تقوم، بشكل تدريجي، بتقييد حرية الاختيار عند الفرد وتختار نيابة عنه: إذ تفرض الضرائب على التبغ والسكر والسمن؛ وتحدد الطرائق الصحية والمناعية (حظر ارتياد الأماكن العامة من دون اللقاح)؛ وتحدد كمية الكحول الذي يمكنك استهلاكه أثناء فترة الحجر الصحي نتيجة

الإصابة بكوفيد-19 (ست زجاجات من البيرة في أستراليا)؛ وتحظر الرموز الدينية في الأماكن العامة، وتفرض رموزها الإيديولوجية بالقوة (فمن دون رمز الاستجابة السريعة QR code، سوف تبقى الأبواب مغلقة). وبالتدريج، يفقد الفرد حقه حتى في اتخاذ القرارات المتعلقة بحياته الشخصية. فعندما يقوم المرضى بالإبلاغ عن الأفكار التي تراودهم بالانتحار، يجد المعالجون أنفسهم مرغمين على اللجوء إلى الأنظمة؛ فالانتحار ممنوع في أية ظروف كانت. أما إذا أجازت الحكومة ذلك، يمكنك الحصول على إذن بالموت الرحيم لأسباب تتعلق بالمعاناة العقلية. وبكلمات أخرى، من الآن فصاعداً تحدد الحكومة متى يجوز لك أن تموت. إن الوظيفة التثقيفية والتربوية للحكومة تصبح أكثر تعقيداً مع مرور الأيام، ولهذا السبب يصبح النظام الفعالُ ضرورة ماسة. ففي البداية، بدا نظام الائتمان الاجتماعي شيئاً يقتصر فقط على الصين الشيوعية-التوتاليتارية، لكن أستراليا تحضّر لتأسيس نظام مشابه(31)، كما أن بعض البلديات في بلجيكا بدأت تستخدم عملتَها الافتراضية الخاصة بها والتي يمكنك أن تكسبها من خلال "السلوك النموذجي".(32) (أعتقد أن تكنوقراطياً غير منتخب سوف يحدد معنى ذلك.) فهل يجب أن نخشى هنا أيضاً، كما يحدث في الصين، أن يخضع الناس لمعسكرات تدريبية تهدف إلى إعادة تثقيفهم على غرار خوارزميات الكمبيوتر الأورويلية [إشارة إلى رواية جورج أورويل (1984)] في حال تسجيلهم لعدد كبير من النقاط السيئة؟(33) فقد توقع الجهازُ الحكومي، الذي يتمتع بالموضوعية والمهارة، أن الأطفال المشاغبين سوف يطالبون بمساحة لتحقيق فردانيتهم، ولذلك عمل على تجريد الشعب من أسلحته سلفاً وضمنَ نوعاً من احتكار العنف.

إن تحقق مكانة الزعيم التوتاليتاري مستحيل في نهاية المطاف؛ فعلى الرغم من جنون العظمة والتعصب الإيديولوجي اللذين يتحلّى بهما، إلا أنه يخضع هو أيضاً لبنية اللغة. إذ يمكنه فقط التظاهر بامتلاك الكلمة الأخيرة. لكن هذه الكلمة الأخيرة تعوم هائمةً في فضاءات الشعر والسرد التخييلي والرمزية؛ أي في فضاء ذلك النوع من الخطاب الذي يعترف بقصوره وعدم اكتماله. إن الشخص الذي يرغب في تبوُّء موقع السيد المطلق يقع في أخطاء وتناقضات كثيرة، مما يُفضي إلى الأكاذيب والخداع. تناولنا هذه الظاهرة في الفصلين الأول والرابع حيث تحدثنا عن أزمة العلوم، لكننا نراها أيضاً على مستوى الخطاب العام.

إن السعي المفرط إلى الشفافية والدقة المفرطة يميل أيضاً في الاتجاه المغاير، أي

نحو التظاهر والخداع. انظروا فقط إلى التغطية الإعلامية: المعلومات التي تقدمها الحكومة على العلامات التجارية للمنتجات الفاخرة تفتقر إلى الثقة في معظم الأحيان؛(34) تحظر الحكومة المبيدات الحشرية ثم ترسل مسؤوليها ليشرحوا للمزارعين كيفية التهرب من الاختبارات التي يمكنها الكشف عن المبيدات الحشرية (كما توضح إيزابيل سابورتا Isabelle Saporta في كتابها *Vino Business* [صناعة النبيذ])؛(35) كما أن شركات التشفير التي تشتري منها السوفتوير المصمم لحماية خصوصيتك مملوكة من أجهزة الاستخبارات الحكومية.(36) وحتى محاولات تصويب الرعاية الصحية وجعلها أكثر شفافية – إحدى الأولويات الحكومية في القرن الواحد والعشرين – تنتهي إلى نتائج مغايرة. وتتم مشاركة تسجيلات المرضى الإلكترونية على نطاق جماهيري واسع من دون موافقة المرضى أنفسهم،(37) وهي عرضة للتهكير (كما حدث لعشرات الآلاف من التسجيلات في فنلندا)،(38) كما يستطيع عملاء التأمين الاطلاع على هذه التسجيلات متى يشاؤون.(39)

***

بهذه الطريقة انتهت المقاربة العقلانية للحياة إلى نوع من العجز عن التعاطي مع الخوف والقلق بطريقة فعالة؛ فقد عملت النرجسية والهوس التنظيمي على تعميق المشكلة بدلاً من حلّها، مما أدى إلى الإنهاك السيكولوجي للشعب الذي يتوق إلى سيّد مطلق. فهو يبحث عن ذلك السيد، تبعاً للرؤية السائدة عن الإنسان والعالم، في الإيديولوجيا الميكانيكية؛ أي في الإيديولوجيا التي سببت المشكلة في المقام الأول. وهذه هي أيضاً الإيديولوجيا التي تغوي العقولَ باستغلالها الهائل للمادة والتي تبدو كأنها تمتلك الحقائقَ المتمثلة في مخزونها من الأرقام والإحصائيات. ويشكل هذا الوضع الشعبي – الذي يتسم بالخوف والتشظي الاجتماعي والتوق إلى التوجيه والسلطة – الأرضية المثالية لنشوء مجموعة اجتماعية محددة برزت بتزايد من خلال عصر التنوير وما بعده وشكلت الأساسَ السيكولوجي-الاجتماعي للدولة التوتاليتارية، ونقصد هنا الجماهير.

الجزء الثاني

الجمهرة والتوتاليتارية

الفصل السادس

نشوء الجماهير

"التنويرُ هو انعتاقُ الإنسان من الوصاية الذاتية. والوصاية هي عجز الإنسان عن استخدام فهمه من دون توجيه من الآخر... 'تجرأ على التفكير! تحلَّ بالشجاعة لاستخدام عقلك!' هو إذاً شعار التنوير".(1)

بهذه الكلمات لخص فيلسوف التنوير الألماني العظيم إيمانويل كانط، في سنة 1784، ما رأى فيه جوهرَ تقليد التنوير. لكن ظاهرة مرعبة تكشفت بعد قرنٍ ونصف، قاد التنويرُ إلى النقيض مما استشرفه كانط. فقد مهد العلمُ لظهور قصص تتسم بالعبثية الصارخة، ومع ذلك صدّقها الناس بنوع من الحماسة والتعصب دون إعمال أي تأملٍ نقدي فيها، وصولاً إلى مرحلة التدمير الذاتي.

ففي ألمانيا، دفعت نظرية عرقية - روّج لها ديماغوجيّ متعصب - قسماً كبيراً من الشعب إلى اعتناق طريقة غريبة في التفكير. فأقدم البعض على الوشاية بأقربائهم وأصدقائهم وزملائهم الذين لم يكونوا، برأيهم، موالين بشكل مطلق للشعب الألماني وزعيمه؛ وتقبّلوا فكرة إبادة الأشخاص الذين يعانون من الإعاقات الجسدية كما تُباد الحشرات؛ وأبدوا موافقتهم على ضرورة استئصال أي ألماني يعاني من مشكلات في القلب أو الرئة على المدى الطويل؛ كما وافقوا، علناً أو بشكل سري، على إبادة "الأعراق الأدنى".

وفي روسيا، قادت قصة "علمية" أيضاً إلى النشوة العصبية نفسها؛ سوف تركز "العملية المادية-التاريخية" على تأسيس مجتمع خالٍ من الملكية الخاصة تمسك فيه "البروليتاريا" بزمام السلطة. كما طالبوا أيضاً ببعض عمليات الإبادة. في البداية، حدث هذا تبعاً لـ"منطقٍ" معين؛ أما في مرحلة لاحقة، فقد وقع الجميع فريسة لهذه العملية بشكل عشوائي. تم ترحيلُ عشرات الملايين من الأشخاص إلى معسكرات العمل القسري (gulags) حيث قضت أغلبيتهم هناك. كما تمت تصفية نصف أعضاء الحزب الشيوعي أيضاً دون أية علائمَ تشي بالمعارضة أو الخيانة. والأغرب من هذا كله هو أن معظم الضحايا لم يبذلوا أدنى جهدٍ لدحض التهم الزائفة الموجهة لهم؛ حتى إنهم اعترفوا علانية بالذنوب التي اقترفوها ومضوا إلى المشانق صاغرين وبكامل إرادتهم.

شهدَ النصفُ الأول من القرن العشرين نشوءَ النازية والستالينية اللتين شكلتا نوعاً جديداً من الحكم عُرف باسم التوتاليتارية (totalitarianism). ويتميز هذا الحكم عن الأنظمة الديموقراطية من خلال بنية الحزب الواحد وتجاهله للمبادئ الديموقراطية الأساسية، مثل حرية التعبير وحق تقرير المصير. لكن الدولة التوتاليتارية تختلف جذرياً أيضاً عن أشكال الحكم الدكتاتورية من حيث بنيتها (أي، تنظيمها الداخلي) وآلياتها (أي، تقدمها العملياتي). تُمَوقع حنة آرندت، في كتابها المهمّ *The Origins of Totalitarianism* **[أسس التوتاليتارية]**، جوهرَ هذا الفرق على مستوىً سيكولوجي. فبينما تنبَني الدكتاتوريات على زرع الخوف من العدوان الفيزيولوجي – يقع الشعب فريسة خوف كبير من قدرة الدكتاتور (أو النظام الدكتاتوري) على فرض عقد اجتماعي من طرف واحد – تتأسس الدولة التوتاليتارية في العملية الاجتماعية–السيكولوجية المتمثلة في الجَمهرة.(2)

يجب أن نأخذ هذه العملية بعين الاعتبار لكي نتمكن من فهم الخصائص السيكولوجية المذهلة التي يتمتع بها الشعب التوتاليتاري: استعداد الأفراد للتضحية بمصالحهم الشخصية لصالح المجموع العام، والرفض العنيف للأصوات المعارضة، وعقلية الوشاية الارتيابية التي تمكّن الحكومة من النفاذ إلى قلب الحياة الخاصة، والتقبّل الفوري للدعاية والتلقين العقائدي العبثي الذي يأخذ لبوساً علمياً مزيفاً، والاعتناق الأعمى لمنطق ضيّق يتجاوز جميعَ الحدود الأخلاقية (مما يجعَل التوتاليتارية متناقضة مع الدين)، وتلاشي التنوع والإبداع (مما يجعل من التوتاليتارية عدواً للفن والثقافة)، والنزعة الداخلية نحو التدمير الذاتي (التي تضمن تدمير الأنظمة التوتاليتارية لنفسها في نهاية المطاف).

إن تحليلَ العملية السيكولوجية للتوتاليتارية شيء في غاية الأهمية في القرن الواحد والعشرين. فهناك مجموعة من المؤشرات التي تدلّل على نشوء نوعٍ جديد من التوتاليتارية (التكنوقراطية): التنامي الملحوظ لتدخّل الوكالات الأمنية (فتح البريد، وتفتيش الأنظمة المعلوماتية، وتركيب أجهزة المراقبة، ومراقبة الهواتف)؛(3) والتطور العام الذي يشهده مجتمع المراقبة؛(4) والضغط المتزايد على حق الخصوصية (خاصة منذ أحداث 11/9)؛(5) والتزايد الكبير في العقد الأخير للوشايات الشخصية عبر الأقنية الحكومية؛(6) وتنامي الرقابة وقمع الأصوات البديلة، وخاصة خلال أزمة كورونا؛(7) وتلاشي الدعم للمبادئ الديموقراطية الأساسية؛(8) وفرض برنامج تلقيح تجريبي ورمز الاستجابة السريعة كشرطٍ لارتياد الأماكن العامة، إلى آخر ما هناك من المؤشرات والإجراءات. يبدو

أن اللحظة التي تنبأت بها آرندت في سنة 1951 على الأبواب: نشوء نظام شمولي جديد لا يقوده "زعماء حلقات" من أمثال ستالين وهتلر، بل مجموعات من البيروقراطيين والتكنوقراط البليدين.(9)

في الفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب، تناولتُ الطريقة التي أوصل بها نشوءُ الرؤية الميكانيكية للعالم المجتمعَ إلى حالة سيكولوجية محددة خلال القرون الأخيرة. فقد وقع المجتمع، بشكل تدريجي ومتسارع، في قبضة إيديولوجيا ميكانيكية متعصبة سرعان ما تحولت إلى نوع من العقيدة والإيمان الأعمى (الفصل الأول)؛ وتنامي الشعور بالعبثية والعزلة الاجتماعية بشكل كبير (الفصل الثاني)؛ وتعلّق الآمال بحلٍّ تكنولوجي طوباوي للمشاكل المتأصلة في الوجود الإنساني (الفصل الثالث)؛ والهيمنة المتزايدة على الفضاء العام من قبَل خطاب علمي مزيف قائم على الأرقام والبيانات والإحصائيات يعمل على طمس الخط الفاصل بين الحقائق والخيال (الفصل الرابع)؛ ودور الخوف والقلق المتناميين في تعزيز توق الشعب إلى سلطة مطلقة (الفصل الخامس). في هذا الفصل، سوف أوصَف كيف يستعيد هذا الشعبُ المتشظي تماسكَه بشكل مفاجئ في وحدة شاملة عبر عملية الجمهرَة.

***

الحشدُ هو نوع معين من المجموعات. وتتمثل ميزته الرئيسة في "تماثل" الأفراد. ففي الحشد يتساوى كل شخص مع الأفراد الآخرين، ويفكر الناسُ سوية، ويميلون إلى التماهي مع المثل نفسها. ينوّه غوستاف لو بون Gustave Le Bon – عالمُ الاجتماع والسيكولوجيا الفرنسي الذي نشر واحداً من أهم الأعمال التي تتناول ظاهرة الجمهرَة، *Psychologie des foules* **[سيكولوجية الجماهير]** – إلى أن "روح الجماعة" تسيطر تماماً على "الروح الفردية" في الحشود الجماهيرية.(10) ويترافق هذا التماثل (uniformization) بفقدان تام للتفكير العقلاني والقدرة على التأمل النقدي، حتى بين الأشخاص الذين يتميزون، في "الظروف العادية"، بالذكاء الشديد والقدرة على التفكير النقدي الأصيل.(11) كما يترافق أيضاً مع نزعة قوية للاستسلام لدوافعَ تُعتبر، في الظروف العادية، مجردة من الأخلاق بشكل كامل.

إن ظاهرة الجمهرة قديمة قدَمَ البشرية نفسها، وقد ظهرت في العديد من الأشكال.

وتشهد الأمثلة التاريخية على هذا التنوع: الجمهرة العابرة التي نشأت خلال ليلة القديس بارثولوميو Saint Bartholomew مقابل الجمهرة الطويلة التي تمثلت في "الثورة الفرنسية"؛ والجمهرة العشوائية للوباء الراقص في ستراسبورغ مقابل الجماهير المنظمة التي نراها في الجيش والكنيسة؛ والجماهير الدينية الصليبية مقابل الجماهير العلمية المزيفة في القرنين العشرين والواحد والعشرين؛ والجماهير الغفيرة المشكلة للنازية والستالينية؛ والجمهرة المحدودة التي تنشأ بين الحين والآخر في هيئات المحلفين، إلخ.

وهذا المثال الأخير، المتمثل في الجمهرة التي تحصل في هيئات المحلفين، مثير للاهتمام لأن حجمه الصغير يسمح بنوع من التحليل التفصيلي. يبدو، بشكل متكرر، أن هيئات المحلفين لا تتأثر، في حكمها النهائي، بالميزات الجدلية للالتماس القانوني. كما أن محامي الدفاع الذي يقدم مرافعة منطقية ومبنية على الحقائق لن يفلحَ في ترك أي أثر ملموس على هيئة المحلفين. إذ غالباً ما تقع هذه الهيئات تحت تأثير المداخلات العاطفية البسيطة والمتكررة والصورة البصرية المؤثرة (بما في ذلك الأرقام المجدوَلة).(12) فكروا في جميع محامي الدفاع الناجحين؛ هذه هي الطريقة التي ينتهجونها في تقديم مرافعاتهم.

طالما كانت الجماهيرُ موجودة منذ القدم، لكن لو بون أشار إلى أنها بدأت تكتسب حضوراً قوياً منذ بداية القرن التاسع عشر.(13) فبينما كانت تتمتع بتأثيرٍ عابر سرعان ما يتم احتواؤه وقمعه من قبل قادة المجتمع، إلا أنها أصبحت قوية ومؤثرة في صناعة السياسات خلال عصر التنوير وبعده. وقد دفع هذا لو بون، في سنة 1895، للتحذير من إمكانية سيطرة الجماهير على المجتمع، مما سيؤول إلى نشوء نوع جديد من الحُكم.(14) لم يخلُ تحذير لو بون من النبوءة، فهذا ما حصل تماماً بعد ثلاثين عاماً مع نشوء الدول التوتاليتارية في القرن العشرين.

***

من أين أتى هذا التنامي الكثيف لظاهرة الجمهرة؟ كان نتيجة منطقية للآثار التي خلّفتها عقلنةُ العالم ومَكننته، كما رأينا في الفصول السابقة. فقد دخل المزيد من الناس في حالة من التشظي الاجتماعي، وحالما تتجاوز أعدادُهم حداً معيناً فإن عملية الجمهرة تبدأ. إن الجمهرة ظاهرة معقدة وديناميكية يمكننا مقارنتها بالطريقة التي تنشأ بها أنماطُ الحمل الحراري في الماء أو الغاز عند تسخينهما. ففي الحالة الأولى، ترتفع الحرارة في جزيئات

الماء الفردية، لكن الجزيئات لا تتحرك آنذاك. ثم تنشأ أنماط صغيرة محلية متحركة سرعان ما تختفي. وبعد ذلك تتشكل أنماطٌ أكبر أكثر استدامة. وأخيراً، نرى أنماطاً تعمل على تحريك معظم الماء بشكل دائم. ومن خلال ذلك، تعمل أنماطُ الحمل الحراري على تغيير سلوك جزيئات الماء الفردية بشكل كامل وتحولها إلى حالة حرَكية جديدة تماماً. وبالطريقة نفسها، تدفع الجمهرة الأفرادَ إلى "حالة حرَكية" سيكولوجية جديدة. وكما الحال في أنماط الحمل الحراري التي تتشكل في الماء والغاز، تكون هذه الأنماط صغيرة وعابرة في بداية الأمر. وفي مرحلة لاحقة، تحرّك "كتلاً" اجتماعية أكبر على مدى فترة زمنية أطول. كانت أنماط الجمهرة في القرون الوسطى محلية ومؤقتة في معظم الأحيان؛ أما أنماط الجمهرة المتولدة عن "الثورة الفرنسية" فقد كانت أكبر حجماً وأطول أمداً؛ أما تلك المتخلّقة من الستالينية والنازية فقد كانت أضخمَ وأطول عمراً. مع نشوء أزمة كورونا، وصلنا – للمرة الأولى في التاريخ – إلى مرحلة وقع فيها سكانُ العالم أجمع في قبضة الجمهرة لفترة زمنية طويلة.

***

هناك أربعة شروط محددة يجب توفرها في المجتمع لتشكل الجمهرة على نطاق واسع. وكانت هذه الشروط موجودة قبيل نشوء النازية والستالينية، وهي متوفرة الآن أيضاً. سبق لي أن أتيث على ذكرها بصفتها نتائجَ للإيديولوجيا الميكانيكية، لكنني سأعود وألخصها أدناه.

***

يتمثل الشرطُ الأول في الانطوائية المعممة، والعزلة الاجتماعية، وغياب الروابط الاجتماعية بين المواطنين. ويتميز عصر التنوير بنشوء هذه الظاهرة، لكن حجمها قد تنامى اليوم إلى درجة دفعت وزير الصحة الأميركي فيفيك ميرثي Vivek Murthy إلى الإشارة إليها باسم "وباء الانطوائية"، كما قامت تيريرزا مي Theresa May في بريطانيا بتعيين وزير للانطوائية.(15) ومن الجدير بالذكر هنا أن الانطوائية مرتبطة بقوة باستخدام وسائط التواصل الاجتماعي وتكنولوجيا الاتصالات.(16) (تذكروا آثارَ المحادثات الرقمية التي تناولتها في الفصل الثالث). وتتبدى هذه المشكلة في أسوأ حالاتها في البلدان الصناعية التي تقع تحت هيمنة الإيديولوجيا الميكانيكية.(17) إذ إن نحو 30 % من سكان

هذه البلدان يبلّغون عن تجاربَ مزمنة في الانطواء والعزلة، وتتنامى هذه النسبة بشكل سنوي. أشير هنا إلى آرندت التي قالت إن هذا الشرط الأول هو الأكثر أهمية: "إن الميزة الرئيسة للإنسان الجماهيري لا تتمثل في الوحشية والتخلف، بل في العزلة والافتقار إلى العلاقات الاجتماعية".(18)

إن هذا التدهور الحاصل في الترابط الاجتماعي يقود إلى الشرط الثاني الذي يتمثل في فقدان معنى الحياة. ويتأتى هذا الشرط الثاني من الشرط الأول. فالإنسان، بصفته كائناً اجتماعياً، يعيش من أجل الآخر. فإن ألغينا هذه الرابطة مع الآخر، فإنه سيجد الحياة وقد تجردت من المعنى (سواء كان يرى هذه الرابطة من خلال عزلته أم لا). فعلى سبيل المثال، قدمتُ في الفصل الثاني توصيفاً للطريقة التي يفرّغ بها التصنيعُ العملَ من معناه، من خلال قطع الرابطة بين الشخص المنتِج والشخص الذي يستهدفه المُنتَج. كما قادت الرؤية الميكانيكية إلى غياب المعنى بطريقة أكثر مباشرة؛ إذ إن آلة الكون، والإنسان–الآلة العالق فيها، تعمل من دون أي هدف أو معنى. فالجزيئات المادية تتفاعل مع بعضها بعضاً تبعاً للقوانين الميكانيكية، لكنها لا تمتلك أي هدف على الإطلاق. وبالتالي فإن رؤية الحياة من خلال هذه العدسات، سواء كان مبرراً أم لا، يجرد الحياة من معناها. وربما تشكل ظاهرة الوظائف الوهمية (راجع الفصل الثاني) المثالَ الأفضل على هذا؛ ففي العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين، قال معظم الناس إن وظائفهم لا تنطوي على أي معنى.(19) كما كشف استفتاء عالمي جرى في سنة 2013 أن 13% من سكان العالم فقط منكبّون على الوظائف التي يشغلونها؛ وأكد 63% منهم أنهم غير مهتمين بوظائفهم (فهم "يؤدون أعمالهم بشكل آلي وربما يكرسون لها بعض الوقت، لكنهم غير متحمسين لهذه الوظائف"؛ بينما فقد 24% منهم اهتمامهم التام، أي أنهم يحبطون معنويات زملائهم ويؤثرون سلباً على أدائهم.(20) وهذا شيء في غاية الأهمية.

أما الشرط الثالث فيتمثل في الانتشار الواسع للقلق العائم والاضطراب السيكولوجي بين الناس. والقلق العائم هو نوع من القلق الذي لا يرتبط بصورة محددة على النقيض من القلق المرتبط بالصور (مثل الخوف من الرعد والأفاعي والحرب). ومن الصعب التعاطي مع هذا النوع من القلق الذي يمكن أن يتحول في أي لحظة إلى نوع من الذعر الذي يمثل أسوأ حالة سيكولوجية بالنسبة إلى الكائنات الإنسانية. ولهذا السبب فإن الشخص الذي يعاني من هذه الحالة يسعى إلى ربط قلقه بموضوع ما. ويمكن أن نعزو القلقَ العائم إلى الشرطين الأوليين.

فالشخص الذي يفقد ارتباطه بالآخر ولا يرى معنى في الأشياء يعاني من خوف وقلق غامضين. وقد كان هذا الشرط حاضراً بقوة في العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين. فعلى سبيل المثال، أكدت منظمة الصحة العالمية أن واحداً من بين كل خمسة أشخاص في العالم يعاني من اضطراب القلق. وهذه الأرقام مخيفة، خاصة لأن الأعداد الحقيقية يمكن أن تكون أكبر بكثير. كما أن الاضطرابات العقلية، بشكل عام – بما في ذلك الحالات التي لا تُشخَّص – أكثر من ذلك بالطبع. ويمكن استنتاج ذلك من الاستهلاك الكبير لمضادات الاكتئاب، من بين أشياء أخرى. ففي بلد صغير مثل بلجيكا، التي لا يتجاوز عدد سكانها 12 مليوناً، يتم استهلاك نحو ثلاثمئة مليون (!) جرعة من مضادات الاكتئاب سنوياً.

ويتخلّق الشرط الرابع، بدوره أيضاً، من الشروط الثلاثة الأولى ويتمثل في الإحباط المقيم والعدائية. إن العلاقة بين العزلة الاجتماعية والتوتر شيء منطقي، إضافة إلى إثباتها بشكل عملي.(21) فالأشخاص الذين يعانون من الانطوائية وغياب المعنى والقلق والخوف الدائمين غالباً ما يشعرون بالتوتر والعصبية و/أو العدائية ويبحثون عن مواضيعَ لتفريغ مشاعرهم فيها. وتقدم الزيادة الحادة في استخدام اللغة العرقية والعدائية في وسائط التواصل الاجتماعي خلال العقد الأخير (حيث تضاعفت ثلاث مرات بين عامَي 2015 و2020 – راجع الفصل الخامس) مثالاً صارخاً. وما يسرّع عملية الجمهرة لا يتمثل في الإحباط والعدوانية اللذين يُعبَّر عنهما بقدرَ ما يتمثل في الأثر الكامن في العدائية المكبوتة التي يحملها الناس؛ العدائية التي لا تزال تبحث عن موضوع يحرض خروجها إلى العلن.

***

كيف تقود هذه الشروط إلى الجمهرة؟ إن المحفِّزَ على الجمهرة هو اقتراحٌ في الفضاء العام.(22) ففي ظل الظروف المذكورة آنفاً، إذا انتشرت قصة موحية عبر وسائل الإعلام الجماهيرية تدلّ على موضوع يثير القلق – مثل الأرستقراطية في ظل الستالينية؛ أو اليهود في ظل النازية؛ أو الفيروس، ولاحقاً المعارضين للقاحات أثناء أزمة كورونا – وتقدم في الوقت نفسه استراتيجية للتعامل مع موضوع القلق هذا، فمن الممكن أن يتماهى القلق العائم السائد مع ذلك الموضوع ويولّد دعماً اجتماعياً واسعاً لتطبيق تلك الاستراتيجية للسيطرة على موضوع القلق ذاك.

تولّد هذه العملية ربحاً سيكولوجياً. أولاً، يرتبط الآن القلقُ العائم في المجتمع كضبابٍ داكن مع سبب محدد ويمكن السيطرة عليه ذهنياً من خلال الاستراتيجية المقترحة في

القصة. ثانياً، من خلال الصراع المشترك مع "العدو"، يستعيد المجتمعُ المتفكك تماسكَه وطاقتَه ومعناه الأولي. ولهذا السبب، يصبح الصراع ضد موضوع القلق رسالة تتميز بالزخم الشعوري والبطولة الجماعية (مثل "فريق 11 مليون" الذي شكلته الحكومة البلجيكية لمحاربة فيروس كورونا). ثالثاً، تخرج في هذا النزاع جميع مشاعر الإحباط والعدائية الكامنة، وخاصة ضد المجموعة الرافضة لتبنّي هذه القصة وعملية الجمهرة. إذ يولّد هذا في الجماهير شعوراً عارماً بالارتياح والرضا لن تقبل التخلي عنه بسهولة.

من خلال هذه العملية، يتحول الفردُ من حالة سيكولوجية مؤلمة وبغيضة من العزلة الاجتماعية إلى الترابط الأقصى الذي ينتشر بين الجماهير. ويولّد هذا نوعاً من النشوة التي تشكل الدافعَ الحقيقي لاعتناق السردية التي تساهم في الجمهرة. ففي عمليات الجمهرة المديدة التي قادت إلى نشوء الدول التوتاليتارية، كانت هذه النشوة كامنة في معظم الأحيان، لكنها كانت تتجسد بشكل واضح في بعض المناسبات. فكروا، مثلاً، في حشد يغني أو يردد الشعارات في ملعب لكرة القدم. يذوب صوتُ الفرد في صوت الجماعة الهادر مما يولد شعوراً عند الفرد بدعمٍ يتأتى من الحشد يجعله "يَرِثُ" طاقته الحيوية الهائلة. لا يهم نوع الأغاني وطبيعتها؛ فالمهم في الأمر هو الأداء الجماعي لهذه الأغاني. وهناك مكافئ لهذه الظاهرة على المستوى المعرفي؛ فالأهمية لا تكمن فيما يفكر فيه الفرد، بل في حقيقة استحواذه على التفكير الجماعي. وبهذه الطريقة، تتقبّل الجماهيرُ أكثرَ الأفكار عبثيةً بصفتها حقيقة أو – على الأقل – تتصرف كأنها حقيقة راسخة.

***

يتمثل جوهرُ الجمهرة في الانتقال المفاجئ الذي يحصل في مجتمع مشبع بالفردانية والعقلانية إلى الحالة المغايرة تماماً؛ أي إلى حالة جَمعية لاعقلانية. ومن المنظور النيتشويّ–الكلاسيكي، يقوم ديونيسيوس Dionysus بإسقاط دكتاتورية أبولو Apollo بضربة واحدة ويمسك بزمام السلطة في المجتمع. ويبدو هذا جلياً أيضاً فيما يلي: في جميع عمليات الجمهرة الضخمة، يستند السببُ الرئيسُ للانصهار في الجمهرة المتشكلة على فكرة التضامن مع الجماعة. ويُتَّهَم كلّ من يرفض المشاركة بأنه يفتقد إلى حس التضامن والمسؤولية المدنية. وهذا أحد الأسباب التي تقوّض أهمية العناصر العبثية المكونة للقصة بالنسبة إلى الجماهير؛ فالجماهير لا تؤمن بالقصة لأنها دقيقة، بل لأنها تخلق رابطة اجتماعية جديدة.

إن استراتيجية التعاطي مع موضوع القلق تؤدي الغرضَ الذي يحققه الطقس. إذ يتمثل هدف السلوكيات الطقسية في تخليق اللحمة الجماعية. فهو سلوك رمزي يهدف إلى إخضاع الفرد للمجموعة. ولذلك، يجب ألّا ينطوي على أية فائدة عملية، كما يجب أن يتطلبَ التضحية من قبل الفرد. فكروا في التضحيات الطقسية للأطعمة والحيوانات والبشر في المجتمعات البدائية. ولهذا السبب بالذات لا تلاقي عبثية إجراءات كورونا أي مقاومة من جزء كبير من المواطنين. فكلما كانت الإجراءاتُ عبثية وصارمة، كانت قادرة على تحقيق وظيفة الطقس وتمسك بها جزء معين من الناس بحماسة كبيرة. فكروا، على سبيل المثال، في بعض الأشخاص الذين يرتدون الكمامات أثناء قيادتهم لسياراتهم، حتى عندما لا يكون هناك ركّابٌ آخرون.

إن الوظيفة الطقسية للسلوك الجماهيري حاضرة دوماً. وقد أدرك ذلك خبراءُ أزمة كورونا. فقد أفلتت منهم عبارات، في بعض الأحيان، تشي بأن الإجراءات القسرية المطبقة لا تنطوي على أية فائدة عملية. ففي آذار/ مارس 2020، صرّح أحد علماء الفيروسات على التلفاز الوطني البلجيكي أن عمليات الإغلاق لن تقللَ من عدد الوفيات؛(23) وفي آب/ أغسطس 2020، نوّه خبيرٌ في الفيروسات أن أقنعة الوجه تتمتع بوظيفة رمزية؛(24) وفي تشرين الأول/ أكتوبر 2020، قال وزير الصحة البلجيكي الشيءَ نفسه حول إغلاق البارات والمطاعم (في إشارة ضمنية إلى فقدان الكثير من الأشخاص لسُبُل عيشهم نتيجة لأسبابٍ رمزية).(25) والرسالة هنا واضحة؛ على الفرد أن يبرهنَ دوماً على استعداده للتضحية من أجل المصلحة الجمعية، وذلك من خلال سلوكياتٍ (طقسيّة) رمزية تنطوي على نوع من تدمير الذات.

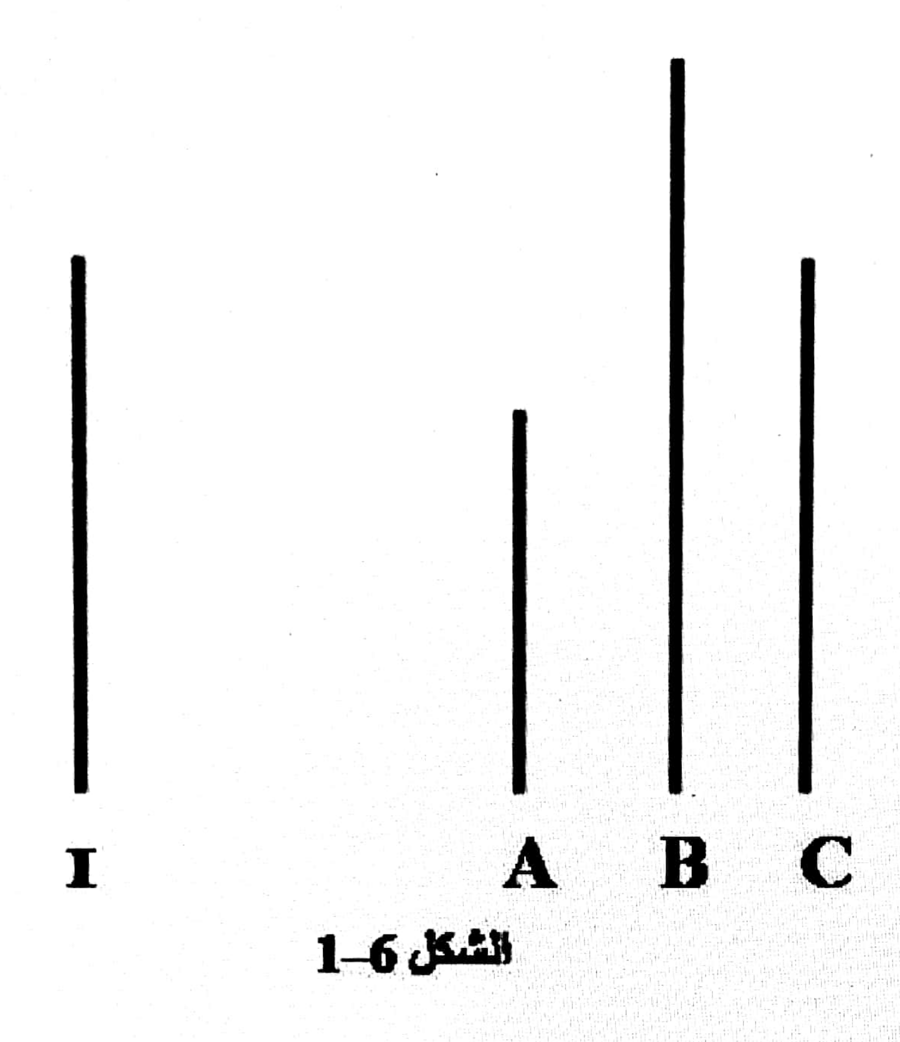
نادراً ما تكون الأسبابُ التي تدفع الأفرادَ إلى المشاركة في عملية الجمهرة عقلانية في طبيعتها. إذ يقوم الخبراءُ المشهورون بالترويج لاستراتيجية معينة على شاشات التلفاز بطريقة تجعل تطبيق إجراءات معينة أمراً مقبولاً. وبالنسبة إلى الكثير من الناس، فإن ذلك يكفي كبرهانٍ على صحة هذه الإجراءات: "من المؤكد أن الخبراء يعرفون ما يفعلون"، "لا يمكن أن يكونوا كلهم على خطأ"، "لن يقولوا شيئاً كهذا إن لم يكن صحيحاً"، وهكذا دواليك. وبكلمات أخرى، إن الخطابَ الموجه إلى الشعب والخطابَ الموجه إلى السلطة، واللذين يُعتبران بمثابة مغالطاتٍ منطقية منذ القدم، كافيان لتقبّل بعض الأشخاص للقصة المقدمة لهم. ففي كل شيء، تشعر أن الدافع الرئيسَ وراء تقبّل القصص يكمن في التشكل الجمعي

والضغط الجماعي، وليس في دقة القصة أو صحتها.

***

تكشف تجربة التماثل المعروفة لسولومون آش Solomon Asch بطريقة مقنعة عن الأثر الهائل الذي تخلفه الجمهرة على المحاكمة الفردية.(26) أجرى آش تجربته بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير. وقد فعل ذلك في محاولة لفهم أسباب التأثير القوي لنظريات النازية والستالينية العبثية على الناس، كما سعى إلى فهم الغموض السيكولوجي للجمهرة والتوتاليتارية.

تمعنوا في الشكل 6-1. أيٌ من الخطوط الثلاثة A, B, C يتساوى في الطول مع الخط 1؟ هذا هو السؤال الذي طرحه آش على المشاركين في تجربة التماثل التي أجراها. تضمنت كلّ مجموعة من ثمانية أشخاص سبعة من موظفي آش تم توجيههم للإجابة بـ"الخط B" دون أن يرف لهم جفن. أعطى المشارك الثامن، الوحيد في المجموعة الذي يشكل موضوعَ الاختبار، الإجابة نفسها التي طلع بها الأشخاص السبعة الآخرون قبله. فقط 25% من المشاركين حددوا الخط الصحيح الذي يمكن للأعمى أن يراه: الخط C، وليس الخط B، هو المساوي في الطول للخط 1. وبعد التجربة، قال بعض الأشخاص المختبَرين إنهم كانوا يعرفون الإجابة الصحيحة لكنهم لم يتجرؤوا على مخالفة المجموعة. كما اعترف آخرون أنهم بدؤوا يشكون في محاكمتهم تحت ضغط المجموعة وتقبلوا، في نهاية الأمر، صحة المحاكمة الجماعية العبثية.



الشكل 6-1

إن هذه المجموعات الثلاث حاضرة دوماً في عملية الجمهرة. هناك دوماً مجموعة مستلبة للجمهرة و"تصدّق" القصة (تشكل هذه المجموعة ذلك الجزء من المواطنين الذي يقع فريسة النظام التوتاليتاري)، ومجموعة ثانية لا تصدّقها لكنها تلوذ بالصمت وتتماشى مع الجماهير (أو لا تعارضها، على الأقل)، ومجموعة ثالثة لا تصدق القصة المصممة لتخليق الجمهرة وتعارضها أيضاً. وتتقاطع هذه المجموعات الثلاث مع جميع المجموعات الاجتماعية الموجودة سلفاً. يتجلّى ذلك، بشكل متكرر، في الأمثلة التاريخية على عمليات الجمهرة الضخمة(27) كما توضّح أيضاً خلال أزمة كورونا. ففي بداية الأزمة، نشأت "معسكرات" مجتمعية جديدة بسرعة البرق تتقاطع مع جميع المعسكرات الموجودة سلفاً – تقبّل الناس قصة الفيروس أو رفضوها. حدث ذلك بغض النظر عن الميول السياسية اليسارية أو اليمينية، ولون البشرة والمكانة الاجتماعية، والمهنة والهوايات؛ فقد تلاشت جميع هذه الحدود الفاصلة. وبقي الشيء الأهم المتمثل في الرأي الذي يحمله الناس عن الفيروس.

عادة ما تكون هذه المجموعات الثلاث متنوّعة، ولكن لأسباب معينة يظهر هذا التنوع في أوضح أشكاله في المجموعة التي تعبر عن احتجاجها الصارخ على الجماهير. أما في الكتلة الجماهيرية نفسها، فإن هذا التنوع يختفي تحت أثر التماثل الذي تولده الجماهير (الجماهير

تحيل جميع الأفراد إلى أشخاص متساوين) ولا تبرز المجموعة الوسطى الصامتة، بينما تكتسب المجموعة الثالثة، التي لا تخضع للتماثل، حيويتها وزخمها، حيث يقوم جميع أفرادها بالتعبير عن آرائهم بطرق مختلفة مما يؤكد التنوع الذي تتميز به.

***

كما أشار لو بون في سنة 1895، إن أثرَ الجمهرة مماثلٌ للتنويم المغناطيسي.(28) فالتنويم والجمهرة يتأتيان بشكل كبير عن صوت، بالمعنى الحرفي للكلمة؛ أي من خلال الخصائص الفيزيولوجية والاهتزازية للصوت. يعرف الزعماء التوتاليتاريون هذا جيداً، أحياناً بشكل حدسي، وبشكل واعٍ في أحيان أخرى. إذ طالما تم ترسيخ الأنظمة التوتاليتارية من خلال التلقين العقائدي والدعاية المنهجيين، فيُحقَن المواطنون بهما يومياً عبر وسائل الإعلام الجماهيرية (فمن دون وسائل الإعلام الجماهيرية، من غير الممكن توليد الجمهرة لأمدٍ طويل كتلك التي ساهمت في صعود الستالينية والنازية). وبهذه الطريقة، يتم توليف الشعب على التردد الاهتزازي لصوت الزعماء التوتاليتاريين.

من جهة، يتم تعريض الشعب بشكل منهجي لصوت الزعماء التوتاليتاريين. ومن جهة أخرى، يتم إخماد جميع الأصوات البديلة. فأول ما يفعله الزعماء التوتاليتاريون هو التأكد من أن أصواتهم هي الوحيدة الباقية. وهذا ما يفعله المستبدون الكلاسيكيون، إلى درجة معينة، لكنهم يحصرون احتكارَ الصوت في الفضاء العام. فهم يعملون على تهميش المعارضة السياسية وإسكاتها. لكن الأنظمة التوتاليتارية تعمل بطريقة أكثر توتاليتارية. إذ تقمع الأصواتَ البديلة في الفضاء الخاص أيضاً. فمن جهة، يحدث هذا "بشكل عفوي" نتيجة عقلية الوشاية الارتيابية التي ترافق عملية الجمهرة (التي تمثل، في حقيقة الأمر، نتيجة لرفض الآراء البديلة، والتي سنتناولها لاحقاً). ومن جهة ثانية، تعمل التوتاليتارية أيضاً على إفراغ الفضاء الخاص من الأصوات البديلة من خلال تعميق التشظي الاجتماعي والانطوائية. فالأنظمة التوتاليتارية تحرص على عدم تجمّع الناس في مجموعات كبيرة، كما أنها تسعى إلى قطع الروابط الاجتماعية والعائلية واستبدالها بالرابطة الوحيدة المسموحة؛ أي، الرابطة بين الفرد والنظام التوتاليتاري (أي، المجموع العام). ففي الاتحاد السوفياتي، تم تطبيق هذه العملية بطريقة أكثر منهجيةً من ألمانيا النازية؛ ولهذا السبب بقي النظام التوتاليتاري لفترة أطول في الاتحاد السوفياتي.(29)

بالعودة إلى الشبه بين التنويم والجمهرة؛ في كلتا الحالتين، تركز عبارة إيحائية أو قصة

موحية (يصدرها صوت) على جانب محدد من الواقع. قارنوا ذلك مع دائرة الضوء التي يولدها المصباح وتتركز في بقعة معينة مما يجعل كل شيء خارج الدائرة يختفي في الظلام (انظر الشكل 6-2). فبالإضافة إلى الوظيفة الطقسية للسلوك الجماهيري، يشكل تضييق حقل الانتباه هذا عاملاً يضمن وصولَ هذا المنطق إلى نتائجَ عبثية.



الشكل ٦-٢

فعلى سبيل المثال، رأينا خلال أزمة كورونا تضييقاً لحقل الانتباه بالطريقة التالية: الأشخاص الذين يقعون ضحية الإجراءات المتبعة - مثل الوفيات الناجمة عن الإهمال العاطفي والجسدي خلال الإغلاق في دور الرعاية، والمرضى الذين يتم تأجيل علاجهم، وضحايا العنف المنزلي، والأشخاص الذين يعانون من الأعراض الجانبية للقاحات، إلخ - لا يتلقون الاهتمامَ الكافي مقارنة مع ضحايا كوفيد-19، أو لا يُبَتّ في أمرهم بطريقة جدية وحاسمة. إضافة إلى ذلك، ربما يتم ذكر الضرر المتلازم الذي يصيب الضحايا بشكل عابر، ولكن نادراً ما يتم تقديمه بطريقة رقمية-بصرية.

إن هذا في غاية الأهمية؛ فكما ذكرت في الفصل الرابع، يتم التعاطي مع الأرقام والجداول (بشكل خاطئ) بصفتها حقائق. ولذلك فإن عملية الجمهرة السيكولوجية تحرص على قيام وسائل الإعلام الجماهيرية – بشكل شبه حدسي – بتعزيز عملية الجمهرة من خلال حصر تقديم الرسومات البيانية التصويرية بالمعلومات التي تدعم القصة فقط.

يمتد تضييق حقل الانتباه أيضاً إلى الحقل العاطفي؛ لا يتلقى ضحايا الإجراءات الوبائية المطبقة أي نوع من التماهي. ففيما يخص هؤلاء الضحايا، ليس هناك أية إحصائيات يومية، أو توصيفات لحالاتهم المرضية، أو تغطية إعلامية لشهادات ذويهم. أضف إلى هذا التصريح الذي طلع به أحد خبراء الفيروسات والذي يفيد بأنّ الصبي الذي مات نتيجة ما يسمى بحفلة الإغلاق لا يستحق "أي نوع من الشفقة".(30) إن هؤلاء الضحايا يقعون خارج دائرة الضوء من الناحيتين المعرفية والعاطفية.

يجب تفادي الخلط بين هذا البرود العاطفي تجاه المعاناة التي تقع خارج دائرة الاهتمام والأنويّة العادية. فقد أشار لو بون إلى أن التنويم والجمهرة يمكّنان الأفرادَ من تجاهل مصالحهم الشخصية، وصولاً إلى آلامهم.(31) فالقصة التنويمية تركز الانتباهَ على جانب صغير من الواقع إلى درجة أن كل ما يقع خارج هذه المساحة الضيقة – بما في ذلك الآلام الشخصية والمصالح الذاتية – يلاقي الإهمالَ التام. فمن خلال إجراء تنويمي بسيط، يمكن تخدير المرضى إلى درجة الخضوع لعمليات جراحية من دون أي ألم (راجع الفصل العاشر). وبالطريقة نفسها تقبّل قسم كبير من الناس، خلال أزمة كورونا، بسهولة بالغة، إجراءاتٍ أتت على متعهم الحياتية وحرياتهم وازدهارهم.

أذهلت هذه الملاحظة مؤرخي التوتاليتارية في القرن العشرين: التقبّل اللامتناهي للضرر الشخصي الهائل الذي حلّ بالناس. فعلى سبيل المثال، كان الألمان الذين وقعوا تحت وطأة التوتاليتارية ممتنّين لهتلر لرسمه خطة بديلة في حال فشل "مهمتهم العظيمة": الموت النبيل – حجرة الغاز – لكل مواطنٍ ألماني.(32)

لا تتمتع ظاهرة الجمهرة بتأثير قوي فقط على المستوى المعرفي والعاطفي، لكنها تترك أثرَها أحياناً على الإدراك الحسيّ. ففي بعض الظروف، تحدث الهلوسات الجماعية تحت تأثير الجمهرة، وهي ظاهرة عصية على الفهم في علم النفس الحديث. وخير مثال تاريخي معروف على ذلك هو ظهورُ القديس غريغوري Saint Gregory على أسوار القدس، والذي

شهده جيش كامل من المقاتلين الصليبيين.(33) وهناك مثال آخر من العصر الحديث يتمثل في رؤية طاقم بحري كامل لغرق طوافة مليئة بالأشخاص في وضح النهار ووصف أفراد الطاقم للمشهد بالطريقة نفسها وبقدر كبير من التفاصيل. وبعد التدقيق، تبيّن أن الأمر لا يعدو بضعة أغصان علقت بها الأعشابُ البحرية.(34) إن تأثير الجمهرة على أداء البشر العقلي هائل جداً. فهي تؤثر على علاقة الفرد بالواقع إلى درجة يحق لنا معها أن نتساءل: بالنسبة إلى فردٍ أسير للجمهرة، هل يبقى هناك أي واقعٍ باستثناء ذاك الذي تخلقه الجماهير؟

***

علينا أن نضيفَ ميزة مهمة أخرى على الخصائص السيكولوجية الإشكالية للجمهرة وهي الرفض القاطع للآراء الأخرى والنزعة التوتاليتارية القوية. فبالنسبة إلى الجماهير، تبدو الأصوات المعارضة 1) مناوئة للمجتمع وتفتقر إلى الحس التضامني، لأنها ترفض المشاركة في التضامن الذي تولّده عملية الجمهرة؛ 2) واهية تماماً، لأن الآراء النقدية لا تستمدّ أيّ وزن معرفي أو عاطفي من دائرة الانتباه الضيقة للجماهير؛ 3) بغيضة إلى حدّ كبير، لأنها تهدد بتقويض النشوة وتواجه الجماهير، بهذه الطريقة، بالوضع السلبي الذي سبق عملية الجمهرة (غياب الرابطة الاجتماعية والمعنى، والخوف والقلق الغامضين)؛ 4) محبطة للغاية، لأنها تهدد تجسّدَ العدائية الكامنة.

يضمن هذا الرفض القاطع اقتناعَ الجماهير بنواياها الأخلاقية المتفوقة ودونيّة أي شيء أو أحد يحاول مقاومتها؛ فكل من يرفض المشاركة هو خائنٌ للجماعة. ولذلك تنتشر الوشاية على نطاق واسع ويصبح الناس الفرع الرئيس للشرطة السرية.(35) وبالإضافة إلى العامل الرابع، المتمثل في الفرصة التي تقدمها الجمهرة للتعبير عن الإحباط والغضب الجامحين، فإن هذا يولد ظاهرة معروفة وهي أن الجماهير ميالة إلى التعامل بوحشية مع من يقاومها وكأن ذلك واجبها الأخلاقي المقدس. تشمل الأمثلة التاريخية: "إنها مشيئة الله" (Deus lo volt) و"إنّ الله معنا"(Got mi tuns) اللتين استند إليهما الصليبيون والنازيون، تباعاً، في ارتكاب جرائمهم الوحشية؛ والاعتقادَ البلشفي بتطبيق العدالة من خلال ذبح عائلة رومانوف Romanovs وأعداء البروليتاريا الآخرين؛ والجزارَ الذي قطع، خلال "الثورة الفرنسية"، عنق مدير سجن الباستيل الأعزل (والبريء) بسكين ثم طالب بميدالية مكافأة على فعلته؛(36) وسبتمبريّي "الثورة الفرنسية" الذين حرصوا على مشاهدة جميع المواطنين لعمليات إعدام رجال الدين والنبلاء.(37)

تبعاً للو بون، يشكل الاستبداد والتعصب خاصيتين أساسيتين من خصائص الجمهرة. (38) ونرى أيضاً تنامياً لخاصية الجمهرة هذه في مجتمع كورونا. فمع تطور الأزمة، يفرض الخطابُ السائد نفسَه بطريقة استبدادية متزايدة ويعمل على قمع الأصوات البديلة بطريقة أكثر شراسة. إذ تُحجَب المنشورات التي لا تتماشى مع السردية السائدة على وسائط التواصل الاجتماعي، حتى لو كانت منشورة في المجلات العلمية الأكثر صدقيةً وشهرةً مثل *The Lancet*؛ ويتعرض الأطباء والباحثون الذين ينتقدون إجراءات كورونا للفصل من وظائفهم من المؤسسات والمعاهد حيث يعملون؛ وفي مطلع سنة 2021، أصدرت جمعية الأطباء البلجيكية قراراً يقضي بحظر أي طبيب يلقي بظلال الشك على فعالية اللقاح وسلامته؛ ومنذ تشرين الثاني/ نوفمبر 2021، لم يعد يُسمح لأحد بدخول المطاعم والبارات وعدد من الأماكن العامة الأخرى من دون شيفرة الاستجابة السريعة، إلخ. هذا هو الفرق بين تضامن الجماهير والترابط القائم على الحب؛ فالأول يحصل دوماً على حساب مجموعة معينة، على النقيض من النوع الثاني.

الفصل السابع

قادة الجماهير

في الفصل السابق، قدمتُ توصيفاً للجمهرة - التي تشكل الأساس السيكولوجي للتوتاليتارية - بصفتها نوعاً من التنويم. ولكن هناك فرق مهم بين الجمهرة والتنويم الكلاسيكي. ففي التنويم المغناطيسي الكلاسيكي، يقتصر التضييق على حقل وعي الشخص المُنَوَّم بينما يكون الشخص الذي يقدم القصة المنومة (المنوِّم المغناطيسي) "يقظاً". أما في عملية الجمهرة، فإن الشخص الذي يقدم القصة يكون واقعاً تحت هيمنة القصة أيضاً.(1) وفي حقيقة الأمر، غالباً ما يكون حقلُ انتباه هذا الشخص أضيقَ من حقل الجماهير. وسبب ذلك واضح؛ فالقائد يؤمن إيماناً راسخاً بالأساس الإيديولوجي للسردية (وليس بالسردية نفسها) التي تتحكم بالجماهير.

بالنسبة إلى القادة، تعمل الجمهرة على تخليق موقفين متناقضين: إما أن يثقَ المرءُ بالقادة بشكل أعمى (ويذوب في الجماهير)، وإما لا يثق بهم أبداً ويرى فيهم أشخاصاً يحملون خطة شريرة عن دراية تامة (أي، متآمرين). وبمعنى محدد، ينبَني كلٌّ من هذين المنظورين المتطرفين على سوء فهم متشابه؛ إذ يسبغان على القادة، بشكل مغلوط، نوعاً من المعرفة (والسلطة) المطلقة، فينطلق الموقف الأول من فهم إيجابي، فيما يتأسس الموقف الثاني على رؤية سلبية.

تتمثل المفاهيمُ المغلوطة الأخرى في أن القادة مدفوعون بالمال (أي أنهم "يتبعون المال" و"المنفعة الذاتية") أو بالمتع السادية (أي أنهم يتمتعون بشخصية مريضة نفسياً أو منحرفة). كما أن الأبحاث التاريخية لا تؤكد مثل هذه المقولات. دعونا نقدم مثالاً واحداً: كان رئيسُ الحزب النازي يرفض الكسبَ غيرَ المشروع، وكان الحزب يرفض تجنيدَ الشخصيات التي تتمتع بميول منحرفة أو أمراض نفسية.(2) فعلى النقيض من المجرم "الكلاسيكي" الذي يجد متعة داخلية في انتهاك القوانين الاجتماعية، تكمن العقلية التوتاليتارية - في هذه الحالة - أكثرَ في التمسك الأعمى بنظامٍ من القوانين الاجتماعية التوتاليتارية، حتى عندما يتجرد هذا النظام من الإنسانية ويتجاوز جميعَ الحدود الأخلاقية. ومن هنا جاءت عبارة حنة آرندت أن التوتاليتارية هي تعبيرٌ حقيقي عن "تفاهة الشر"؛ فالتوتاليتارية لا تتعلق بالأشخاص الأشرار، وإنما بأشخاص عاديين يعتنقون فكراً أو

"منطقاً" سقيماً ومجرداً من الإنسانية.(3)

في المرحلة الأولية من عملية التشكل التوتاليتاري، يهيمن هذا المنطق على الناس أولاً. إذ تتشرب الجماهير (أو شريحة كبيرة من الناس، على الأقل) قناعاتٍ إيديولوجية معينة لا يمكن تمييزها، بالنسبة إليهم، عن الواقع. ويقدّم نشوءُ القومية السلافية والقومية الجرمانية في روسيا وألمانيا في مطلع القرن العشرين مثالين نموذجيين. فقد اقتنع الألمانُ أنهم متفوقون، من الناحية العرقية، على الآخرين وأن وصمَ البولنديين واليهود وقمعهم، من بين مجموعات أخرى، يجد تبريرَه المنطقي في "الحقائق". نشهد شيئاً مشابهاً يحدث خلال أزمة كورونا، إذ تتشكل قناعة راسخة عند شريحة معينة من الناس أن الحقائقَ تبرّر التمييزَ الاجتماعي ضد الأشخاص الذين يرفضون اللقاحات. فالأرقام تبيّن أنهم ينشرون الفيروس، أليس كذلك؟

تساهم هذه الآليات، تدريجياً، في نشوء الأحزاب التوتاليتارية والقادة التوتاليتاريين الذين يعملون على مأسَسة هذا المنطق وفرضه على المجتمع. ويحدث هذا، عادة، بطريقة متعصبة وعمياء ووحشية. كان هتلر يعتقد أن قوتّه مستمدّة من قدرته على "التفكير العقلاني البارد"، وكان ستالين يؤمن أن سرَّ نجاحه يكمن في "الديالكتيك الوحشي" الذي يتمتع به.(4) وبالتالي، تعرّضت الأعراقُ "غير الجديرة بالحياة" و"الطبقات المتهاوية" - استناداً إلى هذا التبرير المنطقي - للاستئصال الاجتماعي بدقة جراحية عالية. ولهذا السبب، لا تتمثل سماتُ قادة الجماهير في الجشع أو السادية، بل في الدوافع الإيديولوجية السقيمة: يجب تكييفُ الواقع مع السرد التخييلي الإيديولوجي.

تقود هذه الدوافع إلى العمى العقلي والعاطفي الذي يمكن أن يصل إلى درجة مذهلة. ويتجلى هذا في الطريقة المذهلة التي قدم بها القائد النازي أدولف آيخمان Adolf Eichmann شهادتّه أثناء محاكمته في القدس حول تنظيم ترحيل اليهود إلى معسكرات الاعتقال. فخلال هذه المحاكمة، كان لا يزال يؤمن أنه كان يقدم أفضل ما يمكنه للجميع ووصف، بشيء من الفخر، كيف قام بتشجيع اليهود للمشاركة في "مشروعه". ففي المدن الأوروبية المحتلة، على سبيل المثال، شجّع على تأسيس الهيئات اليهودية المكونة من اليهود الذين يتبوّؤون مناصبَ اجتماعية مهمة في مجتمعاتهم. كان آيخمان يعتقد أنه من الطبيعي للضحايا - المصنّفين، تبعاً للعقيدة النازية، كأشخاص غير جديرين بالحياة - أن يساهموا في التدابير العملية المصممة لإبادتهم. وقد وصف آيخمان موقفَه، أثناء المحاكمة،

بالطريقة التالية:

تُرك للهيئة اليهودية تحديد أعضائها، وتنظيم هرميّتها الخاصة، وتوزيع المهمّات المنوطة بها. كنا نمسك بزمام الأمور، بالطبع. ولكن كما قلت، لم نعاملهم بطريقة دكتاتورية، إذ كنا نتعامل بطرية حذرة ومدروسة مع المسؤولين الذين نتعاطى معهم بشكل منتظم؛ ولذلك، لم نكن نتدخل كثيراً في شؤونهم لسبب بسيط هو أن التعاطي السلطوي مع أولئك المسؤولين الكبار لن يحقق الغرضَ المرجو؛ فإن لم يرغب المعنيون في التعاون فإن العملية كلها ستؤول إلى الفشل، ولذلك فعلنا كل ما بوسعنا لترغيبهم في التعاون معنا.(5)

كان النازيون مقتنعين تماماً بنواياهم الطيبة؛ والاعتراف بهذا علامة على النضج وشرط أساسي للإفادة من التاريخ. ولكن يجب عدم تأويل ذلك كنوع من التبرير للجرائم التي اقترفوها. فربما لا يعي الإنسانُ الواقع في أتون الجمهرة ما يفعله، لكن هذا لا يعني تبرئته بهذه البساطة. ففي حالة الجمهرة أو التنويم المغناطيسي، يحتفظ الأشخاصُ بالقدرة على الخيارات الأخلاقية. فمن المعروف أن الأشخاصَ المنوّمين يمكن أن يفعلوا أشياءَ يخجلون منها في الأحوال العادية (كخلع الملابس، أو الرقص بطريقة مضحكة) أو يقومون بمهام جسدية يعجزون عنها في الحالات العادية (مثل الاستلقاء كلوح خشبي بين كرسيّين، على سبيل المثال)، ولكن من الصعب إقناعهم بتجاوز الحدود الأخلاقية التي يحترمونها في حالة "اليقظة".

إن الغُفليّة (anonymity) التي تقدمها الجماهير – حيث يختفي الفردُ في الحشد ويشعر أنه غيرُ مرئي – لا تتجاوز كونَها ذريعة وغطاءً لإطلاق العنان للرغبات الجامحة. فكل من يرتكب الجرائمَ في الحشد يبرهن، بالدرجة الأولى، أنه يتحكم بنفسه في الظروف العادية لأسباب تكتيكية وليس لمبررات أخلاقية. إذ إن تفسيرَ التجاوزات الأخلاقية للجماهير لا يعني أن الجمهرة تودي بالوعي الأخلاقي الموجود في الحالة العادية،(6) بل يعني أنها تعطل بشكل مؤقت عملية إخفاء غياب هذا الوعي. وبهذه الطريقة، تكشف الجماهيرُ عن الأبعاد الأخلاقية الحقيقية للإنسان.

لم يكن آيخمان النازيَّ الوحيد الذي يؤمن بـ"لطفه" الإيديولوجي الاستثنائي. إذ شهد على هذا الخطابَ النازي حول معسكرات الاعتقال. فقد كانوا يطلقون على الموت في حجر الغاز اسمَ "الموت الرحيم" (أي أنه الحل الأقل إيلاماً للأشخاص الذين يعتقدون أن الموت أفضل لهم من الحياة). وكان الفوهرر يفكر بذلك النوع من الموت للشعب الألماني برمته في حال

خسارة ألمانيا للحرب؛ فقد وعد بشرفه أنه وضع جانباً كمية كافية من الغاز في حال حدوث هذا السيناريو. وحتى في محاكمات نورنبرغ، تحدث القادة النازيون بطريقة طبيعية عن هذا الموت بصفته "عملاً طبياً" وتدخلاً علاجياً دقيقاً لخلق مجتمع "صحيّ".

تشير آرندت إلى وجود شيء أكثر تميزاً من طلب التعاون الذي تقدّم به آيخمان إلى اليهود؛ وهو أنه حصل على ذلك التعاون. تكتب آرندت:

أبلغ آيخمان، أو رجاله، هيئات حكماء اليهود بعدد اليهود الذين يتسع لهم كل قطار، ووضعوا لوائحَ بأسماء المرحّلين. وقام اليهودُ بتسجيل أسمائهم، وأجابوا على استبيانات كثيرة حول ممتلكاتهم لكي يضع النازيون يدهم عليها بسهولة أكبر. ومن ثم، وفي الأوقات المحددة، تجمّعوا في نقاط الالتقاء وصعدوا إلى القطارات. أما القلائل الذين حاولوا الاختباء أو الهرب فقد أُلقيَ القبض عليهم من قوات الشرطة اليهودية الخاصة. وتبعاً لشهادة آيخمان، لم يعترض أحد، ولم يرفض أحد التعاون، وأنه بفضل 'التعاون العام' سار كل شيء على ما يرام. كانوا كلهم يعرفون ما يحدث.(7)

تعاونت الهيئاتُ اليهودية مع آيخمان في تنفيذ "مشروعه" إلى أن "تم ترحيلهم هم أيضاً 'فقط' إلى ثيرسينستات أو بيرغن-بيلسن، إن كانوا من أوروبا الوسطى أو الغربية، وإلى أوشفيتز في حال كانوا من البلدان الأوروبية الشرقية".(8) كانت هناك، في بعض الأحيان، مقاومة بطولية، ومن المؤكد أن الطريقة الوحشية التي قُمعَت بها لعبت دوراً كبيراً في منعها. فكروا في 425 شاباً ألمانياً يهودياً قاوموا مجموعة من الشرطة الألمانية ثم تعرضوا للتعذيب لأشهر في بوكنوولد حتى الموت.(9) ومع ذلك، يجب ألا نتجاهلَ التعاون المتكرر للضحايا مع خطط النازيين من منظور سيكولوجي؛ إذ يبدو أنّ معظمهم كانوا أسرى عملية الجمهرة.

لم يكن اليهودُ استثناءً في هذا المجال. فقد بقي الكثير من الألمان موالين لهتلر حتى عندما طالتهم عملياتُ التطهير؛ إذ كانت الخطة تقتضي، على سبيل المثال، تصفية الألمان الذين يعانون من مشاكلَ في القلب والرئتين، وكذلك أولئك الذين يعانون من مشاكلَ صحية أخرى، وهي خطط لم تُنفَّذ نتيجة مسار الحرب. وفي الاتحاد السوفياتي أيضاً، انتظر الكثير من الأشخاص دورَهم للترحيل إلى "الغولاغ" (اقرؤوا *The Gulag Archipelago* [أرخبيل الغولاغ] لألكساندر سولجنتسن (Aleksander Solzhenitsyn).(10) لقد استمعتْ

بنفسي لامرأة نشأت في الاتحاد السوفياتي وفقدت أباها وعمّها في معسكرات الاعتقال، لكنها قالت بنوع من اللامبالاة إن النظام "كانت له إيجابيّاته وسلبياته". إن عملية الجمهرة تبتلع الضحايا والمجرمين معاً.

تتوضح حقيقة وقوع القادة التوتاليتاريين في براثن التنويم المغناطيسي من خلال التفاعل السيكولوجي مع الابتعاد عن الحشود. فعندما نُقلّ بعض القادة النازيين لفترات طويلة إلى بلدان لم تتأثر بعمليات الجمهرة، مثل الدنمارك وبلغاريا، حدث شيء متوقع؛ إذ بدأت تنتابهم الشكوك حول القضية التي يقاتلون من أجلها، ولم يعد بمقدور النظام النازي الاعتماد عليهم في تنفيذ مخططاته.(11) وبكلمات أخرى، لقد استيقظوا. ويتضح من هذا أن القادة لا يتعرضون للتنويم بواسطة الإيديولوجيا فقط بل من خلال الجماهير أيضاً. إذ يُصاب القائد نفسه بالزهو والخيلاء نتيجة الآثار التي ولّدها في الحشود. فبين الوضع السيكولوجي للجماهير وقادتها، هناك نوع من السببية الدائرية؛ إذ يعمل كل منهما على تنويم الآخر.

لكنّ وقوعَ القائد التوتاليتاري تحت تأثير التنويم والعمى لا يعني أنه يؤمن بكل ما يقوله لشعبه. فالأمر على خلاف هذا تماماً. دعونا نوصّف هذه الحالة بدقة أكبر: إنه يؤمن بشكل أعمى بالإيديولوجيا التي يسعى إلى فرضها، لكنه لا يؤمن بالخطاب الذي يستخدمه في ترويجها وتعزيزها. إنه يؤمن إيماناً مطلقاً بالإيديولوجيا التي يعتنقها فيخلق لنفسه المسوّغات التي تمكنه من الاستغلال والكذب والخداع في سبيل فرض تلك الإيديولوجيا. فالجنس البشري (أو جزء كبير منه) في طريقه لتخليق عالم أفضل، ولذلك فإن كل شيء مباح.

يتجلّى هذا من خلال الطريقة التي استخدمت فيها النازية والستالينية الأرقامَ والإحصائيات - حيث تم الاتكاء عليها بشكل كثيف في الدعاية التي قامت كل منهما بالترويج لها - بطريقة تتساوق مع الإغراء العلمي الذي تتمتع به القصة التي تقدمها كل منهما (وتتمتع بها جميع قصص الأنظمة التوتاليتارية). ولكن مع مرور الزمن، تبيّن أن تلك الأرقام كانت "مغايرة تماماً للحقائق" إلى درجة تحريف الحقائق لتعزيز صدقية الأرقام. ففي الاتحاد السوفياتي، كانوا أحياناً يعتقلون "الخوَنة" في الشوارع عشوائياً في نهاية الأسبوع في حال لم تصل النسبة إلى المستوى المحدد مسبقاً.(12) وبهذه الطريقة، تحول العلماء الواقعون تحت الأثر التنويمي المتولد عن التوتاليتارية إلى "مهرّجين".(13) فغالباً ما كانوا

يتمترسون في خطاب لم يكلف نفسه عناء تمويه طبيعته الاستغلالية والخداعة.(14)

الغريب في الأمر أن الجماهير مستعدة دوماً لمسامحة قادتها. إذ يتم تجاهل الدلائل الدامغة على الخداع والاستغلال بعبارات مثل: "ربما يكون ذلك دنيئاً، لكنه في غاية الذكاء" و"إنهم يفعلون ذلك لمصلحتنا في نهاية المطاف". تكتب آرندت في هذا السياق:

أسّس قادة الجماهير التوتاليتاريون دعاياتهم على الفرضية السيكولوجية الصحيحة القائلة بإمكانية جعل الناس، في هذه الظروف، يؤمنون بأكثر المقولات المتعصبة اليوم ثم يلجؤون إلى التهكم في اليوم التالي حين يواجهون دلائلَ دامغة على خطأ هذه المقولات؛ فعوضاً عن التخلي عن القادة الذين كذبوا عليهم، سوف يحتجون بالقول إنهم كانوا يعرفون أنها كذبة ويُبدون إعجابَهم بالقادة لذكائهم التكتيكي الخارق.(15)

وعلى غرار الشعب (انظر الفصل السادس)، فإن القادة أيضاً قادرون على هذا النوع من النكران الذاتي.(16) يتجسد أحد الأمثلة المذهلة على إعدام قادة الحزب الشيوعي خلال محاكمات موسكو في التوبة التي يعبرون عنها (والتي يصفها جورج أورويل **George Orwell** بحرفية عالية في روايته *Animal Farm* **[مزرعة الحيوانات]**).(17) فعلى الرغم من براءتهم من الجرائم المنسوبة إليهم، فقد تقبلوا إدانتهم بخنوع واعترفوا بالذنب الذي اقترفوه. والأكثر من ذلك أنهم كانوا يستنبطون الدلائلَ اللازمة لإثبات ذنبهم ويتعاونون لتأكيد إدانتهم في محاولة لضمان عضويتهم في الحزب.(18) فقد عززوا عملية التنويم تلك إلى درجة الموت. إذ إن الاستيقاظ قبيلَ هذه اللحظة النهائية سيكون في غاية الصعوبة والألم.

نتجت عن ذلك آلية محيّرة دفعت أعضاءَ الحزب إلى توريط أصدقائهم وزملائهم ومعارفهم والتضحية بهم على مذبح وحشية النظام العبثية (بما في ذلك التعذيب حتى الموت)، إلى أن جاء الوقت والتهمَهم وحشُ التوتاليتارية. يكتب سولجنتسن: "كان غالبية القادة، حتى لحظة إدانتهم، يظهرون القسوة في اعتقال الآخرين وتدمير رفاقهم بتلك التعليمات نفسها ويقومون بالوشاية بأصدقاء أو رفاق الأمس".(19)

يكشف لنا هذا مرة أخرى أن جوهرَ التوتاليتارية ليس نفعياً أو أنانياً بطبيعته. إذ لا يشكل المالُ والسلطة سوى غايات وسيطة. فالهدف النهائي يتمثل في تحقيق سردية إيديولوجية متخيّلة، ويضحي القائدُ التوتاليتاري بمصالحه كلها لتحقيق هذه الغاية.(20) وهذا ما

يشير إليه لو بون عندما يقول إن قادة الجماهير يتعرضون للتنويم أيضاً، وخاصة بواسطة الإيديولوجيا التي يؤمنون بها إيماناً مطلقاً.(21)

تنعكس هذه الطبيعة اللانفعية أيضاً في الطرق المتهورة التي تدمر بها الأنظمة التوتاليتارية اقتصاداتها وتوليد الفوضى الاقتصادية العارمة. فعلى سبيل المثال، يمكن النظر إلى معسكرات الأعمال الشاقة بصفتها تهدف إلى العمل الرخيص والثمار المالية، لكن الأمر كان أبعدَ ما يكون عن ذلك.(22) فقد تم تنظيمها بطريقة تحول دون جني أية أرباح، حتى إنها كانت بالكاد تسد حاجاتها الذاتية. كانت تلك المعسكرات بمثابة فضاءات تجريبية ومشاريعَ اختبارية لمجتمع مثالي تتعلم فيها النخبة كيفية إخضاع الشعب لإيديولوجيتها.(23) فالاختبارات المقامة على البشر تمثل النشاطَ النموذجي للتوتاليتارية. فهي بمثابة إخضاع الواقع التام للتخييل الإيديولوجي الذي يتحلّى بلبوس علمي زائف.

لكن هذا لا يعني أن القائدَ التوتاليتاري مثاليٌ نموذجي. فهو يختلف عن المثالي من حيث تحلّيه بنوع من التعصب الأعمى، وافتقاره الشديد للمبادئ، وازدرائه للقوانين. فهو يحكم، على سبيل المثال، بمرسوم تشريعي على أساس القوانين المؤقتة التي يمكنه تكييفها حسب رغبته وحاجته.(24) فالقانون الوحيد الذي يلتزم به هو عدم وجود القوانين.(25) وهذه مجازفة تتخلّق من ظروف وباء كورونا، حيث حلّت قوانينُ الطوارئ محل القوانين القائمة والحقوق الأساسية. ففي وضع طارئ كهذا، تختفي حقوق الاحتجاج، ولا تحتاج الحكومة إلى تصديق أفعالها من البرلمان أو الكونغرس، ولا تعود هناك حاجة لاحترام الملكية الفردية. وبالإضافة إلى اكتساب الاختبارات الطبية المشبوهة أساساً مقبولاً يتم على أساسه إعلان الطوارئ الوبائية في أي وقت، يتجاوز الخطرُ المحيق بالأفراد والمجتمع جميع الحدود.

يشكل كلّ قانون عقبةً أمام تعزيز المنطق الحديدي للتوتاليتارية. "إذا أردنا تحقيق الهدف النهائي للتاريخ – سلطة البروليتاريا، وتخليق العرق المتفوق، إلخ – علينا أن نستأصلَ جميع الأرستقراطيين والفلاحين، وأن نبيدَ الأشخاص العاجزين واليهود، إلخ". ولكن أيضاً، "إذا أردنا تفادي اكتظاظ وحدات العناية المشددة، علينا أن نلجأ إلى الإغلاق وتعطيل المجتمع بأكمله، ومنع العجائز من رؤية أحفادهم، والامتناع عن تقديم الإسعافات الأولية التي تُمليها الحوادث، ومنع النساء من حمل أطفالهنّ حديثي الولادة، وحظر الاحتجاجات، ومنع الأشخاص غير الملقحين من السفر والعمل في مجال الرعاية الصحية، إلخ". فلو أن

أحداً طلع بطريقة التفكير هذه قبل أزمة كورونا، لكان الناس شككوا - بشيء من الشفقة - بسلامته العقلية. أما اليوم، فيبدو ذلك حقيقة راسخة للكثير من الأشخاص. "لا يمكنك أن تقول 'أ' دون أن تقول 'ب' و'ت'، إلى آخر الأحرف الأبجدية القاتلة"، كما قالت آرندت.(26) فحالما يقبلُ المرءُ الأساسَ الذي يقوم عليه هذا المنطق، فكل شيء آخر يتأتى بشكل حتمي من تلك النقطة.(27) عندئذٍ يُستبعَد أي رأي منطقي مغاير بشكل منهجي، وبالتدريج تُنتهَك جميع الحدود الأخلاقية المعروفة.

كما تتجلى رغبة التوتاليتارية العارمة في فرض منطق أساسي على المجتمع في هوَسها بالعلامات التي تُستخدم أحياناً كسمةٍ مميزة للنّخَب (الأزياء الموحدة، والميداليات، والشارات، إلخ.)،(28) وفي أحيان أخرى لوصمِ "أعداء" النظام، إلى درجة حرقها على الجلد عند الضرورة (على غرار الأرقام الموشومة في أوشفيتز، والعلامة المميزة لكل مجموعة في معسكرات "الغولاغ"). فمن خلال نظام العلامات هذا، تسعى التوتاليتارية إلى نقش منطقها على الواقع بهدف ربطه بالعالم الحقيقي. ولذلك، غالباً ما يشكل تحديدُ العلامات ورموز الوصم الخطوة الأولى في عملية التدمير.(29)

نستطيع، في هذه المرحلة، توصيف الجوهر السيكولوجي للتوتاليتارية: محاولة تقليص تعددية اللغة الإنسانية إلى أحادية نظام العلامات. وكما رأينا في الفصل الخامس، يكمن الفرق الأساسي بين البشر والحيوانات في النظام التواصلي. إذ تستخدم الحيوانات العلامات المرتبطة بشكل واضح بالأشياء التي تدلل عليها (مثلاً، يشير البطنُ الأبيض الفضي لأنثى السمك الشائك إلى الرغبة الجنسية؛ فهذه العلامة معروفة لجميع أفراد هذا النوع، وفي جميع السياقات والمناطق)، بينما يستخدم البشرُ رموزاً أو كلماتٍ (دلائلَ) تتباين معانيها مع تنوّع السياقات التي تنشأ فيها. وتُضفي خاصية اللغة البشرية هذه على التجربة والثقافة الإنسانية قدراً كبيراً من الغنى والتنوع وإمكانياتٍ لا متناهية لتخليق أشكال جديدة من التعبير وتشكيل الهويات. لكنها تخلق، في الوقت نفسه، التباساً كبيراً يولّد قلقاً شديداً عند الإنسان. إذ ليس هناك أي كائن حي آخر يجلد نفسَه بأسئلة مثل "من أنا؟"، "ماذا أريد؟"، "ما الذي أعنيه بالنسبة إلى الآخر؟".

التوتاليتارية هي محاولتنا في التخلص من هذا الالتباس من خلال الانسحاب إلى يقينية علمية (مزيفة) ومنطق صارم، وتقليص الرموز إلى علامات، والسعي إلى استئصال التنوع الذي يميز التعبيرَ الثقافي. إذ تعمل التوتاليتارية على تدمير هذا التنوع بجميع الطرق

الممكنة.(30) ويشكل الترحيل والاستغلال والقتلُ الممنهج للمجموعات السكانية في معسكرات العمل والإبادة أمثلة تاريخية لا تزال محفورة في أذهاننا.

يتميز منطقُ التوتاليتارية بتقلّبه الدائم وتحوله العبثي. وتتكون بنية النظام التوتاليتاري، من بين أشياء أخرى، من استغلال القلق، ولذلك يتوجب عليه دوماً تحديد مواضيع جديدة للقلق. فعندما يعجز النظامُ عن ربط القلق بموضوع ما، فإنه يفقد علّته الرئيسة. كانت النازية والستالينية تعيدان بناء نفسيهما باستمرار؛ إذ إن جوهرَ ظاهرة التوتاليتارية يكمن في آليات عملها. فالأوامر والمراسيم تتغير باستمرار لضرورة تخليق ردود جديدة على التهديدات الجديدة. فكروا في الخنازير في رواية **مزرعة الحيوانات**،(31) التي كانت تدوّن القوانينَ الجديدة على الحائط ليلاً.

رأينا، خلال العقود الأخيرة، أيضاً نشوءَ العديد من مواضيع القلق في مجتمعنا؛ فقد ظهرت بسرعة متزايدة وقادت إلى المزيد من القيود على الحريات المدنية: الإرهاب، والتغير المناخي، وفيروس كورونا. وخلال أزمة كورونا، بشكل خاص، نرى سيلاً من الأخطار الجديدة التي تستدعي إجراءات جديدة (السلسلة اللامتناهية من متحولات فيروس كورونا التي تستوجب تطبيق إجراءات جديدة). كما أن الخلفية التي نشأت عليها القصة تخضع لتغيرات غريبة: أولاً، تم تبرير عمليات الإغلاق بذريعة "تسطيح المنحنى". سوف ينتشر الفيروس في جميع الحالات؛ فالأمر كله يقتصر على إبطائه. ومن ثم، علينا أن "نحطم المنحنى"؛ إذ لم يعد الأمر فجأة متعلقاً بإبطاء الانتشار بل بتصفير حالات العدوى، وهو شيء مستحيل من حيث المبدأ. وعندما تلاشت العدوى، اتُّخذت إجراءات لمنعها (يمكنكم القول إننا انتقلنا إلى "منع المنحنى"). ومع مرور الزمن، تغيرت القوانين إلى درجة لم يعد بمقدور أحد أن يعرفها، وتقبّل الناس بنوع من السلبية والخنوع فكرة تعرّضهم لدفع الغرامات على أي شيء يمكن أن يفعلوه دون أية حماية قانونية ضد هذه الإجراءات التعسفية.

خلال هذه العملية كلها، تتبدّى القصة بصفتها منيعة على النقد وتفرض نفسها إلى درجة عبثية. فعلى سبيل المثال، وبطريقة متناقضة، يتم استخدام الأشخاص الذين راحوا ضحايا لتلك الإجراءات (مثل عمليات العزل في مراكز الرعاية) كدليلٍ يعزز صحة هذه الإجراءات. كما يُضاف هؤلاء الضحايا إلى أعداد الوفيات ويتم استخدامهم كتبرير للإجراءات المفروضة. وبالطريقة نفسها، حذرت الأمم المتحدة من المجاعات الناجمة عن عمليات الإغلاق والتي يمكن أن تودي بحيوات الملايين من الناس.(32) وهناك خطر آخر

يتمثل في تصنيف هؤلاء في عداد ضحايا كوفيد-19 وبالتالي تفاقم الخوف إلى درجة تستدعي إجراءات أكثر صرامة. ومن المحتمل أن تنشأ المشكلة نفسُها مع ضحايا حملة التلقيح. وبهذه الطريقة، يمكن للمجتمع أن يقع أسيرَ دائرة مغلقة: كلما صارت الإجراءات أكثر صرامة، زاد عدد الضحايا؛ وكلما زاد عدد الضحايا، صارت الإجراءات أكثر صرامة.

إن فهمَ هذا من منظور عملية الجمهرة وليس كنوعٍ من الخداع الخبيث المتعمّد (أي كمؤامرة؛ انظر الفصل الثامن) لا يقلّل من الخطر الذي يشكله، بل على العكس. إذ إن غيابَ التفكير النقدي، والتوزيع اللاعقلاني للتماهي، واستعداد جزء كبير من الناس لتحمّل خسارات كبيرة تشكل خليطاً في غاية الخطورة. إن الطريقة التي يتم بها منع الأشخاص غير الملقحين من ارتياد بعض الأماكن العامة، مما أدى الآن إلى المطالبة الشعبية بمنعهم من دخول مخازن الأغذية والمشافي، تستحضر أسوأ الذكريات وربما تصبح الخطوة الأولى في عملية قمع وحشية.

لا تقللوا من أهمية العواقب المستقبلية لمثل هذه الإجراءات، وليس على الأشخاص المعارضين لها فقط. فالفكرة المقترحة خلال أزمة كورونا لعزل المصابين في مراكز الحجر الصحي لا تزال "غير واقعية" و"غير ملائمة"، ولكن يمكنها – من خلال منطق فيروسي ضيق – أن تصبحَ الخطوة المنطقية التالية. ما دمنا عاجزين عن التفكير خارج القصة المقدمة، فكل ما يحتاجه هذا لكي يصبح "ضرورياً للصحة العامة" هو درجة عالية من القلق (أو الإحباط والعدوانية). فبالإضافة إلى قابلية اختبارات كوفيد-19 للاستغلال والتلاعب وإعادة توزيع إقطاعي للسلطة (تحلّي رؤساء البلديات وحكام الولايات بسلطات غير مسبوقة نتيجة فشل السياسات القومية)، يمكننا أن نرى ما يتلامَح في الأفق الآن: الاعتقالات العشوائية، والعزل القسري، و"المعالجة" النزوية للأشخاص "المصابين". فالأنظمة المجتمعية التي تميل نحو التوتاليتارية تقود إلى الظاهرة نفسها، بغض النظر عن التباين في مادة القصص التي تقدمها.

أضف إلى هذا أن الحلقة المفرغة التي تولدها الجمهرة والتوتاليتارية "مُطمئنة" بطريقة ساخرة؛ إذ إن الجمهرة والتوتاليتارية تدمران نفسيهما من خلال الضرورة المنطقية.(33) إذ تنطويان، في جوهرهما الداخلي، على نزعة التدمير الذاتي. ويمكن فهمُ آلية التدمير الذاتي الكامنة هذه بالطريقة التالية: تتغذى الجمهرة على القلق والعدائية؛ فمن دون الخوف والتعبير عن هذه العدائية، تتعطل آلية عمل الجماهير. ويدرك القادة أن الجماهير، في

حال حصول ذلك، سوف تستفيق وتعي الضررَ الذي ألمّ بها، مما يجعلها تنقلب على هؤلاء القادة بقدر كبير من العنف. وبالتالي، ليس هناك أي خيار أمام القادة سوى الاستمرار في تحديد مواضيع القلق وتطبيق المزيد من الإجراءات لمواجهة هذه المواضيع واستئصالها. ولأسباب سبق أن قدمناها في الفصل السادس، فإن جزءاً كبيراً من السكان الواقعين تحت تأثير التفكير التوتاليتاري يتبعون هؤلاء القادة بمشيئتهم الحرة؛ فبهذه الطريقة يبقى قلقهم مرتبطاً بموضوع ما، ويتمكنون من التعبير عن إحباطهم وعدائيتهم، ويخلقون باستمرار رابطة اجتماعية جديدة عبر طقوس الموت الجديدة. هذه هي الطريقة التي تعمل بها الحلقة المفرغة التدميرية للتوتاليتارية (والجمهرة).

غالباً ما تصل نزعة التدمير الذاتي التي تتميز بها الأنظمة التوتاليتارية إلى ذروتها عند اللحظة التي ينجح فيها النظام في قمع الأصوات المناوئة وإسكات المعارضة. وقد وصل الاتحاد السوفياتي إلى هذه المرحلة في سنة 1930 (عندما اكتسب ستالين سلطة مطلقة وشرع في عمليات التطهير الضخمة)، بينما وصلت ألمانيا النازية إلى هذه الذروة في نحو عام 1935. وهنا أيضاً نرى فرقاً جذرياً في حالة الأنظمة الديكتاتورية التي تعمل في أغلب الأحيان على التخفيف من عدائيتها حالما تمسك بزمام السلطة. وفي تلك المرحلة، يحتكم الديكتاتور إلى حسّه السليم: إذا أردتُ البقاء في السلطة، عليّ أن أقنع الشعب أن ذلك سيصبّ في مصلحته. أما الزعيم التوتاليتاري فتُعميه الإيديولوجيا والجمهرة المرافقة لها، ولهذا السبب نراه يفتقر إلى ذلك الحس السليم. فعندما تزِفُ لحظة السلطة المطلقة، يستمر في اتباع منطقه المجنون حتى النهاية. ومع أن الأصوات المناوئة تنفر من الأفراد الواقعين في قبضة الجمهرة، إلا أنها حيوية جداً بالنسبة إليه، إذ تشكل دواءً مراً يحاول جاهداً تفاديه لكنه ضروري جداً لبقائه. فمع غياب الأصوات المناوئة التي تكسر إيقاعَ السرد الجماهيري، يسقط النظام التوتاليتاري في نوع من التدمير الذاتي، فيبلغ التنويم المغناطيسي حدّه الأقصى. ومن ثم تصبح الدولة التوتاليتارية، كما تقول آرندت، "وحشاً يلتهم أبناءَه".(34)

يمكن لأي أحد يرغب في معرفة عشوائية وعبث هذه النزعة التدميرية أن يقرأ توصيفَ سولجنتسن لموجات الإعدام والإبادة في ظل ستالين.(35) فخلال هذه الفترة، استمر النظام في استهداف جماعات جديدة من المواطنين يُطلق عليهم اسم "الأعداء الموضوعيون"؛ أي أشخاص لم يقدموا على أية أفعال عدائية لكنهم قادرون على ذلك بسبب المجموعة التي ينتمون إليها. إذ كان يتم عزل هؤلاء الأعداء ومن ثم تصفيتهم.

(36) في البداية، كان من الممكن استنباط شيء من المنطق في عمليات التطهير الكبيرة؛ فقد بدؤوا بترحيل البرجوازيين، ومن ثم الضباط العائدين من الخارج (لتأثرهم العقائدي بالمنطق الرأسمالي)، ثم أي شخص له علاقة بالدين (لعدم قابلية اعتناقهم للشيوعية)، وبعد ذلك جميع الأشخاص الذين يملكون الذهب (أطباء الأسنان، وصانعي الساعات، وصانعي المجوهرات)، ثم الفلاحين الميسورين أكثر من غيرهم من الفلاحين، وفي مرحلة لاحقة جميع الفلاحين. فهؤلاء الأشخاص كلهم "برجوازيون صغار" أو متأثرون باحتكاكهم بالرأسماليين. ولكن بعد فترة قصيرة – وبعد ترحيل أو إبادة هذه المجموعات كلها – كان على النظام أن يعبّر عن غريزته التدميرية ويوجهها بشكل عشوائي نحو مجموعات شعبية "مجرمة".(37) وقد نشطت آليات الأنظمة التوتاليتارية التدميرية العاصفة هذه في ألمانيا النازية أيضاً، لكنها لم تصل إلى مرحلتها النهائية المشؤومة.(38) فبعد أن رحّل هتلر الغجر واليهود إلى معسكرات الاعتقال، كان ينوي استهدافَ الأوكرانيين والبولنديين والألمان الذين يعانون من مشاكل قلبية أو رئوية. لقد حالت الحربُ، في نهاية المطاف، دون تنفيذ تلك الخطط والمشاريع.

هناك أسباب عديدة للافتراض القائل إن التوتاليتارية تبدأ من النوايا "الحسنة" النابعة من جنون العظمة. فهي تطمح إلى تحويل المجتمع كله إلى نموذج إيديولوجي مثالي (مثل، المجتمع النازي الذي يتمتع بعرق صافٍ، أو حكم البروليتاريا في ظل الستالينية). لكن خلق الفردوس غالباً ما يودي إلى الجحيم. يوضّح تاريخُ الستالينية ذلك بطريقة صارخة. بدأ البلشفيون بنوع من التصميم على إصلاح انتهاكات روسيا القيصرية. ففي ظل حكم القياصرة، كان يتم تنفيذ 17 حكماً بالإعدام سنوياً. وكان الثوارُ الشيوعيون ينظرون إلى ذلك بصفته عملاً شائناً. ولذلك اتهموا القياصرة بارتكاب الجرائم وقرروا إلغاء عقوبة الموت. لكنّ العقدَ تضمن ملاحظة صغيرة: في البداية، سوف تستمر عمليات الإعدام في حال كان ذلك ضرورياً لترسيخ الشيوعية نفسها كنظام. وفي الأشهر الأولى التي تلت الثورة الروسية التي قامت في سنة 1917، كانت هناك 540 عملية إعدام سنوياً؛ وبعد بضع سنوات ارتفع العدد إلى 12.000؛ وبين سنتي 1937 و1938 كانوا ينفّذون 600.000 عملية إعدام في كل سنة.(39)

كانت الطريقة التعسفية التي ينفّذون بها أحكامَ الإعدام تلك أكثر إثارة للدهشة من عدد الضحايا. فقد كانوا يحددون لكل مدينة ومنطقة نسباً أسبوعية وشهرية تقضي بعدد

"الخوَنة" الذين يجب إلقاء القبض عليهم. وفي حال لاحظ الحكام المحليون المندوبون، عند نهاية الفترة المحددة، أن عدد المعتقلين أقل من العدد المستهدف، كانوا ينزلون إلى الشوارع ويعتقلون الناس عشوائياً.

كان الخنوع نتيجة أخرى لجهل آليات عمليات الاعتقال السائدة. فبشكل عام، لم يكن لدى الهيئات أية أسباب وجيهة لاختيار الأشخاص الذين تقرر اعتقالهم. فقد كان لديها مهامٌ مكلفة بها وأعداد معينة عليها مقاضاتها. ويمكن اختيار هذه الحصص النسبية بطريقة منظمة أو عشوائية.(40)

لم يهدف الثوار إلى إلغاء عقوبة الإعدام فقط، بل زعموا أنهم سيعملون على إنهاء جميع أشكال العبودية. يقدم سولجنتسن مقارنة مذهلة بين ظروف "البروليتاريا" الحياتية في عهد القياصرة وفي ظل حكم ستالين. يذكر أن العبيد، في عهد القياصرة، كانوا يعملون لسبع ساعات كحد أقصى يومياً خلال الشتاء واثنتي عشرة ساعة يومياً في فصل الصيف. وعند توزيع الأوامر والمهام، كانوا يأخذون بعين الاعتبار القدرات الجسدية للعمال. إضافة إلى ذلك، كانت ظروف معسكرات العمل محتملة ومقبولة. فقد وصفها فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky بأنها مريحة إلى درجة بدأ معها النبلاء يتساءلون عن قدرتها على زرع الخوف في قلوب الناس. أما في ظل ستالين، فقد حصل تغيرٌ كبير في مصير السجناء، وليس إلى الأفضل لسوء الحظ. إليكم هذه المقارنة الصارخة: في عهد القياصرة، كان على السجناء استخراج 100 رطل من الفلذات يومياً؛ أما في ظل الحكم الشيوعي، فقد بلغت هذه الكمية 28.000 رطل.(41)

تمثل أحدُ الأهداف النبيلة الأخرى التي وضعها البلشفيون في تحسين أوضاع الفلاحين. لكنهم غيروا رأيهم بعد ذلك. فمن خلال ارتباطهم بأرضهم وحيواناتهم، أثبتت طبقة "الكولاك" [المزارعون الميسورون] أنها أقرب إلى "البرجوازية الصغيرة"، وبالتالي فإنها لن تقع في غرام اللويثان الشيوعي.(42) وهكذا شرّعَ الشيوعيون إبادة الفلاحين كطبقة. ولذلك سارعوا إلى رسم سياسة ترحيل لا مثيل لها في التاريخ. فقد ساقوا الفلاحين بالملايين إلى ما يسمى "مستوطنات خاصة" حيث قضوا جميعاً نتيجة الظروف الوحشية. (43) ومرة أخرى، تحوّلوا إلى عبيد يعيشون في ظروف أسوأ بكثير من تلك التي كانت سائدة في عهد القياصرة.

قال لو بون إن "قوة الحشود تكمن في نزعتها التدميرية".(44) فمن خلال ميلها الشديد إلى التضامن والتلاحم، ترنو الحشودُ إلى تحقيق الصالح العام أملاً في بناء فردوس إيديولوجي. لكن النتيجة تتمثل دوماً في نوع من الجحيم. إذ تُساقُ الحشود وقادتها بشكل أعمى إلى دوامة من الخراب إلى أن يفيقوا على عواقب المنطق الذي تملّك عقولهم والمتمثل في المنطق الميكانيكي لعالم ميّت لا روح فيه. وكما سأبيّن في الفصل الثامن، فإن السادة الحقيقيين لهذا المصير ليسوا قادة الأنظمة التوتاليتارية بل القصص والإيديولوجيا التي تتأسس عليها؛ فهذه الإيديولوجيات تتملّك الجميع ولا تنتمي لأحد، وبالتالي يلعب كل فرد دوره فيها ولكن لا أحد يعرف السيناريو الكامل.

الفصل الثامن

المؤامرة والإيديولوجيا

لو أن الأمر يقتصر فقط على بعض الأشخاص الأشرار الذين يرتكبون أعمالاً شريرة وخبيثة في مكان ما، لاقتضت الضرورة بفصلهم عن بقية البشر واستئصالهم. لكن الخط الفاصلَ بين الخير والشر يخترق قلوبَ جميع الكائنات البشرية؛ فمن ذا الذي يرغب في استئصال جزء من قلبه؟

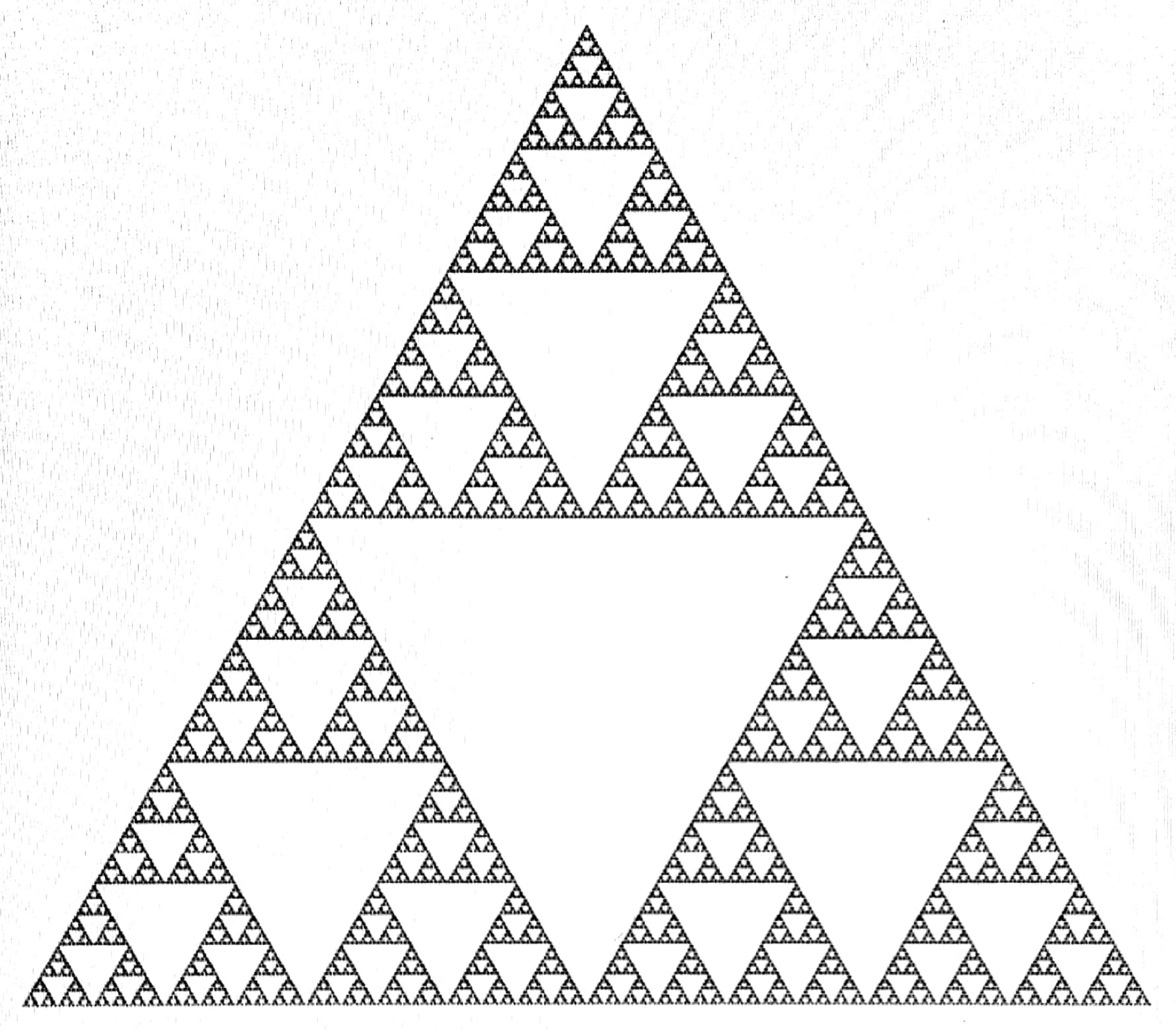
ألكسندر سولجنتسن(1)

جرّب اللعبة التالية: ضع ثلاثَ نقاط متناثرة على ورقة بيضاء. ضع نقطة رابعة على الورقة بطريقة عشوائية. خذ مسطرةً، وقس المسافة بين هذه النقطة الرابعة وأي من النقاط الثلاث الأخرى وقسمها على اثنين؛ ضع نقطة هناك. ثم قس المسافة بين هذه النقطة الجديدة وأي من النقاط الثلاث الأولى (المحددة عشوائيا) وقسم المسافة مرة أخرى على اثنين، ثم ضع نقطة هناك.

كرر هذه العملية بضع مئات من المرات وسوف تشهد ظاهرة مذهلة. سوف ترى أن السديمَ الناجم عن هذه النقاط سيشكل مثلثَ سيربنسكي Sierpinsky – وهو نمط هندسي متكرر يكشف، من تركيبه الكلي إلى أصغر تفصيل فيه، نمطاً متماثلاً يمثل، في هذه الحالة، مثلثاً محاطاً بمثلث آخر (انظر الشكل 8–1).

يمكنك تنفيذ هذه العملية باستخدام عشرة أشخاص، أو مئة شخص، أو أكثر، إذ يضيف كل منهم نقطة على الورقة بشكل آلي، تبعاً للقواعد المبينة أعلاه، ودون أن يعرفوا الغرضَ من ذلك. سوف تشكلون هذا النمط معاً من خلال تطبيق كل فرد لهذه القاعدة البسيطة مرة بعد أخرى. ترتبط هذه اللعبة بما سأتناوله في هذا الفصل؛ فعند رؤيته للطريقة التي يتشكل بها مثلث سيربنسكي على الورقة، سوف يعتقد المشاهدُ الساذج أن الأشخاص الذين يضعون النقاط يملكون معرفة تفصيلية مسبقة عن هذا النمط وأنهم يعملون معاً بطريقة مخططة ومنسقة. لكن الواقع مختلف تماماً؛ فلا حاجة لأحد أن يعرف شيئاً أو حتى أن يكون قد رأى هذا النمط من قبل. إذ يكفي أن يلتزم جميعُ الأشخاص المشاركين بالقواعد البسيطة المحددة وهم يضعون النقاط على الورقة. تذكروا مثلث سيربنسكي وأنتم تقرؤون

هذا الفصل لأنه سيلقي الضوءَ على أشياء كثيرة ترد فيه.



الشكل 8–1

***

هل قادة الجماهير أشخاص متآمرون؟ هل تتخلّق الجمهرة والتوتاليتارية من خطة معقدة كبيرة يقوم بتنسيقها بعض الأشخاص من خلف الستار؟ هذا سؤال مشروع. فقد تناولت حنة آرندت، على سبيل المثال، هذا الموضوع مرات متعددة في كتاباتها حول التوتاليتارية.

هناك شيء واحد أكيد: تبدّى القادة الجماهيريون، عبر التاريخ، بصفتهم متآمرين. فمع تعاظم الجماهير، من حيث القوة والكثافة، في القرنين التاسع عشر والعشرين، نشأت نظريات المؤامرة أيضاً. وقد استخدمَت نظريات المؤامرة هذه لتفسير العمليات الاجتماعية المعقدة وعمليات الجمهرة. وأبرز مثال على ذلك هو *The Protocols of the Elders of*

Zion [بروتوكولات حكماء صهيون] الذي كان يُعدّ، تبعاً لهنري رولين Henry Rollin، ثاني أشهر كتاب بعد **الإنجيل** في بدايات القرن العشرين.(2) إذ يزعم بوجود نوع من الحكومة العالمية اليهودية السرية التي تتحكم بجميع الحكومات الوطنية.

على الرغم من الشهرة الواسعة التي تمتعت بها "البروتوكولات"، فقد كانت شيئاً مفبركاً. لكن الأصل الخيالي الذي بُنيت عليه معروف جيداً. فهي مبنية على نصّ نشره المحامي الفرنسي موريس جولي Maurice Joly في سنة 1864 تحت عنوان *Dialogue in Hell between Machiavelli and Montesquieu* [حوار في الجحيم بين ماكيافيلي ومونتسكيو]، وهو مخطوطة يدين فيها المؤلف تعطّش نابليون الثالث Napoleon III للسلطة.(3) وقد تعرّض النصّ للتحرير والتشويه من وكالة الاستخبارات السرية الروسية Okhrana في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر بهدف إذكاء معاداة السامية في روسيا. أبقت Okhrana على نحو نصف النص الأصلي، وأضافت بعض المقاطع هنا وهناك، واستبدلت "فرنسا" و"العالم" و"نابليون الثالث" بـ"اليهود". وبهذه الطريقة، قاموا بتلفيق نص يصور تيودور هرتزل Theodor Herzl، مؤسسَ الصهيونية، على رأس مؤامرة يهودية تهدف إلى التحكم بالعالم. نُشرت المخطوطة المزورة في سنة 1905، فتبنّاها المحافظون الروس والأرثوذكس الروس بقوة لتبرير مشروعهم المعادي للسامية. ومن هناك، وصلت إلى ألمانيا خلال النصف الأول من القرن العشرين ومن ثم إلى الشرق الأوسط حيث لا تزال تتمتع بشهرة واسعة حتى يومنا هذا.

إن نزعة تقليص الجمهرة الضخمة إلى مؤامرات تحيكها نخبة شريرة تعود إلى بدايات عصر التنوير على الأقل. فعلى سبيل المثال، قدّم شوفالييه دو ماليه Chevalier de Malet في سنة 1813 توصيفاً لنظريات تؤكد أن أبطال "الثورة الفرنسية" كانوا عملاءَ سريين للمحافل الماسونية التي تنتمي، بدورها، إلى "طائفة ثورية" أوسع تسعى إلى السيطرة على الحكام وتحريكهم كأحجار الشطرنج من خلف الستار.(4) وقد تأسست هذه النظرية، بدورها، على تعاليم *Monita Secreta*،(5) وهو كتيّبٌ قديم يصف مؤامرة يسوعية تهدف إلى إثارة الكراهية ضد النظام القائم. نُشرت *Monita Secreta* للمرة الأولى في سنة 1612 وبيعت منها نسخٌ كثيرة في أسواق الكتب الأوروبية حتى نهاية القرن العشرين.

***

إن النظريات المذكورة أعلاه هي، في حقيقة الأمر، نظريات مؤامرة صرفة. أما اليوم فيُستخدَم مصطلح "نظرية المؤامرة" حتى عندما يتعلق بنظرياتٍ لا تأتي أبداً على ذكر المؤامرة. ولهذا السبب، من المفيد هنا أن نتوخّى شيئاً من الدقة المفاهيمية ونعرّفَ هذا المصطلح. تبعاً لـ"ويكيبيديا"، المؤامرة هي "خطة أو اتفاقية سرية بين عدد من الأشخاص (...) لأغراض ضارة أو غير قانونية، (...)، مع الاحتفاظ بسرية هذه الاتفاقية عن عموم الناس والأشخاص المتأثرين بها".(6) يبيّن هذا التعريف وجوبَ توفر ثلاث خصائص جوهرية، على الأقل، في أي نشاط لكي يتم تصنيفه بصفته مؤامرة: 1) وجود نشاط واعٍ ومتعمد ومخطط؛ 2) إخفاء هذا النشاط أو الاحتفاظ بسرّيته؛ 3) يجب أن يهدف هذا النشاط إلى إلحاق الأذى بالآخرين (أي أنه ينطوي على نوايا شريرة تجاه جهة ما).

أما في الاستخدام الرائج، فيشير هذا المصطلح إلى طيف واسع من النظريات. إذ يُستخدم أحياناً بدقة للتدليل على نظريات تتعلق بحكومات الظل العالمية (مثل "الإليوميناتي"، أو "الكابالا") التي تعمل على توجيه التاريخ العالمي برمّته، أو على نخب من أصولٍ فضائية تنتمي إلى الزواحف أكثر من انتمائها إلى الجنس البشري وتهيمن على العالم (انظر، مثلاً، الخطاب الذي تطلقه QAnon). ولكن يُستخدم هذا المصطلح أيضاً، بشكل مغلوط، للسخرية من الانتقادات الموجهة إلى البنى السلطوية الفاعلة على المستوى المصرفي والسياسي والصناعي والاقتصادي والإعلامي.

وهكذا تحول المصطلحُ إلى نوع من الوصم؛ أي إلى أداة يستخدمها الخطابُ السائد لحماية نفسه من التحليل النقدي. وبالطريقة نفسها، نادراً ما يُستخدَم مصطلح "المؤامرة" للإشارة إلى النظريات المتناغمة مع القصة السائدة والتي تعتبر بحق نوعاً من نظريات المؤامرة. فعلى سبيل المثال، خذ المزاعم القائلة إن روسيا تحاول التحكم بالانتخابات الأميركية، وإن الحكومة الصينية تقف خلف الهجَمات الإلكترونية، وإن ستيف بانون Steve Bannon يروج بسريّة لتقاريرَ تقول بتصنيع الفيروس في أحد مخابر ووهان، وإن روسيا تموّل الصحفَ التي تدعو إلى الفوضوية في الغرب، إلخ. فسواء كانت هذه الأفكار دقيقة أم لا فهي، في جوهرها، نظريات مؤامرة. والسبب الوحيد الذي يحول دون وصمها بهذه السمة هو انتماؤها إلى الخطاب الاجتماعي السائد المتشكل يومياً عبر وسائل الإعلام الرسمية.

***

والآن، نعود إلى السؤال: هل ننظر إلى الجمهرة بصفتها نوعاً من المؤامرة؟ أشار لو بون إلى أن الروح الجمعية تحل محلّ الروح الفردية في الحشود.(7) فالحشد يتصرف بطريقة منسقة ويردد الشعارات نفسها. كما أنه يتبنى الأفكارَ والتعابير التي تنتشر في صفوفه بسرعة البرق (أشار لو بون إلى "عدوى" الأفكار في الحشود).(8) فكل شريحة من شرائح المجتمع تساهم في هذا العمل الفريد: السياسيون، والأكاديميون، والصحافة، والخبراء، والقضاء، وعناصر الشرطة. وبهذه الطريقة، تعطي الجماهيرُ الانطباع بأنها ظاهرة عالية التنظيم. أما أولئك المنيعون على عملية الجمهرة، لسبب أو لآخر، والذين يراقبون هذه الظاهرة الاجتماعية "من الخارج" فيميلون إلى التفكير بأن ذلك يتأتى عن نوع من التنسيق الواسع والواعي والمخطط.

بيّنت، في الفصل السادس، أن الجمهرة تتخلق – بشكل كبير – من وقوع الأفراد تحت هيمنة سردية عامة توحّدهم في معركة بطولية ضد موضوع يثير القلق. لكن مصداقية هذا النوع من التفكير في ظاهرة الجمهرة تبقى رهينة الزمن. فعلى سبيل المثال، يبدو أن هناك تناغماً جسدياً بين الأفراد الذين يشكلون جمهوراً ما لا يمكن تفسيره فقط على أساس السردية المشتركة. إذ تتشابه هذه الظاهرة، في عدة نقاط، مع الطريقة التي تنظم بها الأنظمة المعقدة والحيوية نفسَها في الطبيعة. هناك، مثلاً، الطريقة التي تتحرك بها أسرابُ الزرزور. فعند الغسق، تطير الزرازيرُ نحو بعضها بعضاً من جميع الاتجاهات ثم تتحرك معاً في نمط متناغم دقيق دفع نيكولاس تنبيرغن Nikolaas Tinbergen – الحائز جائزةَ نوبل – إلى تسمية السرب بـ"الفرد الخارق" الذي يشكل كياناً مهيمناً يرتبط فيه جميعُ الأفراد ببعضهم بعضاً كخلايا الجسد الواحد.(9) فهم يستشعرون بعضهم بعضاً دون ظهور أي نوع من أنواع التواصل المرئي الذي يوجه سلوكهم.

هذه هي الطريقة التي يتأسس بها الرابط الذي يجمع الأفرادَ في الحشد. ويكون هذا مرئياً، بشكل خاص، أثناء تجمّع الحشد جسدياً. يصف إلياس كانيتي Elias Canetti هذه العملية بالطريقة التالية:

إن الحشد، الذي يتشكل فجأة في مكان ما، هو ظاهرة عالمية غامضة. ربما يكون هناك بعض الأشخاص الواقفين – أربعة أو خمسة أو اثنا عشر، لا أكثر. لم يتم الإعلان عن أي شيء، وليس هناك أية توقعات. وفجأة يعج المكانُ بالناس، ثم يتدفق المزيد من الأشخاص

من جميع الجوانب وكأن الشوارع كلها تقود في الاتجاه نفسه. معظمهم لا يعرف ما الذي حصل، وإن سألتهم فإنهم لا يملكون جواباً؛ لكنهم يهرعون إلى المكان الذي يتجمع فيه الآخرون. وهناك تصميم في حركتهم يختلف عن الفضول العادي. يبدو أن حركة شخص واحد تنتقل إلى الآخرين. ولكن هذا ليس كل شيء؛ لديهم هدف واحد أيضاً يتخلّق سلفاً قبل أن يجدوا الكلمات للتعبير عنه. ويتمثل الهدفُ في البقعة المظلمة التي يتجمع فيها معظم الناس.(10)

هذا يعني أن ما يوحّد الحشدَ لا يقتصر على الأفكار والمعتقدات والسلوكيات نفسها. ويعني أيضاً تشكيلَ نوع من الوحدة الجسدية التي تساهم في ترك انطباع يوحي أنها نتيجة خطة ضخمة مرسومة بدقة.

***

إن ما يجعل الحشدَ يتبدى وكأنه نتيجة لمؤامرة ما لا يتمثل فقط في التنسيق الذي يميز حركاته الذهنية والجسدية. إذ إن طبيعته العدائية تساهم في توليد هذا الانطباع أيضاً. فالحشدُ يحاول فرضَ إرادته على المجتمع؛ فهو يسعى إلى التحكم بالمجتمع. طالما كان الأمر هكذا، ولكن ربما صار أكثر وضوحاً مع مرور الزمن ومع تنامي ظاهرة الحشود وتواترها وتفاقم تأثيرها الدائم على النسيج المجتمعي. فالحشد الحديث يدفع دوماً في الاتجاه نفسه: المجتمع الواقع تحت السيطرة التامة. فمع تكاثر مواضيع القلق – كالإرهاب، والمشاكل المناخية، والفيروسات – تنشأ من أحشائه المطالبة بالمزيد من السيطرة التكنولوجية. ويمكن لهذه السيطرة أن تتأرجح بشدة وبشكل غير متوقع. فبعد هجمات 2016 الإرهابية في بروكسل، تم تركيب مئات الكاميرات في الحي اليهودي في أنتويرب لتأمين الحماية ضد الإرهابيين. وخلال أزمة كورونا، استخدمت تلك الكاميرات نفسها لمراقبة تردد اليهود على الكنيس.(11) يمكن للأشياء أن تأخذ منحىً غريباً.

تشكل بطاقة المرور الخاصة بفيروس كورونا (وكذلك شيفرة الاستجابة السريعة) جزءاً من هذه النزعة إلى المزيد من السيطرة. فالخطة الموضوعة لاستبدال هذه البطاقة على المدى الطويل (أو القصير) بنظام أكثرَ تعقيداً وفعالية واستعصاءً على التزوير تتخلّق بسهولة من منطق الإيديولوجيا الميكانيكية. ففي سنة 2021، قال أحدُ الوزراء البلجيكيين إن السوارَ الإلكتروني أفضل (ما رأيكم بسوار للكاحل أيضاً؟). من المؤكد أن الشرائح السكانية الواقعة تحت تأثير الإيديولوجيا الميكانيكية سوف توافق على ذلك، كما أن وضع

التكنولوجيا الحالي مؤهلٌ لتقديم "حلول" أكثر فعالية لهذه المشكلة. فمع نهاية هذه العملية، سوف ننتقل إلى مجتمع قام بتوصيفه، من بين آخرين، المؤرخ الإسرائيلي يوفال نوح هراري تعمل فيه المستشعرات المزروعة تحت الجلد على مراقبة حالة دمنا بحيث لا تتمكن فقط من تحديد الأمراض في مرحلة مبكرة بل تعرف، أيضاً، إن كنا نشعر بالحزن أو السعادة، وبالغضب أو السكينة والهدوء.(12)

يجد الأشخاصُ المتحررون من قبضة الجمهرة أنفسَهم في وضع مربك يصعب عليهم فهمه – إذ تبدو ظاهرة الجمهرة عبثية ومحيّرة لأولئك المتحررين من قبضتها – ويشعرون بالخطر الناجم عن مظهرها المهيمن ورفضها التام لكل من يرفض المشاركة فيها (انظر الفصل السادس). وفي هذه الحالة، يشعر المشاهدُ الحائر بحاجة ماسة إلى إطارٍ مرجعي بسيط يمكنه من استيعاب هذا الوضع المعقد والتحكم بالقلق والمشاعر القوية الأخرى. وهنا تنشأ الحاجة إلى تأويل الظاهرة بصفتها مؤامرة. إذ يعمل ذلك على تبسيط هذه الظاهرة المعقدة وردّها إلى إطار مرجعي بسيط: إن هذا القلق كله مرتبط بموضوع واحد (مجموعة من الأشخاص، الذين يشكلون ما يسمى "النخبة"، يعملون على خداع الجموع) وبالتالي يصبح قابلاً للفهم. وعندها يمكن توجيه اللوم كله إلى الآخر، مما ينتج عنه توجيه الإحباط والغضب نحو موضوع واحد. ولهذا السبب، يتكشف التفكير المؤامراتي عن نزعة قوية عند البشر لتحديد جهة معينة يتم تحميلها المسؤولية في الملمّات ومن ثم تحويلها إلى موضوع للعدائية. ويمكن لهذا أن يبدو أحد تجليات قاعدة سيكولوجية أكثر عمومية: كلما تفاقم غضبُ الناس، تنامت كراهيتهم ورغباتهم العدائية.

بهذه الطريقة، وبمعنىً معين، يؤدي التفكير المؤامراتي – أي التفكير الذي يعزو جميعَ الأحداث العالمية إلى مؤامرة ضخمة – الوظيفة نفسها التي تنطوي عليها ظاهرة الجمهرة. فعلى غرار الجمهرة، يملأ التنظيرُ المؤامراتي البشرَ بنوع من الحماسة. ولذلك فإن مشاعر القلق والغضب والاستياء المرتبطة الآن ببعض الصور الذهنية البسيطة تحوّل الحالة السلبية القوية إلى حالةٍ إيجابية (عَرَضية). وبذلك يصبح كل شيءٍ قابلاً للتفسير من خلال إطار مرجعي بسيط؛ لم يعد العالمُ عبثياً واكتسب بُعداً منطقياً؛ يمكن للمرء تحديد العدو وبالتالي توجيه إحباطه وغضبه نحوه؛ يمكنك إعفاء نفسك من المسؤولية والتغاضي عن الحاجة إلى المساءلة الذاتية. وبهذه الطريقة يكتسب التفكير المؤامراتي أهمية سيكولوجية كبيرة. فنتيجة للآثار المتعددة المرتبطة بهذه الصور الذهنية، تعمل هذه الصور على

امتصاص الطاقة الذهنية كلها مثل مغناطيس ذهني ومن ثم تفرض نفسها بصفتها تفسيرات منطقية لجميع الأحداث التي تقع.

لهذه الأسباب مجتمعة يصبح التفكيرُ المؤامراتي مغرياً. ولهذا يتمتع منطق المؤامرة بنزعة إلى الجموح الذي يودي إلى نوع من العبث، حتى بين الأشخاص العقلانيين والأذكياء. كما أن هناك نوعاً من الريبة العميقة التي تقود الكثير من الأشخاص إلى التشكيك بكل ما يؤمن به "التفكير السائد". فعلى سبيل المثال، إذا قالت القصة السائدة إن الأرض كروية فلا بد أنها مسطحة. أضف إلى ذلك أن التفكير المؤامراتي يقود إلى تجريد مجموعة معينة من إنسانيتها (وفي حقيقة الأمر، يجب أن نأخذ فكرة التجريد من الإنسانية بالمعنى الحرفي في بعض الأحيان؛ فالنخبة مكونة من الزواحف والكائنات الفضائية). النخبة شرٌّ صرف، فهي تعمل على إمراضنا بالمواد السامة الموجودة في الأطعمة والبيئة، كما أنها مسؤولة عن غسيل أدمغة الأطفال عبر المناهج التعليمية المتعاقبة، إلخ. وبهذا النوع من التفكير، من السهل المبالغة في المعرفة والسلطة اللتين تمتلكهما النخبة. فالنخبة لا تعاني من الغياب المعرفي الذي يميّز باقي البشر، ولا تعاني من الشك والتردد، ولا تواجه العقبات الطارئة، ولا تخطئ في حساباتها. فهي قادرة على التلاعب بالأحداث العالمية. فالتفكير المؤامراتي يعمل على تضخيم حجم العدو المتخيّل إلى ما لا نهاية فيشعر المرء، في النهاية، بالعجز تجاه عملاقٍ كهذا. وبهذه الطريقة فإن التفكير المؤامراتي ينطوي أيضاً على نوعٍ من التدمير الذاتي.

***

غالباً ما ينشأ التفكير المؤامراتي عن إغواء تلك "المنافع" السيكولوجية أكثر من الحقائق (والذي ينطبق، بالطبع، على أشكال عديدة من التفكير). فغالباً ما يكون المنطق الداخلي قوياً، لكن النظريات تفشل في مقاربة الحقائق. `فعلى سبيل المثال، إذا تعرّفتَ على الأشخاص المتهمين بحياكة مؤامرة ما، فسرعان ما تفقد النظرية مصداقيّتَها بشكل عفوي. فخلال أزمة كورونا، مثلاً، بدأ الكثير من الأشخاص يعتقدون أن الخبراءَ تعمدوا تضليل الناس نتيجة الأخطاء الإحصائية المنهجية والأخطاء الصارخة الأخرى. لا يمكن أن يكون الخبراءُ بهذا الغباء، أليس كذلك؟ ولكن إن تعرّفتَ على الخبراء، فسوف تشعر على الفور أنه لا يمكنك إرجاع هذه الأخطاء إلى الإطار المرجعي البسيط القائم على التلاعب والاستغلال. في شهر تموز/ يونيو من عام 2021، قبيل العطلة الصيفية، التقيت ببعض الإحصائيين

العاملين على النمذجة التي تصوّر مساقَ العدوى. عبّر أحدهم عن قلقه الناجم من تزايد حالات العدوى مرة أخرى. أجبته على الفور: "الكثير من الناس يذهبون لقضاء العطلة خلال هذه الفترة، ويتم فحصهم جميعاً. هل درستم تأثير العدد الكبير للاختبارات المجراة؟"، فنظر إلى زملائه بيأس وقال معترضاً: "لا، ولكن لا أحد يفعل ذلك عند تقدير أعداد حالات العدوى"، ثم "إن توقعات عدد حالات العدوى المبنية على تلك النماذج تتطابق مع عدد حالات الدخول إلى المشافي، أليس كذلك؟" و"رأينا في السنة الماضية ما حدث في الخريف عندما لم نلتزم بتلك النماذج"، إلخ. فات هذا الرجل الذكي أن آراءه كلها أمثلة نموذجية على المقولات المزيفة (الآراء الشعبية، والآراء السلطوية، والإجماع المزيف). إذ لم يكن ليقتنعَ أن المزيد من الاختبارات يقود بالضرورة إلى المزيد من النتائج الإيجابية. هل تذكرون تجربة آش في الفصل السادس؟ إن الجمهرة تُعمي الأذكياءَ والأقل ذكاءً بالطريقة نفسها. فليس من الضروري أن يكون الأشخاصُ جزءاً من مؤامرة ما لكي يرتكبوا الأخطاءَ الغبية بطريقة منهجية.

إضافة إلى ذلك، بدا أن احتكارَ وسائل الإعلام الرسمية لتغطية أزمة كورونا يشير في البداية إلى وجود تلاعب متعمد ومخطط في هذه التغطية. لماذا لا نسمع أية أصوات "مختلفة"؟ كيف يمكن للمرء أن يكررَ المعلومات المغلوطة نفسها مرة بعد أخرى؟ لكنني أعرف بعض الصحفيين من "نقاد كورونا" الذين قالوا لي إنه ليس هناك أي توجيه مخطط أو منهجي لهذه التغطية الإعلامية. صحيح أن هناك ضغوطاً ضمنية. فقد اقترح بعضُ السياسيين، مثلاً، أن الوقت ليس مناسباً لأنواع النقد المختلفة الموجهة ضد السياسة القومية. وقد كان ذلك نوعاً من التأثير غير الديموقراطي على الصحافة – كان الصحفيون يعرفون أن السياسيين لن يزوّدوهم بأخبار تشكل سبقاً صحفياً في حال إفساحهم المجال للأصوات الناقدة – لكن التوصيف الدقيق لهذا هو الرقابة الذاتية أكثر من كونه يشكل نوعاً من الرقابة.

تكوّن لديّ الانطباعُ نفسه من خلال احتكاكي بالسياسيين؛ فهم، بشكل عام، أشخاصٌ تنتابهم الشكوك، ويتساءلون إلى أي حدّ يمكنهم الانزياح عن الإجراءات المتخذة في البلدان الأخرى، ويخشون التعرض للمحاسبة على ضحايا كورونا في حال تخفيفهم للإجراءات المقترحة، ويستجيبون للمطالب الجماهيرية في إسكات الأصوات المناوئة. وهناك، في حقيقة الأمر، بعضُ السياسيين الذين ينتهزون الفرصة لفرض الإيديولوجيا التي يحملونها على المجتمع. ومع ذلك فإن معظم السياسيين يكتفون بالالتزام بالقصة السائدة، ولكي

يفعلوا ذلك ليس عليهم أن يعقدوا أية اجتماعات "سرية".

من باب المصادفة، كنت أنا أيضاً هدفاً لبعض نظريات المؤامرة. فعلى غرار الأشخاص الذين يوجهون الانتقادات بطريقة أو أخرى، تعرضت لتهمة الانتماء لما يسمى المعارضة المدجّنة (أي، التعاون الخفي مع السياسة المتبعة في التعاطي مع فيروس كورونا). فقد بدا أن هدفي الأساسي يتمثل في تهدئة المعارضة وإسكاتها من خلال نظرياتي السيكولوجية. وقد ذهب البعضُ إلى أبعدَ من هذا من خلال اعتقاده بأنني ستاليني.

في المقابلات، أدليتُ بعدد من التوقعات الصحيحة حول مساق أزمة كورونا، مثل أن الإجراءات لن تُرفع بعد طرح اللقاح. بالنسبة إلى بعض العقول المؤامراتية، بدا الأمرُ في غاية البساطة؛ فقد تم إعلامي مسبقاً بهذه الخطة. ومن باب تعزيز عبدَة الشيطان، أعلنتُ أيضاً عن الشرّ الوشيك. حتى يومنا هذا، لا أعرف أنني عضوٌ في أي مجتمع شرير وأعتقد أن "توقعاتي" كانت مبنية على أسس بسيطة. ففي المنطق السيكولوجي لقصة كورونا، لم أجد شيئاً من شأنه أن يحول دون استمرارية الإجراءات بعد طرح اللقاح. فقد كان الخوفُ موجوداً سلفاً قبل أزمة كورونا ولن يتلاشى بعد التلقيح، بغض النظر عن فعالية اللقاح أو فشله. أعتقد أن لي الحق في إبداء رأيي في هذه المسألة مع أنني أفهم أن التفسير القائم على عبادة الشيطان أكثر إثارة بالنسبة إلى بعض الأشخاص.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الأشخاص الذين يعتنقون السردية السائدة نظروا إليّ في بعض الأحيان بصفتي متآمراً. إذ كانوا يرون أنني لا أؤمن بنظريتي حول الجمهرة، بل إن ذلك مجرد لعبة خبيثة للحيلولة دون الدعم الاجتماعي للإجراءات المطروحة؛ فكل ما في الأمر أنني أطمح إلى الحصول على منصب في أحد الأحزاب السياسية اليمينية. أما أنا فلا يسعني سوى القول إنني سوف أفاجأ جداً إن وجدتُ اسمي على أيّ من اللوائح في الانتخابات القادمة.

***

أليس هناك أي نوع من التحكم والتلاعب إذاً؟ والجواب هو نعم بالتأكيد؛ فمن المؤكد أن هناك أنواعاً كثيرة من التلاعب والاستغلال. ومع كل الوسائل المتاحة اليوم أمام وسائل الإعلام الجماهيرية، فإن الاحتمالات تبدو هائلة. لكن هذا النوع من التوجيه والتحكم لا يتأتى عن الأفراد؛ إذ إن التحكمَ الأكبر ليس شخصياً بطبيعته. فالتحكم ينبثق، في الدرجة

الأولى، من الإيديولوجيا التي تنطوي على طريقة في التفكير. فالإيديولوجيات تعمل على تنظيم المجتمع وبنائه بشكل تدريجيّ وعضويّ. فكما بيّنا بشيء من التفصيل في الفصول السابقة، إن الإيديولوجيا السائدة ميكانيكية بطبيعتها. وتستمد هذه الإيديولوجيا جاذبيتها من الرؤية الطوباوية لفردوس زائف (انظر الفصل الثالث). فالعالم والإنسان عبارة عن آلة يمكن فهمها واستغلالها. أما تلك القصورات التي تعاني منها الآلة، والتي تسبب الألمَ والمعاناة، فمن الممكن "إصلاحها" ميكانيكياً. أجل، ربما يمكن استئصال الموت على المدى البعيد. وفوق هذا كله، يمكن القيام بذلك دون حاجة الإنسان إلى التفكير في دوره في البؤس الذي يعاني منه، ودون مساءلة نفسه بصفته كائناً أخلاقياً. إن هذه الإيديولوجيا تسهّل الحياة على المدى القصير؛ أما ثمنُ ذلك فسوف فيُدفع لاحقاً (انظر الفصل الخامس).

يجب أن نموقعَ على هذا المستوى الأساسي القوى "السرية" التي تقود الأفرادَ في الاتجاه نفسه وتعمل على تنظيم المجتمع ككل. فكما الحال بالنسبة إلى الطريقة التي يتخلّق بها مثلث سيربنسكي، إذا التزم الجميعُ بالقواعد نفسها فسوف تتولد أنماطٌ منتظمة في المجتمع. فعلى غرار برادة الحديد المبعثرة في الحقل المغناطيسي، ينظم الأفرادُ أنفسَهم في نمط دقيق تحت تأثير هذه القوى. طالما وقع الإنسانُ فريسة هذه "الإغراءات" المذكورة آنفاً التي تتمثل في وهمِ الفهم العقلاني والسيطرة، ومقاومة المساءلة الذاتية النقدية، والسعي وراء الطمأنينة المؤقتة، إلخ. ففي داخل الخطاب الديني، تبدّت هذه الإغراءات بصفتها أشياء خطيرة، لكن الأمر تغير مع نشوء التفكير الميكانيكي. ومنذ ذلك الوقت تجذرت في السردية السائدة التي تحولت، بدورها، إلى مبرر لوجودها. سُحرَ القادة والتابعون بالإمكانيات الهائلة التي يقدمها العقلُ الإنساني. ولذلك فإن التحول الحاصل نحو مجتمع تكنولوجي مضبوط تماماً – مجتمع الرقابة – أمرٌ حتمي طالما بقي العقلُ الإنساني رهينَ ذلك المنطق وطالما بقي (بشكلٍ لا واعٍ، إلى درجة كبيرة) أسيرَ تلك الإغراءات. هذه هي الإيديولوجيا التي أعادت تنظيمَ المجتمع، وولّدت مؤسساتٍ جديدة، وفرزت شخصياتٍ سلطوية جديدة. فقد شكل الانتقالُ من الديموقراطية إلى التكنوقراطية التوتاليتارية، التي تبدّت فيه أزمة كورونا بمثابة قفزة عظيمة إلى الأمام، جزءاً من منطق الإيديولوجيا الميكانيكية منذ البداية. ففي عالم ميكانيكي، يملك الخبيرُ التقني الكلمة الأخيرة المتأتية من معرفته الميكانيكية المتفوقة.

وبناءً على هذه الإيديولوجيا، تم تخليق مؤسسات ترسم الخطط حول شكل المجتمع المستقبلي وطريقة تعاطي المجتمع المستقبلي المثالي مع الأزمات. وتشكل "عملية

الإغلاق" (Operation Lockstep) الصادرة عن "مؤسسة روكفللر" (Rockefeller Foundation)،(13) و"الحدث 201" (Event 201) الصادر عن "مؤسسة بيل ومليندا غيتس" (Bill and Melinda Gates Foundation) (بالتعاون مع جامعة جون هوبكنز ومؤسسة روكفللر)،(14) وCOVID-19: The Great Reset [كوفيد-19: إعادة الضبط الكبير] لكلاوس شواب Klaus Schwab(15) أمثلة ساطعة على هذه المحاولات. فبالنسبة إلى الكثير من الأشخاص، تشكل هذه الأحداث والمطبوعات دليلاً قاطعاً على أن التطورات الاجتماعية التي نشهدها مرسومة بعناية ومنبثقة عن مؤامرة. فقبل انتشار الوباء بوقت طويل، أشارت هذه "الخطط" إلى عملية الإغلاق نتيجة الوباء، وإلى ظهور جواز بيولوجي، وإلى مراقبة البشر وتعقبهم من خلال مستشعرات مزروعة تحت الجلد، إلخ.

إذا أخذنا بعين الاعتبار تعريف المؤامرة - خطة سرية ومدروسة ومتعمدة وشريرة - فسوف نلاحظ على الفور شيئين اثنين: ليس الأمرُ سراً بما أن "الخطط" المذكورة آنفاً متوفرة على الإنترنت لمن يريد الاطلاع عليها. كما أن مسألة توجيه هذه الخطط لخطاب الخبراء وأفعالهم عبر تعليماتٍ محددة تبقى موضعَ شك وتساؤل، على الأقل. فالمعلومات التي تصدر عن الخبراء مليئة بالتناقضات والمعلومات المتضاربة، والتراجعات والتصحيحات، والشروحات الركيكة والأخطاء الشفافة. لا يبدو هذا كله تنفيذاً لخطة موضوعة ومدروسة بعناية. فإن كان هؤلاء الخبراء متآمرين، فإنهم متآمرون في غاية السوء والرداءة. يمكن للحرب السيكولوجية أن تفيدَ من التخبط والفوضى والرسائل المربكة، لكن ذلك لا يفسر محاولات الخبراء لتصحيح أخطائهم بنوع من الارتباك الجلي والتخبط الواضح.

إن الشيء الثابت الوحيد الذي ينطوي عليه خطابُ الخبراء هو أن القرارات تدفع دوماً نحو تخليق مجتمع مضبوط من الناحية التكنولوجية والطبية الإحيائية؛ وبكلمات أخرى، نحو تحقيق الإيديولوجيا الميكانيكية. ومن هذا المنظور، يمكننا أن نرى المشاكلَ المتجسدة في أزمة كورونا على غرار المشاكل الناشئة من أزمة التكرار في البحث العلمي: متاهة من الأخطاء والتناقضات والنتائج القسرية التي يؤكد فيها الباحثون، بشكل غير واعٍ، مبادئهم الإيديولوجية (أو ما يسمى "أثر الولاء"، انظر الفصل الرابع).

في عملية ممارسة السلطة - أي، تشكيل العالم تبعاً للمعتقدات الإيديولوجية - ليس هناك حاجة لرسم الخطط والترتيبات السرية. فكما يقول نعوم تشومسكي Noam

Chomsky، إن كان عليك أن تقولَ لأحد ما يجب عليه أن يفعله، فقد أسأتَ الاختيار.(16) وبكلمات أخرى، تختار الإيديولوجيا السائدة أولئك الذين يحتلون المناصبَ المهمة. فمن لا يعتنق الإيديولوجيا السائدة لا يحقق نجاحاً كبيراً في المجتمع، إلا في حالات استثنائية نادرة. وبالتالي فإن جميع الأشخاص الذين يتمتعون بالسلطة يتبعون بشكل آلي القواعدَ نفسها في تفكيرهم وسلوكهم ويقعون تحت تأثير "الإغراءات" نفسها (لكي نستخدمَ مصطلحاً مأخوذاً من نظرية الأنظمة الدينامية المعقدة). وفوق ذلك فإنهم يخضعون جميعاً للمغالطات المنطقية نفسها والسلوك العبثي نفسه لأنهم يعتنقون - بشكل منفصل عن بعضهم بعضاً، أو على الأقل دون الحاجة إلى عقد الاجتماعات السرية - المنطقَ المشوّه نفسه. قارن هذه العملية مع كمبيوترات تعمل على السوفتوير الخاطئ نفسه؛ سوف ينحرف "سلوكها" و"تفكيرها" في الاتجاه نفسه، دون الحاجة إلى "التواصل" مع بعضها بعضاً. هذا هو ما يبيّنه لنا مثلث سيربنسكي تماماً: يمكن للأنماط المنتظمة المذهلة أن تنشأ لأن الأفرادَ يتبعون، بشكل مستقل ومنفصل، القواعدَ السلوكية البسيطة نفسها وينجذبون إلى الإغراءات نفسها. فالسيد المطلق يتمثل في الإيديولوجيا وليس في النخب.

لا يتم "قسر" تلك الخطط والرؤى المستقبلية على الناس بالدرجة التي يتخيلها البعض. إذ إن قادة الجماهير - أو ما يسمى بالنخب - يمنحون الناسَ ما يرغبون فيه. فعندما ينتابهم الخوف، يطالبون بتشديد الضوابط المجتمعية؛ فقد جاءت عملياتُ الإغلاق، بالنسبة إلى الكثيرين، بمثابة تحرر من الروتين العبثي الثقيل للعمل، كما أن المجتمع المتشظي كان بحاجة إلى عدوّ مشترك، إلخ. إذ إن "الخطط" لا تسبق التطورات، كما يروق للمنطق المؤامراتي القول، لكنها تليها. فالذين يوجهون الجماهير ليسوا "قادة" يحددون وجهة هذه الجماهير. لكنهم يستشعرون ما يتوق إليه الناس ويكيّفون خططهم تبعاً لذلك بطريقة انتهازية. إنهم يرفلون في نرجسية من يتحكم بسلسلة الأحداث ويعمل على توجيهها، لكنهم أشبه بطفل يجلس في مقدمة السفينة ويحرك عجلة بلاستيكية يلهو بها في كل مرة تغير السفينة اتجاهها. أو يمكننا التفكير في الملك كنوت Cnut الذي وقف أمام البحر الهائج وأمر الأمواجَ بالتراجع ثم امتلأ غبطة وفخراً بعد انحسارها الفعلي. ويذهب الأمر إلى أبعد من هذا في بعض الأحيان إلى درجة أن بعض هذه المؤسسات قد تبنّى أفلاماً سينمائية سابقة للإيحاء بقدرتها على التنبؤ بالمستقبل. (على غرار تبنّي فيلم Kosmos-Digi بطريقة توحي بتنبؤ مساق أزمة كورونا كما حدثت تماماً.(17)) ومن باب المفارقة أن التفكير المؤامراتي يعزز نرجسية القادة من خلال أخذهم على محمل الجد والاعتقاد بأنهم يوجهون

السفينة بالفعل، أو يدفعون الأمواجَ إلى التراجع والانحسار.

هناك أمثلة كثيرة أخرى تدلّل على خطط قيد التنفيذ، مثل تعديل تعريف "الوباء" قبيل أزمة كورونا؛ وتغيير تعريف "مناعة القطيع" أثناء الأزمة بشكل يفيد أن اللقاحات وحدها هي القادرة على تحقيق هذه المناعة؛ وأن منظمة الصحة العالمية قد عدَلت طريقة إحصاء الوفيات الناجمة عن كوفيد-19 بحيث تبدو أعلى من الوفيات الناجمة عن الإنفلونزا؛ وأن منهجية تسجيل الأعراض الجانبية للقاح تقود حتماً إلى التقليل من أهميتها (مثلاً، من خلال تصنيف الأعراض الجانبية التي تظهر خلال الأسبوعين التاليين للتلقيح كأعراض لا علاقة لها باللقاح)؛ وأن جميع المناصب السياسية الرئيسة عند بدء الأزمة كانت تعود لأشخاص من التكنوقراط (يشار إليهم باسم "قادة العالم الشبان" الذين يرأسون "المنتدى الاقتصادي العالمي")؛ إضافة إلى الكثير من الأمثلة الأخرى.

هذه أيضاً أمثلة على الطريقة التي تهيمن فيها إيديولوجيا معينة على المجتمع، وليست دلائلَ على تنفيذ مؤامرة ما. إذ تحدث أشياء مشابهة أثناء عمليات إعادة التنظيم في الشركات الكبرى والمؤسسات الحكومية. ففي حقيقة الأمر، يجب على كلّ من يحاول إعادة هيكلة شركة أو مؤسسة ويحتلّ المنصبَ المناسب أن يعدلَ القوانين هنا وهناك بطريقة يراها متناغمة مع الأهداف المرجوة من هذه العملية. كما أنه يفعل كلّ ما بوسعه لتعيين الأشخاص المناسبين في المواقع المناسبة مسبقاً ويسعى إلى تكييف تلك العقول وتنسيقها لخدمة إعادة التنظيم أو البناء عبر جميع الوسائل والطرق المتاحة الرسمية وغير الرسمية. فأي شخص يعيش هذه التجربة عن قرب في شركة أو مؤسسة لن يفكر فيها كنوع من المؤامرة. وربما يمكننا القول إن كل متعضّية بيولوجية تفعل الشيء نفسه؛ أي أنها تحاول تكييف بيئتها في الاتجاه المرغوب.

ولكن في بعض الأحيان يمكن لهذه الممارسات المذكورة آنفاً أن تتحول إلى شيء لا يشي ببنية المؤامرة. كما تستخدم المؤسسات الضخمة أنواعاً كثيرة من الاستراتيجيات المشبوهة التي تهدف إلى فرض قيمها على المجتمع، وقد تزايدت الوسائلُ المستخدمة في هذه العمليات بشكل كبير خلال القرون الأخيرة. فقد قادت عمليات المَكنَنة، والتصنيع، و"التكنَنة" (technologization)، و"الوسائطية" (mediatization) التي شهدها العالم إلى تمركز السلطة، ولا يمكن لأي شخص عاقل أن ينكرَ الطبيعة القاسية التي تميز السعي الحثيث إلى هذه السلطة، بما ينطوي عليه ذلك من غياب لجميع أشكال الوعي الأخلاقي.

فهناك وثائق كثيرة تدلل على ذلك سواء في الحكومات، أو صناعة التبغ، أو اللوبي الدوائي؛ حيث تنتشر عمليات الرشوة والتلاعب والاحتيال. ولا يمكن لأي مسؤول يرفض الانخراط في هذه الممارسات أن يحتفظ بمنصبه لوقت طويل.

من خلال سعيها لفرض قيَمها ومُثلها على المجتمع، تقوم المؤسسات – والأفراد أيضاً – بتجاوز الحدود الأخلاقية، وعندما يتجاوز الأمرُ حداً معيناً يمكن لاستراتيجياتها أن تنحدر إلى مستوى المؤامرة الفعلية؛ أي إلى مشروع مدروس ومخطط وشرير. ومن المعروف أيضاً أنه مع استمرار عملية التحول التوتاليتاري، يتم تصميم النظام التوتاليتاري بشكل متزايد على هيئة "مجتمع سري".(18) فعلى سبيل المثال، رأينا أن "الهولوكوست" جاء نتيجة عملية جمهرة مذهلة أعمت المرتكبين والضحايا على حد سواء وأغرقتهم في آلية جهنمية (انظر الفصل السابع). ولكن، على مستوىً معين، كانت هناك أيضاً خطة مدروسة تهدف – بشكل منهجي – إلى تحقيق النقاء العرقي من خلال التعقيم وإبادة العناصر الشائبة. فقد كان هناك نحو خمسة أشخاص عملوا، بدقة ومنهجية، على تحضير آليات الإبادة الجماعية، كما نجحوا في دفع النظام إلى التعاون معهم بشكل أعمى على مدىً زمني طويل. وقد اتُّهم أولئك الذين شاهدوا ما يحدث – أي أن معسكرات الاعتقال هي عبارة عن معسكرات إبادة – بأنهم... يؤمنون بنظرية المؤامرة.(19)

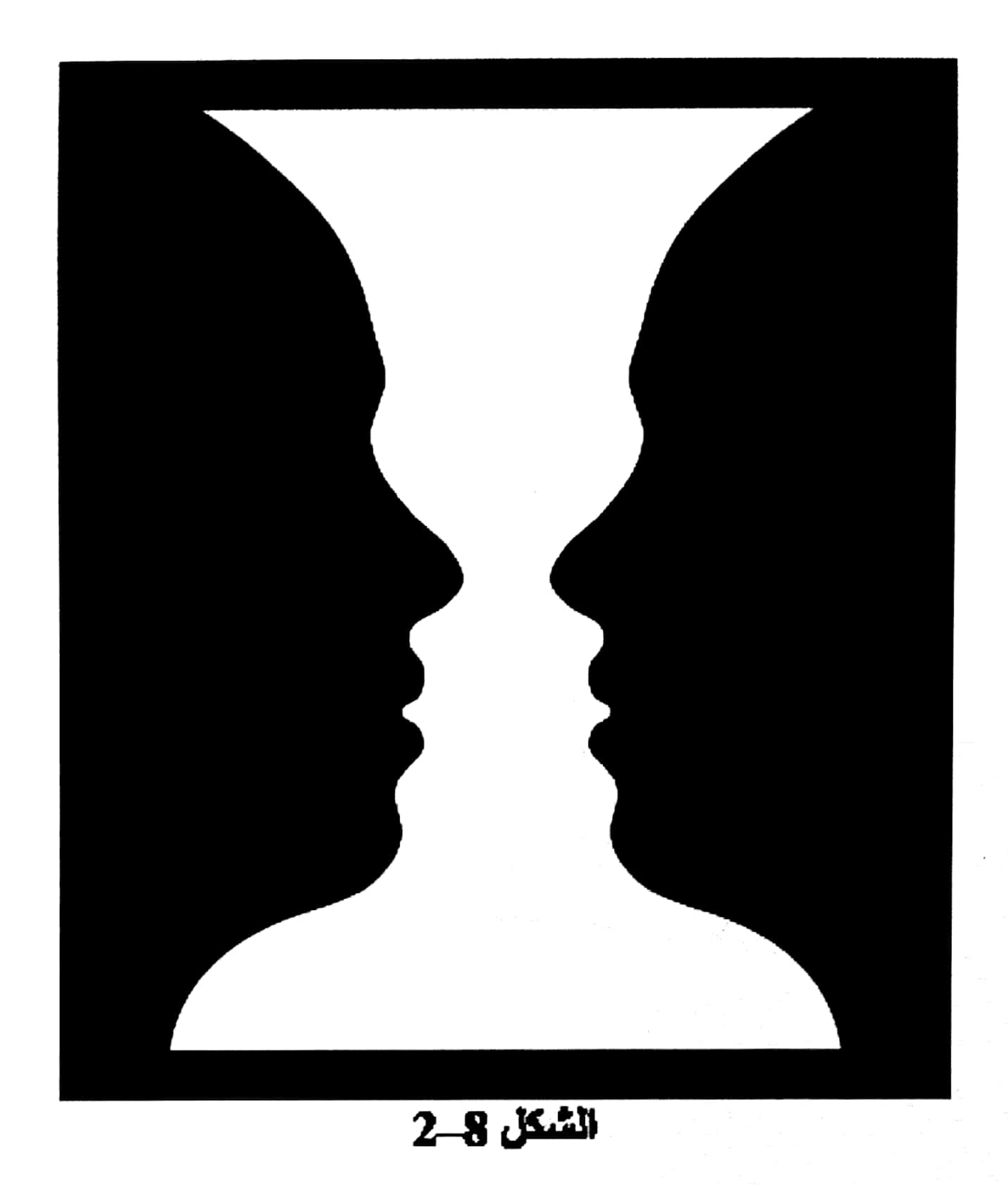
لكن تحضير مثل هذه الخطط وتنفيذها ليس حكراً على الأنظمة التوتاليتارية. فخلال القرن العشرين، تم تعقيم أعداد كبيرة من الرجال والنساء من ذوي المادة الوراثية "المتدنية" بشكل سري تبعاً لعقيدة علم الأنسال. وفي سنة 1972، كان مصطلح "علم الأنسال" (eugenics) قد اكتسب دلالات سلبية جداً فتم استبداله بمصطلح "البيولوجيا الاجتماعية" (social biology)، لكن الممارسة بقيت هي نفسها واستمرت إلى القرن الواحد والعشرين (مثل تعقيم السجناء في كاليفورنيا من دون موافقة السجناء).(20) فهل هناك أي سبب يدفعنا إلى الاعتقاد بتوقف مثل هذه الممارسات في السنوات الأخيرة؟

إن حقيقة غياب أية إمكانية، في المناخ الاجتماعي الحالي، لفضح هذا الفساد في ممارسة السلطة شيء في غاية الخطورة. ففي هذا يتجسد الأثرُ المدمر لنشوء الجماهير؛ إذ إنها لا تتقبل أية آراء مختلفة بحيث تسارع إلى توصيف أي تحليل للأثر الخطر الذي تخلّفه المؤسسات أو الشركات، إلخ، على أنه نوع من "نظرية المؤامرة". إن حبَّ الجهل يتنامى بطريقةٍ غير مسبوقة. ومن باب المفارقة أن التفكير المؤامراتي يساهم في هذه المشكلة لأنه

يحجب التحليلات الدقيقة ويعرّضها للوصم والتشويه. فهي نتاج العقلية نفسها وجديرة بالقدر نفسه من الازدراء.

من شأن هذا أن يصعّبَ على الجميع تقييم وجود التلاعب الخبيث ودرجة تفشّيه. فإما أن يُقابلَ بالتجاهل التام أو يُعتقد بوجوده في كل مكان. ويمكننا دوماً مَوقعة هذين الموقفين المتعارضين على مستوىً عاطفي-متهور؛ فكلاهما يتدخل برغبة فكرية مخلصة لمعرفة الحقيقة. وفي النهاية، فإن مجموعة صغيرة من الأشخاص هي التي تنجح عادة في تفادي هذه القوى وتتمكن من تقديم تقييمات تتميز بالدقة والموضوعية.

يساهم هذا في نشوء نوع من الاستقطاب في المجتمع الذي ينقسم، نتيجة ذلك، إلى معسكرين: مجموعة ضخمة (الحشد) تؤمن بكل ما تقدمه وسائلُ الإعلام الرسمية بغض النظر عن درجة عبثيّته؛ ومجموعة أخرى لا تثق أبداً بالقصة نفسها. وكما هو الأمر في الرسم الشهير لإدغار جون روبن Edgar John Rubin (انظر الشكل 2-8)، حيث يمكن للمرء أن يرى مزهريةً أو وجهين، مع استحالة رؤية الشيئين معاً في الوقت نفسه، فإن هاتين المجموعتين تريان في التطورات الاجتماعية صورة مختلفة للواقع ولا يمكن لإحداهما أن تتخيل أن المجموعة الأخرى ترى صورة مختلفة تماماً.



الشكل 8–2

هناك دوماً احتمالٌ لوقوع مواجهة عنيفة بين هاتين المجموعتين. ويمكن للتفكير المؤامراتي نفسه أن يساهمَ في نشوء ظاهرة جماهيرية. ويأتي صيدُ الساحرات في العصور الوسطى، الذي أتى على معظم نساء بعض المدن والبلدات، مثالاً على هذه الظاهرة. كما لعبت نظرياتُ المؤامرة، كتلك المتمثلة في **بروتوكولات حكماء صهيون**، دوراً مهماً في نشوء الجماهير المعادية للسامية في الشرق الأوسطِ وألمانيا النازية. قلّدت الدعاية النازية **البروتوكولات** بطرق عديدة؛ فقد كان هاينرش هملر Heinrich Himmler وأدولف هتلر يحفظانها عن ظهر قلب.(21) فقد تبنّى النازيون فكرة تحميل نخبة يهودية صغيرة المسؤولية الكاملة عن جميع أنواع المعاناة بطريقة ضيقة وسببية. كان هذا التفكير السببيّ شيئاً متوحشاً بحد ذاته، لكن العبثية المتأصلة في الجماهير أكدت أن السبب لا يعود إلى النخبة اليهودية فقط بل يمتد إلى ملايين اليهود العاديين الذين ذهبوا ضحية هذا التفكير العبثي.

بهذه الطريقة، يمكن للتفكير المؤامراتي أن يمثلَ ردة فعلٍ على الجمهرة وتأويلاً لها، ولكن يمكن أن يساهمَ أيضاً في نشوء الجمهرة نفسها. ولكن ليس من المتوقع الآن أن تقودَ السرديات المؤامراتية الحالية إلى أنواع ضخمة من التشكيلات الجماهيرية. وقد أشارت آرندت في عام 1951 إلى أن الجماهيرَ المستقبلية سوف تكون بليدة وبيروقراطية وتكنوقراطية بطبيعتها.(22) ففي يومنا هذا، تقود نظرياتُ مؤامراتية معينة مثل QAnon إلى جمهرات صغيرة، كما رأينا عند اقتحام Capitol في الولايات المتحدة. وبهذه الطريقة، يمكن لحشد صغير أن يواجه حشداً ضخماً. لكنّ الحشد الصغير سوف يخسر في أية مواجهة فعلية. وبذلك فإنه يشهد، بطريقته الخاصة، على العمى ونزعة التدمير الذاتي المتأصلين في ظاهرة الجمهرة. وإن أردنا إبطاء الجماهير، علينا أن نفعل ذلك بوسائلَ سيكولوجية (نتناولها لاحقاً في هذا الفصل). أما العنف المادي، من جهة أخرى، فسوف يعمل على إثارة الجماهير وترسيخ قناعتها باستقامتها الأخلاقية وواجبها المقدس الذي يُملي عليها قمعَ الأقليات وتدميرها.

لذلك يجب التعامل مع التفكير المؤامراتي بقدر كبير من الحذر والرويّة، على مستوىً فكري وأيضاً على مستوى أخلاقي وبراغماتي. فغالباً ما ينشأ كتفسير لظاهرة الجمهرة، لكنه ينزع إلى الانزياح عن مساره ليقود إلى نظريات تنأى عن الرؤية الدقيقة للواقع ويؤدي، على المستوى السيكولوجي، إلى رؤىً تبسيطية وكاريكاتورية. قدمت آرندت إجابة معتدلة ومقنعة عن السؤال المتعلق بربط الجمهرة والتوتاليتارية بالمؤامرة: هناك بُعدٌ مؤامراتي معين في معظم الاضطرابات الاجتماعية – ربما يجد أولئك الممسكون بزمام السلطة أنفسَهم مضطرين للتوصل إلى قرارات خلف الأبواب المغلقة – ولكن غالباً ما يكون عرضة للمبالغة السهلة. فإن كان هناك من يحكم من خلف الستار، فهو ليس المجتمعات السرية بل الإيديولوجيات. هناك قوة تعمل على التوجيه والتنظيم، لكنها لا تتكون من نخبة تآمرية تدير العالمَ بطريقة مخططة ومنسقة بل من إيديولوجيا ترتكز على طريقة فكرية نمطية. وبكلمات تشارلز آيزنشتاين Charles Eisenstein الرافضة للتأويل الأحادي المستند إلى المؤامرات: "إن الأحداث منسّقة فعلاً باتجاه المزيد من التحكم والسيطرة، لكن هذه القوة المنسِّقة لا تتعدى كونها نوعاً من الفكر السائد، أو الإيديولوجيا... أو الأسطورة (لكنها ليست مؤامرة)".(23) لا تعزو آراءُ من هذا النوع السببَ المحرك للآليات الاجتماعية إلى مصدر واحد. إذ يساهم المجتمع كله في نشوئه بطريقة أو أخرى. ولهذا السبب تفشل هذه المقولة الدقيقة في إقناع المتعطشين إلى اليقين والراغبين في توجيه غضبهم وإحباطهم نحو

طرف واحد يحمل المسؤولية الكاملة.

***

في الفصول الثلاثة الأخيرة، تناولنا سيكولوجيا الجمهرة والتوتاليتارية من الناحية النظرية. وهنا، من المفيد أن نطرحَ السؤال التالي: هل يمكننا الإفادة من هذه النظرية في الحقل العملي؟ تركّز تحليلُنا، بشكل رئيس، على التعقيد الذي تتميز به الظاهرة؛ فتفسيرها استناداً إلى مؤامرة كبيرة لا يفيدنا في أي شيء. ولهذا السبب علينا أن نستنتج، أولاً وقبل كل شيء، أن حلَّ المشكلة لا يكمن في الاستئصال العنيف لنخبة شريرة. إن جوهرَ مشكلة التوتاليتارية يكمن في آليات التشكل الجماهيري الضخمة. ويعني هذا أن استئصالَ القادة التوتاليتاريين سيكون ضرباً من العبث لأنهم قابلون للاستبدال. وقد عبّرت آرندت عن هذه الفكرة بالطريقة التالية:

إن القائدَ التوتاليتاري، بحد ذاته، لا يعدو كونَه أداةً في يد الجماهير التي يقودها؛ فهو ليس شخصاً متعطشاً للسلطة يفرض إرادتَه الاستبدادية التعسفية على رعاياه. وبما أنه مجرد أداة وظيفية، يمكن استبداله في أي وقت، كما أنه يعتمد على الجماهير التي يجسّد أهدافَها بقدر ما تعتمد هذه الجماهير عليه.(24)

فالقائد، إذا صحّ التعبير، هو رأس هرم الحركة الجماهيرية، وفي حال استئصاله سوف يُستبدَل دون أن يؤدي ذلك إلى زعزعة النظام القائم.

إن العنفَ كردٍّ على الجمهرة والتوتاليتارية مؤثّر بالطبع عندما يتأتى عن قوى خارجية معادية للنظام التوتاليتاري – على غرار حرب "الحلفاء" ضد ألمانيا النازية – لكنه لا يؤدي إلى المقاومة الداخلية وغالباً ما يؤدي إلى نتائجَ مغايرة. فعندما تلجأ المعارضة إلى العنف، يرى الحشدُ في ذلك نوعاً من التبرير لإطلاق العنان لإحباطه وعدائيته الكامنة في وجه من يعتبره بمثابة عدو (أولئك الرافضين لفكرة "التضامن الجديد").

أشارت آرندت إلى أن المقاومة السلمية، من جهة أخرى، ناجعة جداً في مواجهة التوتاليتارية.(25) وتصل إلى هذا الاستنتاج استناداً إلى الأمثلة التاريخية – مثل، التأثير الكبير للرفض القاطع للحكومة الدنماركية والشعب الدنماركي للمشاركة في الإجراءات المعادية للسامية التي حاول النازيون فرضها، لكنها لا تقدم أي تفسير سيكولوجي. يمكننا أن نفعل ذلك، إلى درجة معينة، على أساس التوصيف السيكولوجي الذي سبق لنا أن قدمناه.

كما يمكننا توصيف فكرة "المقاومة السلمية" بطريقة أكثر دقة.

تقع الجماهير وقادتُها في قبضة سردية إيديولوجية ملونة، حيث تتعرض الجماهير للتنويم المغناطيسي ويقع القادة تحت وطأة نوع من التنويم الذاتي. وكلاهما، إن صحّ التعبير، أسيران لصوتٍ معين (راجع أهمية التلقين العقائدي والدعاية الإعلامية الجماهيرية في الفصل السادس). فالجمهرة، كشكلٍ من أشكال التنويم، هي ظاهرة يقع فيها الأفرادُ أسرى لصوت رنّان يتمثل في صوت قائد الحشد. ولكن لا يخضع الناسُ جميعهم لهذه العملية. حدّدنا، في الفصل السادس، ثلاث مجموعات تتشكل مع نشوء الجمهور: الجماهير نفسها، التي تصدق القصة وتتعرض لـ"التنويم" (وتشكل نحو 30% من السكان)؛ ومجموعة لا تتعرض للتنويم لكنها تقرر ألا تسبح ضد التيار (وتشكل نحو 40–60%)؛ ومجموعة ثالثة لا تتعرض للتنويم وتقاوم الجماهير (وتتراوح بين 10 و30%).

تتمثل النزعة الأولى لأعضاء هذه المجموعة الثالثة في إيصال أصواتهم بأكبر قدر من الصدق والشفافية لكي يَحولوا دون الهيمنة المطلقة للصوت المنوِّم السائد. وتتنوع الطرق التي يحصل بها هذا خلال عملية التشكل التوتاليتاري (فالصوت المخالف أكثر عرضة للرقابة والقمع في وسائل الإعلام الجماهيرية والفضاء العام)، لكن الفرص تبقى موجودة دائماً. ويؤثر الصوتُ المختلف دوماً على المجموعتين الأخريين. فكما بيّنَ غوستاف لو بون في القرن التاسع عشر، غالباً ما تفشل الأصوات المناوئة (أي أصوات المجموعة التالية) في إبطال العملية التنويمية التي تخضع لها المجموعة الأولى، لكنها تعمل على التخفيف منها وتمنع الجماهير من ارتكاب الأعمال الوحشية. كما يتمتع القادة بحساسية خاصة تجاه الأصوات المناوئة، وهذا ما بيّناه في الفصل السابق حين أشرنا إلى "يقظة" القادة النازيين الذين أُرسِلوا إلى الدنمارك وبلغاريا. وعلى المرء أن يُسمعَ صوتَه للآخرين بطريقة هادئة ومحترمة بعيدة عن القسرية ودوماً بنوع من الحساسية تجاه التوتر والغضب اللذين يولّدهما هذا الصوت مع الاحتفاظ بنوع من التصميم والإصرار. ومع أن الصوتَ المختلف يولد الرفضَ، والعدائية في ظروف معينة، يجب أن ندركَ حاجة الجماهير إلى هذا الصوت كيلا تقعَ فريسة لنفسها. قدمنا توصيفاً لهذا الموضوع في الفصل السابع: إذا لاذت المعارضة بالصمت، فإن النظامَ التوتاليتاري يتحول إلى وحش يلتهم أبناءَه أنفسهم. ولهذا السبب، يتوهَم كلّ من يعتقد أن الصمتَ هو الخيارُ الأكثر أماناً من أي طرف كان.

يؤثر الصوتُ المختلف أيضاً في المجموعة الثانية التي تختار التواطؤ دون أن تتعرض

للتنويم. فعلى خلاف المجموعة الأولى، تتفاعل هذه المجموعة مع الآراء العقلانية. ولذلك على الصوت المناوئ أن يحلّلَ ويدحضَ التلقينَ العقائدي والدعاية الكامنين في السرد التوتاليتاري بأوضح وأقوى الطرق الممكنة. وليست هذه بالمهمة العسيرة، بما أن الخطابَ التوتاليتاري – وخاصة من ناحية استخدامه المفرط للأرقام والإحصائيات – ينطوي على عبثية فاقعة. فبالنسبة إلى المعارضة، يتمثل الأمرُ في اختراق شبكة المظاهر، بشكل متكرر ومتواصل عبر الأقنية (المحدودة) المتوفرة لهذا الغرض، والكشف قدر الإمكان عن الطريقة التي يتم بها تخليقُ صورة مزيفة. ومن الجدير بالذكر هنا أن على الآراء المعارضة ألّا تهدف إلى عكسِ عملية الجمهرة والعودة إلى الحالة السائدة السابقة ("الوضع العادي القديم") لأنها هي التي شكلت المناخَ الملائم لنشوء الجمهرة – من المعاناة والقلق السيكولوجي العميق الذي قمت بتوصيفه في الفصل السادس (الشروط السيكولوجية الأربعة لنشوء الجمهرة). فمحاولة إقناع الناس بالعودة إلى تلك الحالة غير مفيدة، فضلاً عن أنها ستولّد أثراً معاكساً؛ إذ سيتمسك الأشخاصُ الواقعون في قبضة الجمهرة بعناد أكبر بالسردية التي يحملونها. وبشكل عام، يجب على الآراء المعارضة أن تتشكلَ بطريقة منضبطة ومنظمة، من خلال مجموعات نشطة منظمة متخصصة في مواضيعَ وقضايا معينة. ويوفر تشكيلُ هذه المجموعات، بحد ذاته، نوعاً من الترياق لأحد أسوأ الآثار التي تخلفها التوتاليتارية والذي يتمثل في تدمير الروابط والبنى الاجتماعية.

وأخيراً فإن المجموعة الثالثة تتحدث عن نفسها. فعادة ما تصبح هذه المجموعة، إلى درجة ما، موضوعَ إحباط الجماهير وعدائيتها (انظر الفصل السادس). إذ يتم تجريدها من إنسانيتها وتصويرها على أنها مكونة من مخلوقات دونية. فإن توقفت هذه المجموعة عن إبداء رأيها فإنها تؤكد بذلك التهمة الملصقة بها. فالكلام والتفكير المنطقي هما اللذان يميزان البشرَ عن الحيوانات؛ ولذلك فإن الإقلاع عن الكلام يمهّد لتجريد الكائن البشري من إنسانيته. ويكشف هذا بحد ذاته عن أهمية التعبير عن الرأي بأكبر قدر من الهدوء والحكمة. ولكنْ هناك سببٌ آخر للقيام بذلك؛ فالكلام يقود إلى تجاربَ تنطوي على المعنى والوجود، على الأقل إن حاول المتكلمُ التعبيرَ عن حقيقته الذاتية بنوع من الصدق والإخلاص. فليس من الضروري للرأي المعارض أن يكون تكتيكياً أو بلاغياً بطبيعته، بل يجب أن يأتي حقيقياً وصادقاً (انظر الفصل السابع). وحتى لو لم يؤثر التعبيرُ عن الرأي في الآخر، فإنه يؤثر في ذات المتكلم نفسه. فمن خلال هذا الإفصاح عن الحقيقة تكتسب عبثية التوتاليتارية معناها؛ فأولئك الذين يرفضون الوقوع تحت تأثير الجنون الجمعي ويستمرون بالتعبير عن

آرائهم المناوئة بصدق وهدوء يرتقون بإنسانيتهم من خلال ذلك. اقرؤوا، على سبيل المثال، شهادة سولجنتسن الصارخة على الآثار التي تركها عليه التعبير عن الرأي والكتابة خلال السنوات الثماني التي قضاها في معسكرات الأعمال الشاقة.(26)

تتمثل المهمة الأولى والأساسية في الاستمرار في التعبير عن الرأي. فكل شيء يقف أو يسقط مع هذا الفعل التعبيري. إذ إنه يصبّ في مصلحة جميع الأطراف. فالطريقة التي يحدث بها هذا الفعل التعبيري – من خلال الكتب، والمنشورات، والمقابلات، وأمام الكاميرات، وفي المخازن التجارية أو على مائدة الطعام، وبرفقة مجموعات صغيرة أو كبيرة من الأشخاص – لا تحمل أهمية كبيرة؛ فكل من يعبر بطريقته الخاصة عن الحقيقة يساهم في شفاء العلّة المتمثلة في التوتاليتارية. فليس من الضروري تكاتف عدد كبير من الأشخاص لتشكيل مجموعة اجتماعية مؤثرة. تذكروا أن الجماهير (أي ذلك الجزء من السكان الواقعين في قبضة التوتاليتارية) لا يشكلون أكثر من 30% من مجموع الشعب، وأن 40 أو 50% من أولئك الذين ينصاعون لهم إنما يفعلون ذلك لأن الجماهيرَ تشكل الكتلة المتراصة الأكبر وتمتلك الصوتَ الأعلى المقنعَ بالنسبة إليها. لكن العبثية التي يتحلى بها خطابُ الجماهير تساهم في إضعافها. فإن استطاعت النسبة المتبقية، التي تتراوح بين 10 و20%، تشكيلَ مجموعة مضادة (دون أن تتحول إلى حشد!) وتقديم صوت بديل مؤثر بطريقة عقلانية، فسوف تتمكن هذه المجموعة من تفكيك عملية الجمهرة أو، على الأقل، تحرير المجتمع من براثنها. كما يتوجب على هذه المجموعة المناوئة أن تتذكر دوماً أن الجماهير (والنظام التوتاليتاري) تحمل بذورَ دمارها الذاتي وتنتهي بتدمير نفسها في نهاية المطاف (انظر الفصل السابع). إذ ليس من الضروري التغلب على النظام التوتاليتاري بقدر ما تتوجب النجاة منه بانتظار أفوله الذاتي.

يمكننا أيضاً التفكير في خيار استراتيجي آخر للتعاطي مع ظاهرة الجمهرة، ويتمثل هذا الخيار في استبدال موضوع للقلق بموضوع آخر. فالجمهرة تحدث عند ارتباط القلق العائم المنتشر بموضوع يجسد هذا القلق (انظر الفصل السادس). ويمكن فك هذا الارتباط عند تقديم موضوع آخر يثير قدراً أكبر من القلق. فعلى سبيل المثال، يمكن للمرء تعميم سرد بديل يموقع النظامَ التوتاليتاري نفسه بصفته موضوعاً للقلق (مما يعمل على إبراز النتائج الوخيمة للتوتاليتارية). فإن قدمت هذه القصة، في الوقت نفسه، استراتيجية للتعامل مع موضوع القلق الجديد، يمكن للمرء عندها إعادة توجيه القلق عند الأفراد وترسيخه بشكل

أكبر. ويمكن لهذا أن ينجح إلى درجة معينة. فإن تم تطبيق هذه الاستراتيجية بشيء من الاعتدال، سوف يشكل ذلك تحذيراً من خطر حقيقي يستند إلى سبب وجيه. أمّا إذا وضعنا ذلك بمثابة الاستراتيجية الرئيسة، التي تتركز بشكل كامل على إثارة القلق، فإننا نتجاوز الحدودَ الأخلاقية وننزلق في عملية تهدف إلى تجريد الأفراد من إنسانيتهم، وهو شيء لا يختلف كثيراً عن السمة المميزة لعملية الجمهرة.

***

قدمتُ بعضَ التوجيهات الضرورية للوقاية من الآلية السيكولوجية لعملية الجمهرة. وبالطبع فإن هذه التوجيهات سطحية بحد ذاتها. إذ تتخلّق الجمهرة والتوتاليتارية من التفكير الميكانيكي (كما رأينا في الفصول الخمسة الأولى من هذا الكتاب). ولهذا السبب، علينا الخروج من الإيديولوجيا الميكانيكية للتوصل إلى حلّ اجتماعي ثقافي ناجع. سوف نبحث، في الفصول الثلاثة الأخيرة، إمكانية انطواء الإيديولوجيا الميكانيكية على بعض المنافذ التي يمكن أن تقدمَ لنا رؤية أخرى للعالم والبشرية.

الجزء الثالث

ما وراء الرؤية الآلية للعالم

الفصل التاسع

الكونُ الميت مقابل الكون الحيّ

نقدّم فيما يلي التفكير السببي الذي استعرضناه في هذا الكتاب: دفعت الإيديولوجيا الميكانيكية المزيدَ من الأفراد إلى حالة من العزلة الاجتماعية التي تتميز بغياب المعنى والقلق العام والتوتر، بالإضافة إلى التوتر والعدائية الكامنين. وقد قادت هذه الأوضاع إلى ترسّخ الجمهرة على نطاق واسع، كما قادت هذه الجمهرة بدورها إلى نشوء أنظمة الدولة التوتاليتارية.

ولذلك فإن الجمهرة والتوتاليتارية يشكلان عرَضين من أعراض الإيديولوجيا الميكانيكية. فعلى غرار العرَض الفيزيولوجي أو السيكولوجي، تدلّل هذه الأعراض الاجتماعية على مشكلة كامنة تتمثل، في هذه الحالة، في شعور قسم كبير من السكان بالعزلة الاجتماعية ومعاناته من حالة طاغية من القلق والعبثية. وعلى غرار الأعراض الفردية أيضاً، فإنها تولّد نوعاً من المكسب المرَضي. إذ تحوّل، مثلاً، تجاربَ العزلة الاجتماعية والخوف إلى وهم بالترابط. وكما هو الأمر في حالة الأعراض الفردية أيضاً، فإنها تولّد هذا المكسب المرَضي دون أن تتمكنَ من حلّ المشكلة الأساسية نفسها.

من هنا تنشأ الحاجة إلى تحليل للمشكلة الرئيسة المتمثلة في سبب العرَض، أي الإيديولوجيا الميكانيكية. إن المجتمعات محاصرة بالأفكار. والتغيير الرئيس الذي نحتاج إليه كمجتمع لا يتمثل في تغيير الآليات العملية بل في تغيير الوعي نفسه. تناولنا، في الجزء الأول من هذا الكتاب، المشكلات السيكولوجية التي تتأتى عن الإيديولوجيا الميكانيكية، وسوف نتناول في الجزء الأخير الآلية التي تمكّننا من تجاوز هذه الإيديولوجيا. في هذا الفصل، سوف نبحث في واحدة من الخصائص الجوهرية للإيديولوجيا الميكانيكية. فهذه الإيديولوجيا تنظر إلى الكون بصفته عملية ميكانيكية غير موجهة قابلة للمعرفة والتنبؤ والتحكم. وفوق كل شيء، فإنها تنظر إلى الكون بصفته مُعطىً ميتاً بلا معنى، أو بمثابة تفاعل ميكانيكي أعمى بين جزيئات أولية ميتة. ومع أن هذه الرؤية للعالم والمادة تفرض نفسَها بصفتها الرؤية العلمية المنطقية الوحيدة، إلا أن التفحّص الدقيق يعلمنا أن هذه الرؤية بالية تماماً من الناحية العلمية.

***

إن الرؤية الميكانيكية للعالم قديمة كقدم الإنسان، أو على الأقل كانت موجودة سلفاً فيما نعتبره بمثابة الأيام الأولى للحضارة الغربية. ففي زمن الإغريق القدماء، أي حوالي 400 قبل الحقبة العامة، كان الفلاسفة القائلون بالمذهب الذري – من أمثال ليوسيبوس Leucippus وديموقريطوس Democritus – يدافعون عن الفكرة القائلة إن الكونَ، بكليّته، مجموعة من الجزيئات المادية المتفاعلة ميكانيكياً. وكانت تلك الجزيئات تسمى بالذرات، أي أنها "غير قابلة للانقسام"، أو بمعنى أكثر حرفيةً "غير قابلة للانشطار" (atomos).

لكن التفكير الميكانيكي لم يتجذر ويتأصل إلا في عصر التنوير، حيث قدم السردية الكبرى الوحيدة المتبقية للثقافة الغربية. وكما رأينا في الفصل الأول، وصل الأمرُ بهذه الإيديولوجيا إلى تقديم نوع من أسطورة الخلق: كل شيء يبدأ بانفجار كبير يحرك آلة الكون ويُنتج، عبر سلسلة من الآثار الميكانيكية، أولاً سلسلة من العناصر غير العضوية ومن ثم الكائنات الحية. فتبعاً لهذا التفكير، يتبدّى العالمُ كعملية ميكانيكية ميتة تتمثل في سلسلة تفاعلية من تصادم الجزيئات الأولية تستمر إلى ما لا نهاية، من دون أي غرض أو وجهة، وتُنتج أثناء ذلك – وبشكل اعتباطي – الحياةَ والجنس البشري.

يظهر هذا كله بصفته عملية قابلة للتنبؤ. وقد عبّر الرياضي الفرنسي بيير-سيمون لا بلاس عن هذا بطريقة مباشرة:

علينا إذاً أن ننظرَ إلى وضع الكون الحالي كأثر لحالته السابقة وكسبب للحالة التالية. فإن اكتسبنا للحظة واحدة ذكاءً قادراً على استيعاب جميع القوى التي تحرّك الطبيعة ووضع الكائنات التي تشكلها (...) فإن ذلك سيدلّل في الصيغة نفسها على حركات أعظم الكتل الكونية وحركات أخفّ ذرّة؛ إذ لن يرى أي شيء غامضاً أو ملتبساً، كما أن المستقبل والماضي سيكونان ماثلين أمام عينيه.(1)

رأى معظمُ الفلاسفة في رؤية العالم هذه شيئاً من السذاجة. فقد أكد برتراند رَسل Bertrand Russell، على سبيل المثال، استحالة وجود كيان يمكنه – بغض النظر عن القوى الحسابية التي يمكن أن يتمتع بها – أن يمتلك معرفة كاملة.(2) كما يجب على كيان من هذا النوع أن يمتلك معرفة كاملة عن ذاته، وكذلك معرفة كاملة عن نفسه ككيان يمتلك معرفة كاملة عن ذاته، وهكذا إلى ما لا نهاية. كما أكد ذلك فيرنر هايزنبيرغ في القرن العشرين: لا يمكن للمرء الكلام على الجزيئات الأولية بأي قدر من اليقين. فكلما كان

موقعُها في الزمن محدداً بدقة أكبر، صار موقعُها في الفضاء أكثر غموضاً. "فالأمر لا ينتهي بالقول إن الكونَ أكثرُ غرابة مما نعتقد، لأنه أكثر غرابة من قدرتنا على التفكير". (راجع مبدأ اللايقين الذي طلع به هايزنبيرغ.)(3)

بدت أحجار البناء الأولى للكون – الذرات – أكثرَ تعقيداً وغموضاً مما كان يعتقده البعض في الماضي. فكلما حاول الباحث القبضَ عليها، انزلقت من بين أصابعه. فعلى النقيض من الفضاءات الدقيقة الضخمة التي تصوّرها الإغريق القدماء، بيّنت الفيزياءُ في القرن العشرين أنها أنظمة حيوية ذات حركة دوّامية، كما أنها أنماط اهتزازية وليست مادة صلبة. ففي التحليل النهائي، تبيّن أنها ليست ظاهرة مادية على الإطلاق بل جزءاً من نظام الوعي. وقد اعتقد أبرز علماء الفيزياء في القرن العشرين أنها أقربُ إلى الأشكال الفكرية، أو الظواهر الذهنية التي تستجيب لوعي الباحثين (كما سنرى في الفصل العاشر).

يمكننا، بالطبع، أن نغوصَ بشكل أعمقَ في اكتشافات ميكانيكا الكمّ (quantum mechanics) بهدف تعزيز نسبيّة فكرة الكون الميكانيكي. لكن الظواهر التي تتحدث عنها ميكانيكا الكم متمَوقعة في بُعد لن يتمكن معظم الناس من الوصول إليه. فمن ذا الذي سيحظى برؤية مباشرة للعالم المكون من بواطن الذرة؟ ففي هذا المجال، هناك حقل علمي آخر يقدم منظورات مادية أفضلَ؛ أي، نظرية الأنظمة الأكثر تعقيداً وحيوية، ونظرية الفوضى. إذ تتناول هاتان النظريتان الظواهرَ التي يمكن لأي شخص، من حيث المبدأ، أن يستوعبها حسياً والتي تبيّن حدودَ الرؤية الميكانيكية بطريقة مقنعة للغاية.

***

عندما انضمّ بونوا ماندلبروت، عالم الرياضيات البارز وأحد مؤسسَي نظرية الفوضى (chaos theory)، إلى شركة IBM واجهته مشكلة الضجة التي تتدخل في الإشارات التي يبثها الكمبيوتر على خطوط الهاتف.(4) كانت الضجة نتيجة سلسلة من العوامل الخارجية مثل الرطوبة، وتنوّع مواد الخطوط، واضطرابات كهرومغناطيسية صغيرة تعيق بث الإشارات بطريقة عرَضية وعشوائية. ولا يسعنا سوى الافتراض أن هذه العوامل تعمل بطريقة عشوائية وبشكل مستقل عن بعضها بعضاً، ولذلك لا يمكن انتظامُ هذه الضجة على الخطوط الهاتفية.

لكن ماندلبروت لم يكن شخصاً يفكر كالآخرين. فقد كان جريئاً بما فيه الكفاية ليفترضَ

وجود نمط ما في هذه الضجة. "إن استعصاءه على الفهم لا ينفي إمكانية وجوده"، قال ماندلبروت. وقد كان على صواب. فقد اكتشف في هذه الضجة نمطاً رياضياً معروفاً يسمى غبار كانتور (Cantor dust). ويمكن لأي شخص أن يعيدَ إنتاج هذا النمط عبر التقسيم المتكرر للخط إلى ثلاثة أقسام مع حذف القسم المتوسط في كل مرة.

والسؤال الكبير، بالطبع، هو التالي: كيف يمكن لسلسة من العوامل العشوائية، التي تتجلى بشكل مستقل عن بعضها بعضاً، أن تقودَ إلى نمط منتظم؟ كيف يمكن لضرر ناجم عن مفك البراغي والاضطرابات المغناطيسية الناتجة عن عاصفة رعدية أن يصبحَ جزءاً من النمط نفسه؟ يبدو الأمر كأن جميع هذه الاضطرابات الميكانيكية العرَضية تنتهي في حقل مستقر ومنظم رياضياً ليتمَّ تجريدها من أية خاصية عرَضية. وقد عبّر جيمز غليك عن ذلك بالطريقة التالية: "تستدرّ الحياةُ النظامَ من بحرٍ من الفوضى".(5) يبدو أن الضجة المتولدة على الخط الهاتفي تقوم بتنظيم نفسها. وفي الكائنات الحية اعتقدنا، خطأً، أن هذه الميزة المتمثلة في التنظيم الذاتي شيء عادي. فالكائنات الحية تتنفس الهواء وتأكل وتشرب، وتعمل جميع هذه العناصر المتباينة على تخليق النمط المنتظم الذي تتمتع به أجسامها. ولكن عندما تتجلى هذه الظاهرة في العالم الصنعي، فإننا ننظر إليها كظاهرة محيّرة متناقضة مع الرؤية السائدة للعالم (وهي كذلك بالفعل).

هناك مثالٌ آخر يتجلى في انتظام قطيرات الماء المتساقطة من الصنبور، كما بيّن روبرت شو .Robert Shaw(6) هذا مثال من الحياة اليومية يمكن لأي شخص أن يلاحظه. إن إجراءً رياضياً بسيطاً يكفي لإظهار انتظام رياضي في الزمن الفاصل بين النقاط المتساقطة يعمل، عند تواتره البصري، على إنتاج أنماط عضوية جميلة. وفي هذه الحالة أيضاً، يمكننا أن نلاحظ التناقض الغريب الكامن في أن اللحظة التي تتساقط فيها نقطة الماء ناتجة، من جهة، عن سلسلة من العوامل الخارجية المنفصلة – التوتر السطحي للماء، والحرارة، والاهتزازات الموجودة في الهواء المحيط، وبنية المادة التي تتشكل منها حافة الصنبور. ولكن من جهة أخرى، يبدو أنها تتبع نمطاً صارماً. ومن الصعب، بل من المستحيل، تفسير السبب الذي يدفع جميعَ هذه العوامل المنفصلة إلى توليد نمط منتظم استناداً إلى رؤية ميكانيكية. يمكن لهذا النمط، بالطبع، أن يتعرض لبعض الخلل الناجم عن مجموعة من المؤثرات – كأن تعمل على سدّ فتحة الصنبور بإصبعك، مثلاً. ولكن بعد زوال هذا المؤثر، حيث يكون من الصعب تحديد الطريقة التي يختلف بها عن العوامل الخارجية، يستعيد

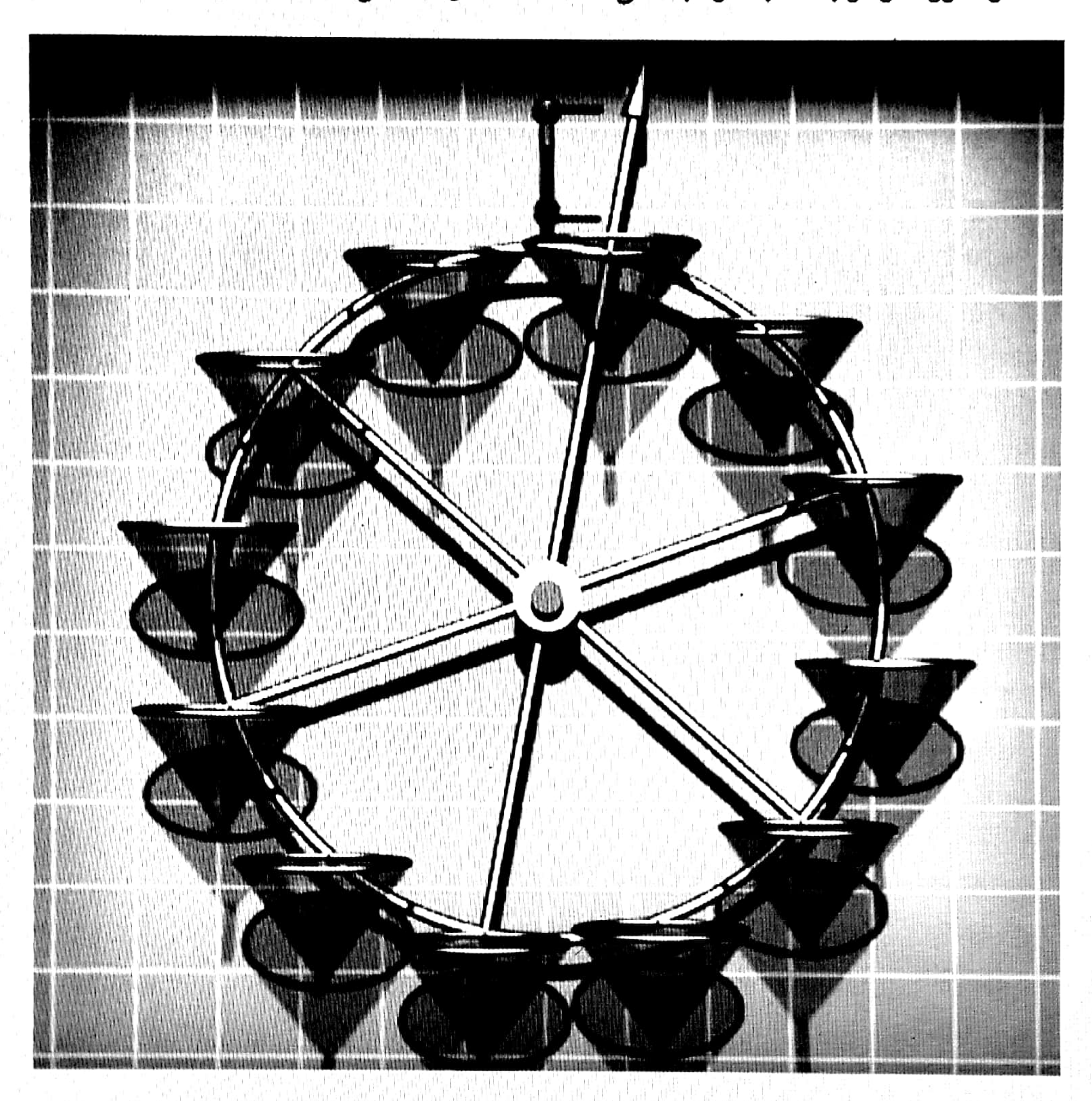
النظامُ توازنه العفوي ويعود النمط إلى سابق عهده.

علّق غليك على هذا بما يلي: "اكتشف دارسو الآليات الفوضوية أن السلوك العشوائي للأنظمة البسيطة يتجلى كعملية **خلاقة** (التوكيد مضاف). فقد ولدت نوعاً من التعقيد: أنماط منظمة بشكل كبير، مستقرة أحياناً ومضطربة في أحيان أخرى، محددة أحياناً ولا متناهية في أحيان أخرى، ولكن دوماً بنوع من الافتتان الذي تتميز به الأشياء الحية".(7) انتبهوا، رجاءً، إلى الخاصتين "خلاقة" و"الحية". فقد تم تجاهل خاصية الخلق والحياة في المادة في المقاربة العلمية الكلاسيكية.

وعلى نمط هذه الأمثلة، بيّنت النظرية الكسورية (fractal theory) (وهي فرع من فروع نظرية الفوضى) تحديداً رياضياً واضحاً لمجموعات الأشكال الطبيعية، كمجموعات الأوراق والنباتات والأشجار والإسفنج البحري والطحالب. وربما تكون الأمثلة الأكثر شهرة هي أنماط الأصداف البحرية التي قام بدراستها هانس ماينهارت Hans Meinhardt؛(8) ومجموعة ماندلبروت؛ والأشكال اللولبية التي حددتها سلسلة فيبوناتشي Fibonacci. إن هذا التحديد الأخير بسيطٌ إلى درجة أنه سهلُ الفهم، حتى لغير الرياضيين. تتكون سلسلة فيبوناتشي من سلسلة من الأرقام يتم تحصيلها عبر البدء برقمي 0 و1 ثم الاستمرار برقم يشكل حصيلة الرقمين السابقين (0.1.1.2.3.5.8...). تحدد سلسلة الأرقام هذه انحناءَ لولب يمكن العثور عليه في أي مكان في الطبيعة. يبدو أن علينا أن نأخذ ما قاله غاليليو في سنة 1623 حرفياً: "إن كتاب الطبيعة مكتوبٌ بلغة الرياضيات".(9)

دعونا نتفحص مثالاً واحداً. إن ناعورة لورنز الفوضوية هي جهاز ميكانيكي يقوم بحركات تكشف عن تشابهات مباشرة مع آليات أنماط النقل الحراري في السوائل والغاز. (انظر الشكل 9–1). تم تصميم هذا الجهاز من قبل البروفسور في "معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا"، ويلم مالكوس Willem Malkus، في سنة 1972 بهدف توضيح عمل إدوارد لورنز، عالم الرياضيات والأرصاد وأحد مؤسسي نظرية الفوضى. ويتكون من عجلة دوّارة ثُبتت عليها دلاءٌ صغيرة تحتوي على فتحات سفلية. وفي الأعلى، هناك صنبور يوفر تدفق الماء في الدلو العلوي. عندما يكون تدفق الماء ضعيفاً، فإن العجلة لا تتحرك لأن الماء يتدفق من الفتحة الموجودة في أسفل الدلو بسرعة أكبر من تدفقه في الدلو. وعندما يكون التدفق أعلى بقليل، سوف يمتلئ الدلو وتتحرك العجلة، في اتجاه واحد أحياناً وفي الاتجاه الآخر أحياناً أخرى. وحالما تستقر حركة العجلة في اتجاه معين، يصبح سلوك العجلة

منتظماً ومقروءاً ومرتبطاً مباشرةً بتدفق الماء. فكلما زاد تدفق الماء، تسارعت حركة العجلة.



الشكل 9-1. ناعورة لورنز

ولكن في حال تجاوز تدفق الماء حداً معيناً، فإن سلسلة من التأثيرات المعقدة تحدث وتدفع العجلة إلى التحرك بطريقة فوضوية. إذ يمتلئ الدلو العلوي إلى حافته، مما يحرك العجلة بسرعة كبيرة. وعندها، ونتيجة السرعة الكبيرة هذه، لا تمتلئ الدلاء الأخرى عند مرورها في الأعلى. يؤدي هذا إلى تباطؤ العجلة وربما إلى توقفها المؤقت، حيث تستمر في الدوران في الاتجاه نفسه، أو في الاتجاه المعاكس في بعض الأحيان. يتم تكرار العملية مع تنوعات لا متناهية؛ أحياناً تتحرك العجلة بسرعة، وأحياناً أخرى ببطء، أحياناً في الاتجاه نفسه لفترة طويلة، وتغير اتجاهها باستمرار في أحيان أخرى. وقد تبيّن أن هذا الشذوذ الذي يحصلُ في المرحلة الفوضوية حاضرٌ في الطبيعة بشكل كلي. وهذا ينفي وجودَ أي نمط

متكرر أو فترة متكررة في حركات العجلة.

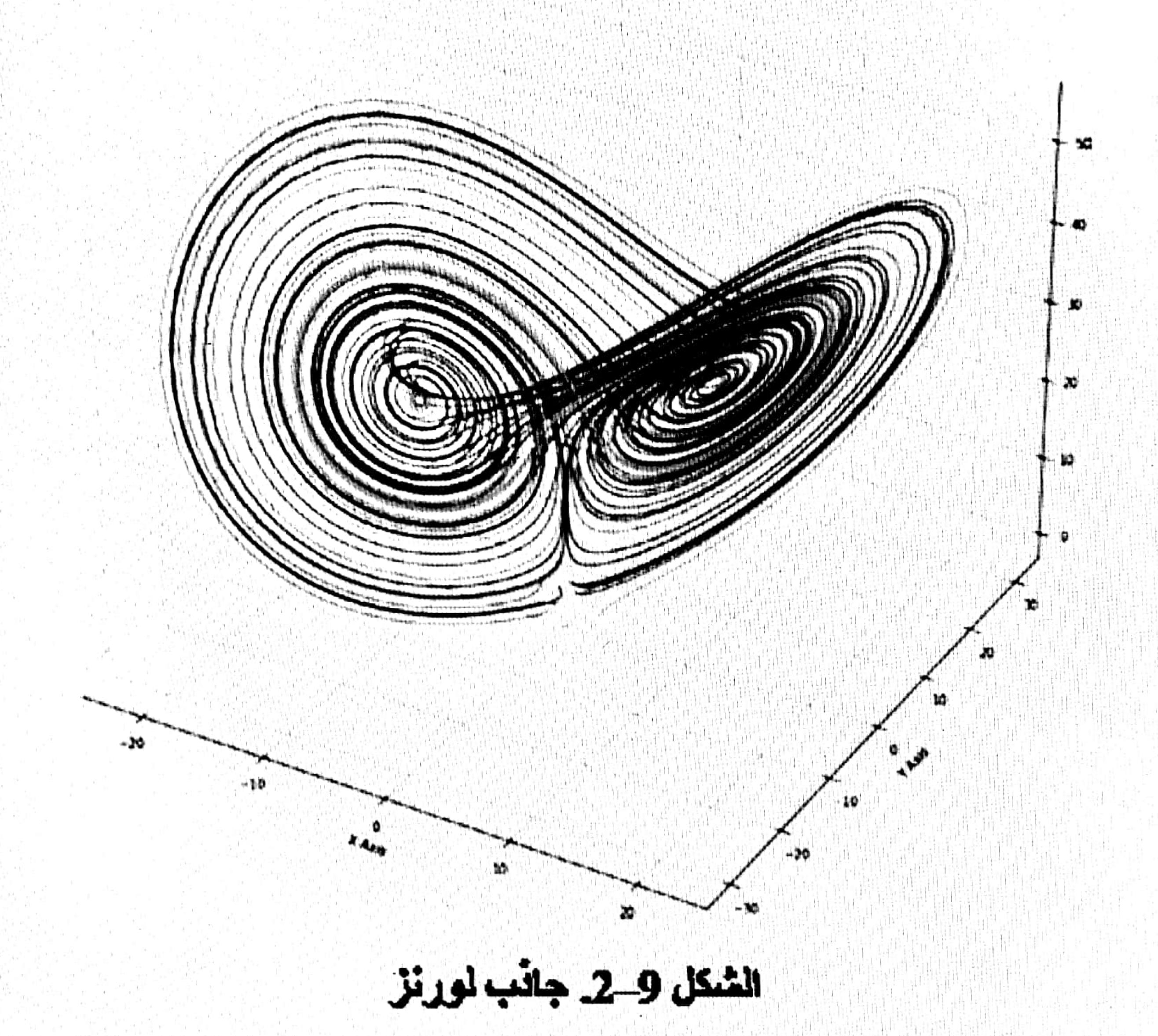
بغض النظر عن الفوضوية التي تبدو عليها هذه الحركات، فقد اتضح أنها محددة بشكل دقيق. ويمكن توصيفها بواسطة نموذج رياضي مكوّن من ثلاث معادلات تفاضلية متكررة بثلاثة مجاهيل (هي بحد ذاتها تبسيط لمعادلات نافيير-ستوكس Navier-Stokes المعقدة في الحَمل الحراري). وتساوقاً مع سلوك العجلة الفوضوي، فإن السلسلة (اللامتناهية) لحلول هذه المعادلات لا تتكشف عن أية ميزة دورية. أو، بكلمات أخرى، ليس هناك نمط متكرر في مجموعة قيَم المجاهيل التي تولدها هذه المعادلات.

ولذلك فإن آليات العجلة تشبه بنية الأرقام اللاعقلانية، مثل pi التي لا تبيّن أرقامُها بعد النقطة العشرية أية خاصية دورية. إن توصيف مثل هذه الأرقام بأنها "لاعقلانية" يشير إلى استحالة كتابة هذه الأرقام على هيئة كسور، أي في صيغة نسبية. ولكن تبعاً للمفاهيم العامة، فإن سمة "اللاعقلانية" بمعنى "غير عقلانية" صحيحة أيضاً. إذ لا يمكن تصوّر هذه الأرقام بشكل عقلاني، مما يجعلها عاملاً معطلاً في رؤية منظمة تتسم بالمنطق والعقلانية. وقد دفع هيباسوس Hippasus (الذي كان من أتباع فيثاغورس Pythagoras) - والذي يُعتبر الشخص الذي اكتشف هذه الأرقام اللاعقلانية - ثمنَ تجربته في هذا المجال. فقد كان، كما تقول الأسطورة، على متن سفينة برفقة أخيه فيثاغورس وسقط حالما عبّر عن حدسه بوجود هذه الأرقام اللاعقلانية. ويتضح من هذا أن حدود النسبة تقود دوماً إلى الالتباس والخوف والعدائية.

إن مزيجَ السلوك الفوضوي والحتمية يُضفي على الناعورة تلك الميزة الساحرة المتمثلة في "العشوائية الحتمية".(10) وينطوي هذا على ما يلي: على الرغم من توفر الصيغ التي تعمل بها الناعورة، من المستحيل التنبؤ بسلوكها، حتى قبل ثانية واحدة. وسبب ذلك في غاية البساطة: لكي نتمكن من التنبؤ بسلوك الناعورة في المستقبل، علينا أن نقيسَ الحالة الحرَكية للعجلة في الحاضر ثم نقوم بإدخالها في الصيغ. ولكن بسبب طبيعة العجلة، يمكن حتى للتباينات الدقيقة في الحالة الحركية الراهنة أن تقودَ إلى فروق كبيرة في السلوك المستقبلي (ويسمى ذلك، في نظرية الأنظمة، خاصية "الحساسية للشروط الأولية"). ومن هنا فإن العجلة تستمر في تلفيع مستقبلها بنوعٍ من الغموض الأبدي.

لكن الشيء المذهل أكثر في قصة عجلة لورنز هو التالي: في مرحلة معينة، خطرت للورنز فكرة تعيين موقع القيَم المتعاقبة في المعادلات على نظام إحداثي متعامد ثلاثي الأبعاد،

يسمى أيضاً "المساحة المرحلية" في نظرية الفوضى. لكن الغريب في الأمر أن الأمر لم يقتصر على ظهور سديم عشوائي من النقاط، كما يتوقع المرء مبدئياً في حالة نظام ذي سلوك عشوائي. فقد ظهر شكلٌ منتظم جداً يمتلك سمات جمالية مذهلة عُرِف منذ ذلك الوقت باسم "جاذب لورنز" (Lorenz attractor) (انظر الشكل 9–2).



الشكل 9–2. جاذب لورنز

كما قال غليك، "كشفت صور المساحة المرحلية للأنظمة الفيزيولوجية أنماطاً حرَكية لم تكن مرئية من قبل، كما يمكن لصورة طبيعة تحت حمراء أن تبيّنَ أنماطاً وتفاصيلَ موجودة خارج نطاق الإدراك الحسي".(11) كان لورنز أولَ من بيّن أن بعض السلوكيات التي تبدو عشوائية محددة بنظام صارم (وسامٍ) ويمكن تمثيلها بصرياً في المساحة المرحلية. إذ يكمن تحت الفوضى البادية لتجربة العجلة الظاهرية نظامٌ جمالي هائل من الأشكال الكونية يذكّر، بطرق عديدة، بعالم أفلاطون المثالي. توصل علماء فيزياء الكم أيضاً إلى عالم أفلاطون

المثالي الشهير، ولكن عن طريق مختلف. وقد عبّر هايزنبيرغ عن ذلك بطريقة مباشرة: "أعتقد أن الفيزياء الحديثة قد انحازت إلى أفلاطون. فأصغر الوحدات المادية ليست موضوعاتٍ بالمعنى العادي، بل هي أشكال، وأفكار...".(12)

إن هذا بالتأكيد هو الدرس الأهم الذي تعلمنا إياه الناعورة: لا يمكننا التنبؤ بالسلوكيات المحددة للناعورة (ليس في مرحلتها الفوضوية على الأقل)، ولكن يمكننا معرفة المبادئ التي تتصرف على أساسها واستشعار الأشكال الجمالية السامية الكامنة تحت السطح الفوضوي لتلك السلوكيات. ولذلك ليس هناك أي نوع من التنبؤ العقلاني، ولكن هناك درجة معينة من التنبؤ الحدسي. ففي سنة 1914، قال أونري بوانكاريه **Henri Poincaré** إن الفهمَ المنطقي ليس ضرورياً دائماً لفهم بعض الظواهر بشكل حدسيّ والتنبؤ استناداً إلى الحدس الشخصي.(13) إذ من الممكن استشعارُ كونيّة البنية الكامنة لظاهرة ما – كجاذب لورنز، على سبيل المثال – دون أي فهم منطقي عميق لتلك الظاهرة. وقد ذهب بوانكاريه إلى أبعدَ من ذلك، فقال إن السعي إلى المعرفة المنطقية للظاهرة يمكن – عند بلوغ مرحلة معينة – أن يؤدي إلى نتائجَ مغايرة وغير مفيدة. فعندما نواجه الجانبَ اللاعقلاني لظاهرة ما، سوف يمنعنا إصرارُنا على تحصيل الفهم العقلاني من الوصول إلى نتائجَ مبنية على التقبّل المباشر.

إن الطريقة التي تختبر فيها العجلة بصفتك مشاهداً تعتمد بقوّة على المستوى الذي يتركز عليه انتباهُك. فإن نظرتَ إلى كل حركة بحد ذاتها أو إلى سلسلة حركية منفصلة، فإن الحركات ستبدو فوضوية ومتباينة. إذ تبدو العجلة أشبه بمزيج متنافر من الحركات الخلفية والأمامية المتقطعة. أما إذا تمكنتَ من استشعار حركة العجلة الكلية والتقاط الإيقاعات العميقة الحاضرة في الحركات المتنوعة (كما هو مبيّن في الشكل الذي يمثل جاذب لورنز)، فعندها سوف تشعر بذلك التناغم الإبداعي الأبدي الكامن في الحركات السطحية المختلفة وسوف تصبح العجلة ظاهرةً مسكّنة ومريحة.

في هذا المجال، تعلمنا العجلة شيئاً ينطبق بشكلٍ أعم على الكائن البشري والمجتمع والحياة والطبيعة. فعلى غرار العجلة، تتسم معظمُ الظواهر الطبيعية بالتعقيد والديناميةكما تتسم، بتعقيدها هذا، بأنها عصية على التنبؤ. ولكن على غرار العجلة، تتبع الحياة مبادئ معينة كما تختبئ بعضُ الظواهر السامية تحت سطحها الذي يشي بالفوضوية. وربما تتمثل مهمتُنا الكبرى في اكتشاف المبادئ الأبدية للحياة في كل هذا التعقيد الذي يتسم به

الوجود ومن خلاله أيضاً. فكلما تلفسنا تلك المبادئ، شعرنا أننا بدأنا نفهم بعضاً من جوهر الحياة وأننا مرتبطون بذلك المبدأ التنظيمي المهيب الذي يخاطبنا عبر الكون. وكلما تمسكنا بمبادئنا، حتى لو بدا ذلك مكلفاً على المدى المنظور، أصبحت هذه المبادئ حقيقيةً أكثر وطوّرنا - بصفتنا كائنات بشرية - معنىً حقيقياً للوجود والجَلَد. لكن انتهازيتنا وتخلينا عن مبادئنا لأن التحليل "الذكي" لوضعٍ ما يشي بنوع من الفائدة غالباً ما يقودان إلى فقدان الفردية والتجارب القيّمة. فإن أمعن المرءُ في التركيز في مظاهر الحياة السطحية وتجاهلَ المبادئ والأشكالَ العميقة، فإن الحياة ستبدو نوعاً من الفوضى العبثية، على غرار ناعورة لورنز.

ينطبق الشيء نفسه على المستوى المجتمعي؛ فعلى المجتمع التمسك بعدد من المبادئ والحقوق الأساسية، كحق حرية التعبير، وحق تقرير المصير، وحق الاعتقاد الديني أو الإيمان. فإن لم يحترم المجتمع هذه الحقوق الأساسية للفرد، وإن سمح للخوف بالتفاقم إلى درجة تصبح معها جميعُ أشكال الفردية والحميمية والخصوصية والمبادرة الفردية بمثابة تهديد لـ"الصالح الجمعي العام"، فسوف يقع فريسة سهلة للفوضى والعبثية. كان الاعتقادُ بالطبيعة الميكانيكية للكون والمبالغة بقدرات العقل البشري - اللذان تميّز بهما عصر التنوير - مترافقين مع نزعة لقيادة المجتمع بطريقة منفلتة من المبادئ. إذ من الصعب جداً (إن لم يكن مستحيلاً) تعزيز المبادئ الأخلاقية في منهج التفكير الميكانيكي الصرف. فما الذي يدفع الإنسانَ الذي يعيش ويعمل في كون آلي إلى التمسك بالمبادئ والقوانين الأخلاقية في علاقته مع الآخرين؟ ألا يتعلق الأمرُ، في نهاية المطاف، بامتلاك القوة في الصراع من أجل البقاء؟ وبالتالي، ألا تشكّل النظم الأخلاقية والمبادئ عائقاً في هذا الصراع؟ ففي التحليل الأخير، لم يعد الأمرُ، بالنسبة إلى إنسان التنوير، يتعلق بالتمسك بالوصايا والمحرّمات أو المبادئ والأسس الأخلاقية، بل بالمناورة في صراع البقاء هذا بالطريقة الأكثر فعالية المبنية على "المعرفة الموضوعية" للعالم. وقد نتجت عن ذلك أشكال توتاليتارية وتكنوقراطية من الحكم، فلا تتشكل القراراتُ على أساس القوانين والمبادئ السارية بل على أساس التحليلات التي يطلع بها "الخبراء". ولهذا السبب، تسعى التوتاليتارية دوماً إلى إلغاء القوانين، أو أنها تضرب بها عرض الحائط، وتلجأ إلى الحكم "عن طريق المراسيم والأحكام التشريعية"؛ مما يعني أن كل وضع يتطلب تشكيلَ قوانين جديدة على أساس تقييم (شبه) عقلاني لهذا الوضع. وهناك أمثلة تاريخية كثيرة تبيّن أن هذا النهج يقود إلى قوانينَ ارتجالية وعبثية ومتغيرة تعمل، في نهاية المطاف، على تدمير جميع الجوانب الإنسانية في

المجتمع.

ربما يكون هذا توضيحاً مباشراً وملموساً لمقولة حنة آرندت بأن التوتاليتارية عبارة عن عرَض للاعتقاد الساذج بالسلطة المطلقة للعقلانية الإنسانية. ولذلك فإن بلسمَ التوتاليتارية يكمن في موقف حياتي متحرز من الفهم العقلاني لتجليات الحياة السطحية ومرتبط بالمبادئ والأشكال الكامنة تحت تلك التجليات.

تقدم نظرية الفوضى ونظرية الأنظمة المعقدة والدينامية منظوراً جديداً ومذهلاً للكون. ففي كتابه الشهير **نظرية الفوضى**، يقول غليك إن نظرية الفوضى تشكل ثالثَ أعظم ثورة علمية في القرن العشرين (بعد نظرية النسبية وميكانيكا الكم).(14) انطلق العلمُ الميكانيكي–المادي من الافتراض القائل إن العالمَ منطقيٌ وقابل للتنبؤ، كما أنه – بشكل خاص – عملية ميكانيكية ميتة. وقد سعى العلمُ إلى تقليص الظواهر الحية – الظواهر الحيوية، والوعي، إلخ – إلى عملياتٍ ميتة (أي إلى عمليات كيميائية ميكانيكية، على سبيل المثال). لكن ميكانيكا الكم ونظرية الفوضى تزعزعان هذه الرؤية؛ فتنطلقان من الحركية المعاكسة وتميلان أكثر نحو رؤية حيوية للعالم، وتفترضان وجودَ الحياة والوعي في جميع أنواع الظواهر التي كانت تُصنف سابقاً بصفتها عمليات ميكانيكية ميتة. فكروا في الضجة المتشكلة على الخطوط الهاتفية؛ فقد تبين أنها ليست الأثرَ السلبي لمجموعة من العوامل الميكانيكية، بل تمتلك قدرة على التنظيم الذاتي وتتميز بالغرَضية والحس الجمالي معاً.

ربما يتمثل الجانبُ الأكثر ثوريةً في نظرية الفوضى في أن ملاحظاتها تمكّننا من رؤية سبب فاعل شكلي ونهائي في الطبيعة. وهذه المفاهيم مستمدة من نظرية أرسطو Aristotle في السببية، ولا يمكن الاستغناء عنها في دراسة عملية السببية. باختصار شديد، تقول هذه النظرية بوجود أربعة أنواع من الأسباب: المادية، والفعالة، والشكلية، والنهائية. وقد أوضحَ أرسطو الفرق بين هذه الأسباب الأربعةَ بالاعتماد على مجاز صناعة التمثال. فالسبب المادي للتمثال هو المادة التي صُنع منها (فمن دون هذه المادة، لا يمكن للتمثال أن يوجد). أما السبب الفعال فهو حركاتُ النحّات الذي يستخدم الإزميلَ والمطرقة لتحويل الحجر إلى تمثال. ويتمثل السببُ الشكلي في فكرة التمثال أو شكله كما تشكّل في عقل النحّات، ويحدد هذا الشكل الطريقة التي يوجّه بها حركاته. أما السبب النهائي فهو تعمّدُ صناعة التمثال (لأن أحداً ما قد طلب من النحّات صنع التمثال، على سبيل المثال). تقتصر الرؤية الميكانيكية على اعتبار المادة والسبب النهائي فقط بصفتهما عاملين نشطين. حصل

في قديم الزمان أن تحرك الكونَ، المشكّل من مجموعة من الجزيئات المادية، ثم تخلّقَ كلُ شيء من حركة الجزيئات الأولية. ولذلك فإن الجزيئات، بحد ذاتها، هي السبب المادي؛ إذ إن حركاتها، التي تولّد جميعَ الآثار الأخرى، هي السبب النهائي. ولكن تبعاً لهذه الرؤية، لا يمكننا الافتراض بوجود "أشكال" أو "أفكار" معينة سلفاً (تتعلق ببعض الكائنات الحية، مثلاً) تؤثر في الطريقة التي تتكشف بها العملية المادية.

تبرهن نظرية الفوضى على أن هذه الأشكال موجودة فعلاً وأنها تعمل بطريقة متناسقة. ويمكن سحبُ مثال الضجة المتشكلة على الخطوط الهاتفية والنقاط المتساقطة من صنبور المياه على نطاق أوسعَ بكثير. إذ تبيّن نظرية الفوضى أن المشهد الجبلي الطبيعي الذي يولد فينا إعجاباً يقطع الأنفاس ليس مجرد أثر لعملية ميكانيكية – أي، عمليات ميكانيكية عرَضية بين الصفائح التكتونية، والحتّ، وانبثاق الحمم البركانية – وإنما هناك فكرة سامية أبدية عملت على تنسيق ملايين العمليات الميكانيكية المساهمة في تشكل هذا المشهد. ربما تعمل نظرية الفوضى، أكثر ممّا تعمل ميكانيكا الكم، على إطلاق حقبة تلي عصر التنوير تاريخياً ومنطقياً؛ حقبة يستعيد فيها الكونُ ألَقه ومعانيه.

الفصل العاشر

المادة والروح

تتأسس الرؤية المادية-الميكانيكية للعالم على الفرضية القائلة إن الكونَ هو مُعطىً آلي-ميكانيكي قابلٌ للفهم التام من خلال التفكير العقلاني. تناولنا، في الفصل السابق، نسبيةَ هذه النظرية. أما في هذا الفصل، فسوف نتناول الافتراضَ الكبير الثاني للمادية الميكانيكية: إن كل ما ينتمي إلى مملكة الوعي والعالم السيكولوجي هو نتاج الظواهر المادية؛ أي أن المادة فوق العقل.

يتكشف الخطابُ العام المعاصر عن غموض معين عندما يقارب البُعدَ السيكولوجي للكائن الإنساني. فمن جهة، تكتسب الصحة السيكولوجية أهمية خاصة. هناك اعتقاد بأن الضغط يولّد آثاراً صحية سيئة، وأن الفوائد الوهمية تلعب دوراً رئيساً في التدخلات الطبية، كما هناك إدراك متزايد لأهمية "التحدث عن مشكلاتنا"، إلخ.

ومن جهة أخرى، لا يزال العالمُ في قبضة الرؤية الميكانيكية للعالم والجنس البشري، وربما أكثر من قبل. فمن وجهة نظر هذه الإيديولوجيا، يتم اعتبار أي شيء ينتمي إلى عالم الوعي والتجربة السيكولوجية كمُنتج جانبي تافه لكيمياء الدماغ الحيوية. إذ يتم تقليص رغبات الإنسان وطموحاته، وتوقه الرومانسي وحاجاته السطحية، وفرحه وحزنه، وشكوكه وخياراته، وسعادته ومعاناته، ونفوره العميق ورؤاه الجمالية السامية - أي، عالم التجربة الذاتي كله - إلى مجرد نتاج لجزيئات الدماغ الأولية التي تتفاعل تبعاً للقوانين الميكانيكية.

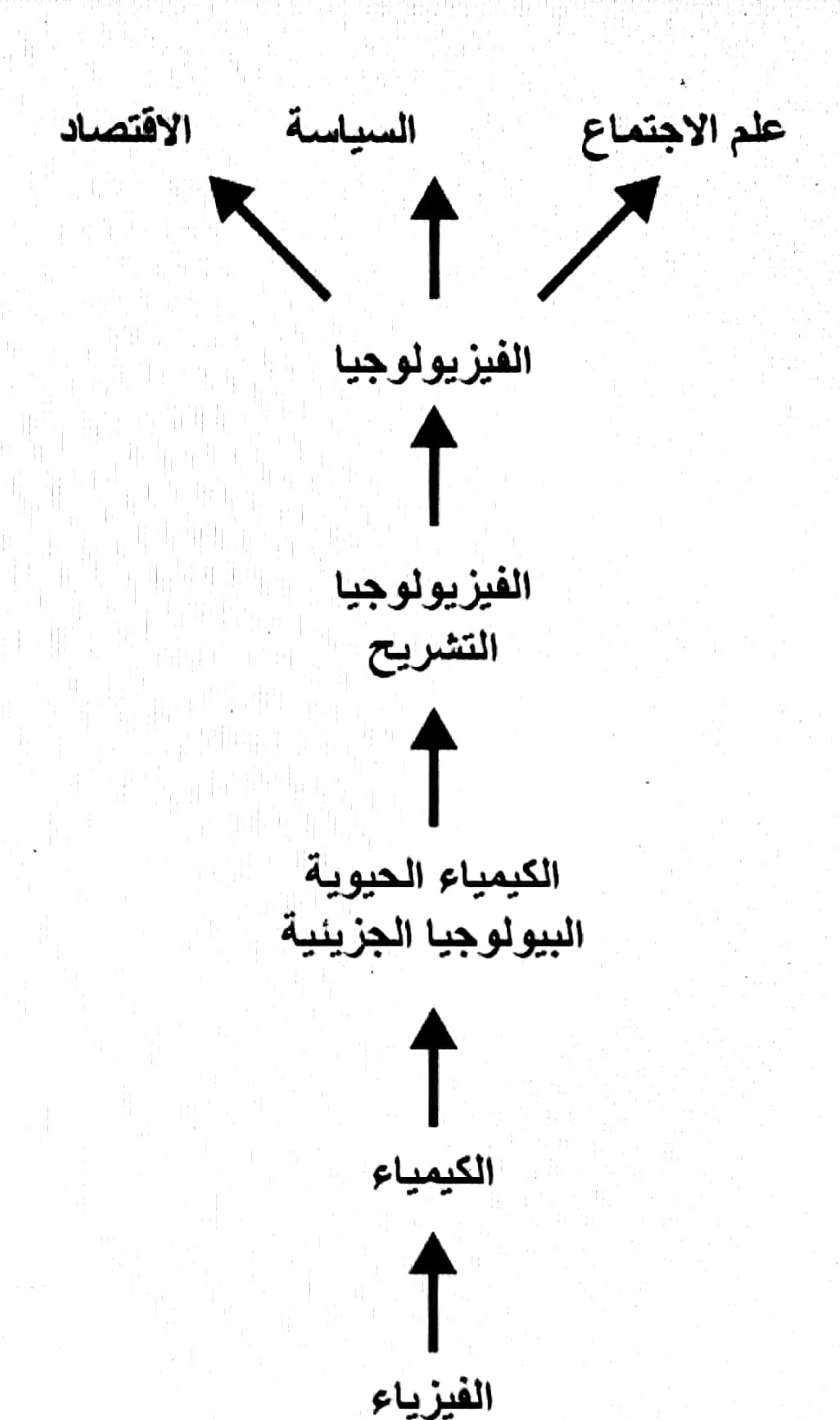
من نافل القول إن رؤية كهذه سوف تنظر إلى أي مقاربة سيكولوجية للحياة - وبالتالي، أي ممارسة دينية أو روحية - كشكلٍ من أشكال اللاعقلانية. كما يتم تصنيف أي تطبيق علاجي لهذه الأطر المفاهيمية، في أفضل الأحوال، كنوع من العلاج الإسعافي المؤقت، أي كعلاج جانبي مقبول بانتظار اكتشاف العلاج البيولوجي الحقيقي القادر على التعاطي مع السبب البيولوجي الحقيقي للمعاناة الإنسانية. فالاكتئاب ينشأ في الدماغ، وإذا أمعنّا النظر فسوف نتمكن، في أحد الأيام، من تحديد الخطأ الميكانيكي المسؤول عن هذه الحالة، وبالتالي سوف نتمكن من إصلاح مثل هذه الأعطال الآلية بطريقة ميكانيكية.

استناداً إلى هذه الرؤية، يفترض المرء - بشكل واضح أو ضمني - وجودَ نوع من

الهرَمية في العلوم. فالمستوى الأساسي يتمثل في الفيزياء، أي في التفاعلات الميكانيكية بين الجزيئات الأولية، ومن ثم تتأتى جميع الأشياء الأخرى من هذه العملية. فالفيزياء تحدد الكيمياء اللاعضوية؛ والكيمياء اللاعضوية تحدد الكيمياء العضوية؛ والكيمياء العضوية تحدد التشريح والفيزيولوجيا؛ والتشريح والفيزيولوجيا تحددان السيكولوجيا؛ والسيكولوجيا تحدد الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع (انظر الشكل 10-1). ففي النهاية، يمكن إرجاع كل شيء إلى الفيزياء والكيمياء.

على الرغم من انتشار هذه الرؤية وهيمنتها الناجمة عن بساطتها، إلا أن العلمَ عمل على تقويضها. ففي المقام الأول، بيّنت الفيزياء الكمية – بصفتها علمَ الجزيئات المادية الأولية – استحالة تفسير عالم الوعي على مستوى المعرفة المادية. إذ إن الجزيئات الأولية نفسها تتحدد، إلى درجة معينة، من قِبَل عالم الوعي – من قبل فعل الإدراك الذهني أثناء التجارب، على سبيل المثال. ربما يبدو هذا غريباً بعض الشيء، ولكن في حقيقة الأمر إذا راقب شخصان جزيئاً معيناً في الوقت نفسه، يمكن لهذا الجزيء نفسه أن يوجَدَ في مكانين في الوقت نفسه.

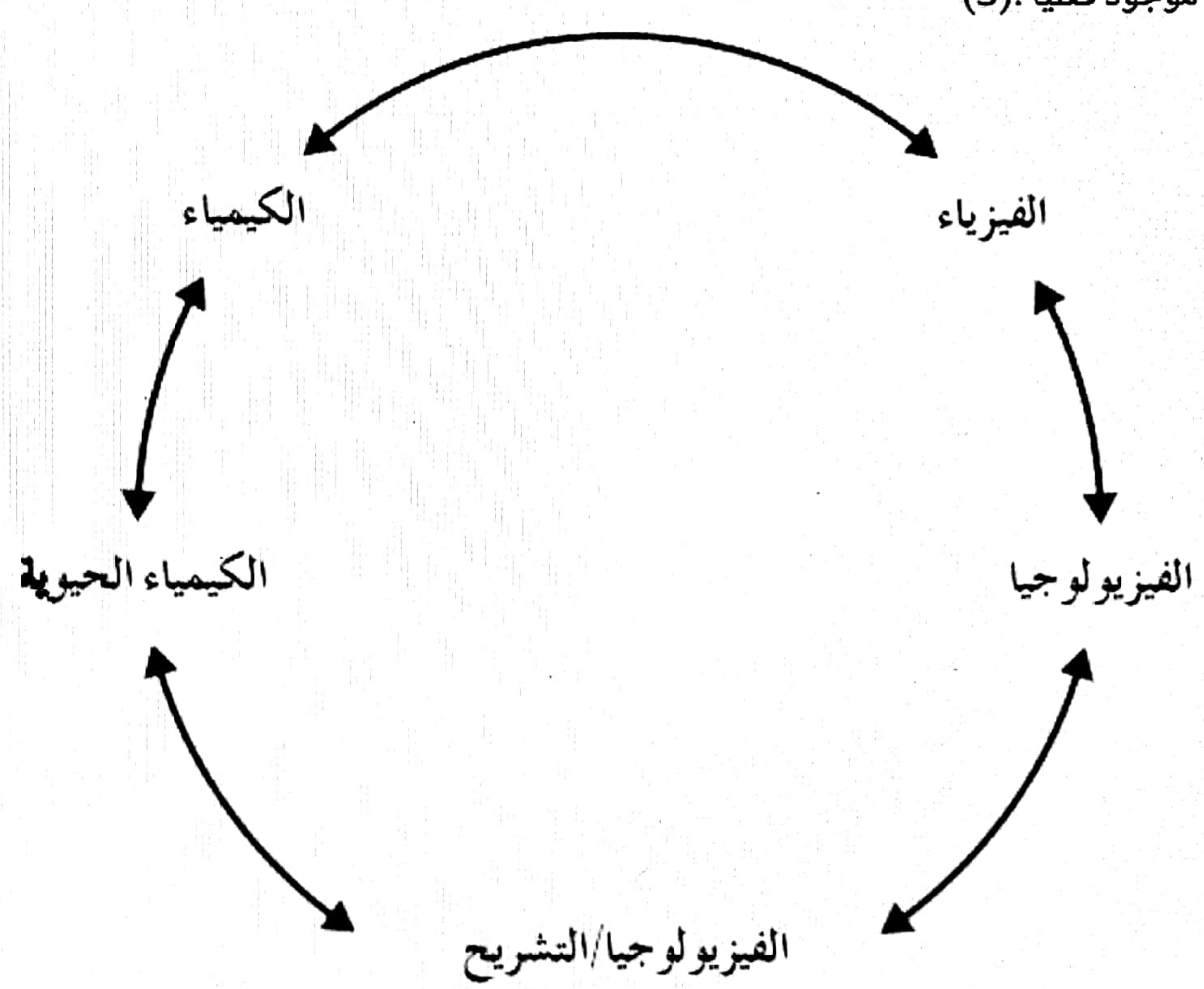
وعلاوة على ذلك، لا يقتصر الأمر على ارتباط المَوقعة المؤقتة للجزيء بالملاحظة بل يمتد إلى المسار الكامل الذي قطعه هذا الجزيء خلال مليارات السنين السابقة على لحظة المراقبة.(1) إذ لا يتم تحديد المسار الماضي إلا في زمن الملاحظة. وتبعاً للفيزيائي العالمي الشهير ستيفن هوكينغ Stephen Hawking، "إن خيار (الجزيء) بسلوك طريق أو طريقين في هذه الحالة محددٌ قبل مليارات السنين، وربما حتى قبل تشكل الأرض أو شمسنا، ومع ذلك فإن مراقبتنا التي تتم في المختبر ستؤثر على ذلك الخيار".(2) تتعارض هذه الرؤى مع الطريقة التي نختبر ونفهم بها أشياءَ مثل الزمن والفضاء والمادة بحيث يعجز العقلُ البشري عن فهمها. وقد عبّر نيلز بور Niels Bohr عن غرابة ملاحظات ميكانيكا الكم بهذه الطريقة: "إن لم تصدمك نظرية الكم، فهذا يعني أنك لم تفهمها جيداً".(3)



الشكل 10–1. التنظيم الهرمي للعلوم تبعاً لطريقة التفكير الميكانيكية–المادية الصارمة

لهذا السبب نرى أن هذه الهرمية الموجودة في العلوم، حيث يحدد العالمُ المادي عالمَ الفيزياء، لا تعترف بعالم السيكولوجيا؛ إلا أن الإنسان، بصفته كائناً سيكولوجياً، يحدد عالمَ المواضيع المادية. ولذلك علينا أن نفترض، على الأقل، وجود تأثير متبادل أو سببيةً دائرية بين الوعي والمادة (الشكل 10–2). وقد ذهب مؤسسو ميكانيكا الكم إلى أبعد من ذلك واعتبروا أن العالم المادي يشكل جزءاً من عالم الوعي. فكما يقول فيرنر هايزنبيرغ: "إن أصغر الوحدات المادية ليست، في حقيقة الأمر، مواضيعَ فيزيائية بالمعنى العادي للكلمة؛ فهي عبارة عن أشكال، أي أفكار".(4) وقد تبنّى الفيلسوف المنطقي الوضعي برتراند

رَسل الرؤية نفسَها: "إن جميع بياناتنا، في الفيزياء والسيكولوجيا على حد سواء، خاضعة للقوانين السببية السيكولوجية... ومن هذا المنظور فإن السيكولوجيا أقربُ إلى ما هو موجود فعلياً".(5)



الشكل ١٠-٢. السببية الدائرية بين الحقول العلمية المختلفة

إن الرؤية الميكانيكية مبنية بشكل كلي على الفكرة القائلة إن الجزيئات المادية بيانات صلبة ومطلقة و"موضوعية" يمكن استنباط جميع الأشياء الأخرى منها. لكن ميكانيكا الكم تكشف لنا عن شيء مختلف تماماً. فكلما أمعن المرءُ في تفحص المادة، ازداد تأثيرُ فعل الملاحظة على الإدراك، وأصبح الإدراك ذاتياً أكثر. وبشكل متناغم تماماً مع مبدأ اللايقين عند هايزنبيرغ، يمكننا القول إذاً إن المادة - التي كانت تُعتبر الأساسَ المتين للمادية الميكانيكية - هي ظاهرة ذاتية في جوهرها. فما هي المادة بالتحديد؟ لا أحد يعرف.

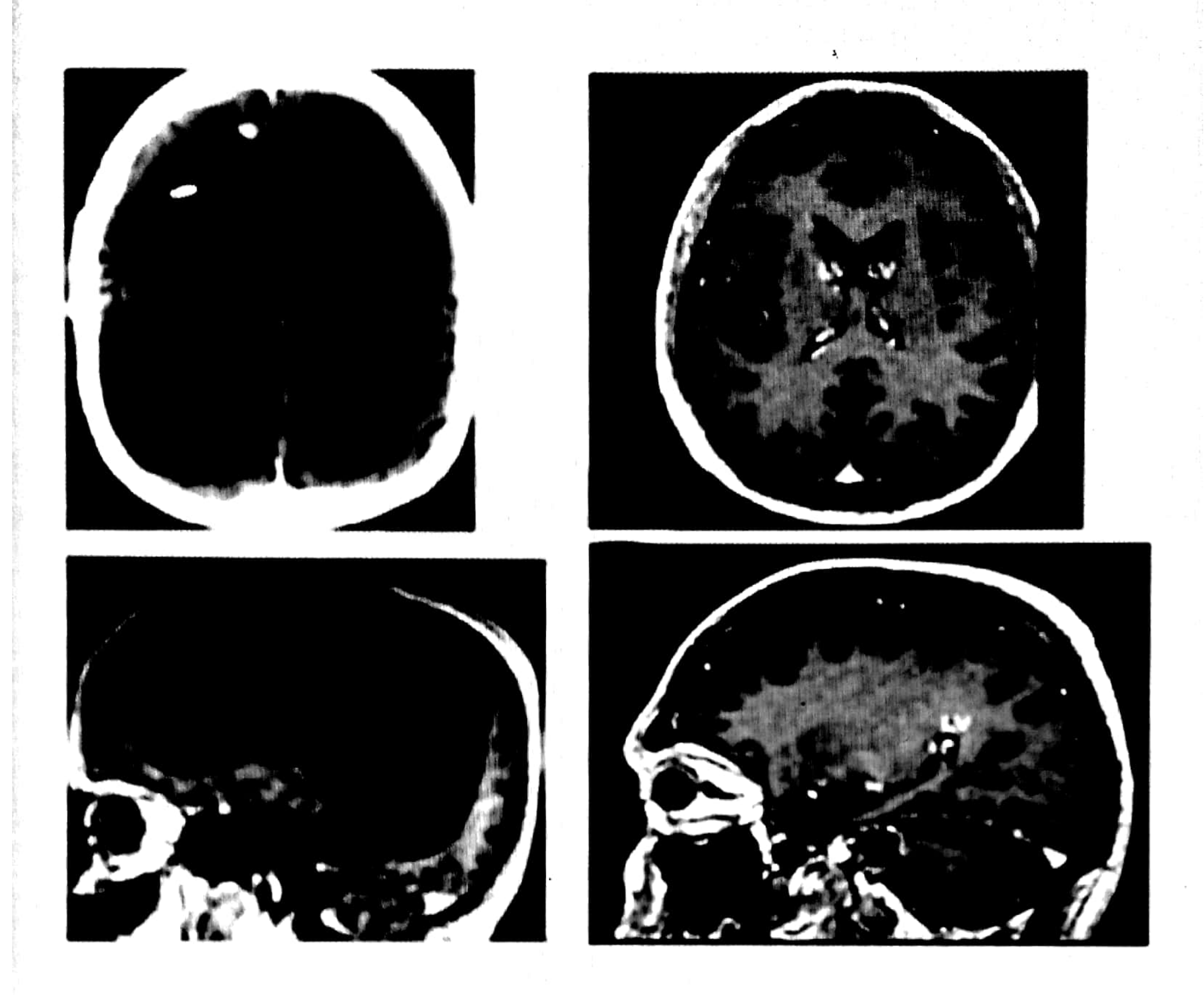
ولهذا السبب فإن الفهمَ التام لمادية الدماغ لن يقود أبداً إلى فهم كامل للوعي. إذ إن أية دراسة للدماغ بصفته الأساسَ المادي للوعي سوف تواجه، في مرحلة ما، حدّاً مطلقاً يبدأ

بعده الوعيَ في تحديد المادة. ويبيّن هذا أن العالمَ السيكولوجي هو بُعدٌ أساسي لا يمكن تقليصه، تحت أية ظروف كانت، إلى العالم المادي أو الكيميائي أو الكيميائي الحيوي. ويعني هذا أيضاً على المستوى العلاجي أن المعالجات السيكولوجية يمكن أن تشكل نوعاً من العلاجات السببية الكاملة.

***

ربما تمثل ميكانيكا الكم الدحضَ الأساسي لوهم التحديد الميكانيكي–المادي للتجارب السيكولوجية، لكنها ليست الوسيلة الأكثر مادية. فهناك ملاحظاتٌ تبيّن بطريقة مباشرة أكثر، صعوبة أو استحالة تقليص البنية النفسية إلى جهاز دماغي ميكانيكي.

على سبيل المثال، هناك بعض الأشخاص الذين مات معظمُ نسيجهم الدماغي ولم يتبقَّ لهم سوى 5% منه، لكنهم يحتفظون بقدراتهم الذهنية ويحققون نتيجة أعلى من 130 في اختبار الذكاء. ومن باب التوضيح، أنا لا أتحدّث هنا عن تأكيدات تخمينية بل عن ملاحظات علمية جاءت في مجلات علمية مثل *The Lancet* و*Science*.(6) فقد بيّنت الصور والتحاليل، بشكل لا يترك مجالاً للشك، أن الفجوة الدماغية عند هؤلاء الأشخاص مليئة تقريباً بالسائل (انظر الشكل 10–3).



الشكل 10–3. مقارنة بين صور شخص يمتلك دماغاً سليماً (إلى اليمين) وشخص بنسيج دماغي ميت تقريباً (إلى اليسار) ولا يزال يحتفظ بوظائفه الذهنية. تبين المناطق السوداء في الجمجمة اليسرى امتلاءَ المساحة التي خلّفها النسيج الميت بالسائل.(7)

من حيث المبدأ، لا تُقصي هذه الملاحظات تحديداً بيولوجياً للوعي. فهي تبيّن فقط أن هذا النوع من التحديد، في حال وجوده، معقّد للغاية في طبيعته، وأن الدماغ – تبعاً لمفاهيم الأنظمة المعقدة والدينامية – يمتلك على الأقل ميزة التنظيم الذاتي وإعادة التنظيم الذاتي. إذ يبدو أن النسيج الدماغي القليل المتبقي قد تكفّل عفوياً بوظائف النسيج الدماغي الميت. لكن إعادة التنظيم هذه تفترض، بحد ذاتها، نوعاً معيناً من الوعي والتصميم في النسيج الدماغي. ولذلك فإن الفرضية القائلة بتحديد الوعي من قبل الطبقات السفلية المادية للدماغ تنتهي في نوع من التفكير الدائري: إن الوعي نتيجة لعمل الدماغ المادي، وعمل الدماغ المادي هو (إلى درجة معينة) نتيجة الوعي.

وفي السياق نفسه، هناك أيضاً التجارب المجراة على ما يسمى باللدونة العصبية. تقود التمارين الذهنية (مثل التدريب الرياضي وتدريب الذاكرة) إلى تغيرات ملحوظة في

الكيمياء الحيوية والهندسة المعمارية للدماغ، حتى على المدى القصير نسبياً.(8) ويبيّن هذا أيضاً أن العلاقة السببية بين الوعي والدماغ ليست علاقة أحادية الاتجاه.

***

يمكننا الإشارة أيضاً إلى سلسلة من الملاحظات التي تُظهر بطريقة مباشرة أن العالم السيكولوجي يمكن أن يكونَ علّة العالم المادي وليس العكس. ويمكن تشكيل بعض هذه الملاحظات من حوادث كثيرة تزخر بها الحياة اليومية. تتمثل بعض هذه الأحداث العادية في الطريقة التي تؤثر بها مشاعرُ معينة على الجسم، أو في انتشار الشيب خلال بضع ساعات فقط نتيجة الخوف أو الحزن الشديدين، على سبيل المثال. أو بمعنى إيجابي، يمكننا الإشارة إلى حوادث يكتسب فيها الأشخاصُ قوة خارقة تنشأ عن ظروف تحتّم عليهم إنقاذَ أشخاص أعزاء على قلوبهم. خذ، مثلاً، قصة لورا شولتز Laura Schultz، الجدة المقيمة في فلوريدا التي كانت في عامها الثالث والستين، وتمكنت في سنة 1977 من رفع العجلة الأمامية للحافلة المدرسية بيد واحدة وانتشال حفيدها من تحتها باليد الأخرى.

يجب أن تفتحَ هذه الأمثلة أعينَنا وتقنعَنا بضرورة بذل المزيد من الجهد لفهم التجارب السيكولوجية بشكل أفضل. فمن الغريب أن معظم الأشخاص يغفلون عن مثل هذه الدلائل المباشرة المتأتية من تجاربهم الشخصية ويقتنعون بسهولة بما "لاحظه" "العلماء" على الرغم من اعتمادهم، في الحالة الثانية، على نوع من "الإيمان الأعمى". ومع ذلك، يسرّني تقديم بعض الاكتشافات العلمية المتعلقة بهذه المسألة.

***

يمكّننا الحقلُ المسمى المناعة العصبية السيكولوجية من تقدير الدور الذي يلعبه القلق والضغط في العدوى الفيروسية (وهو طبعاً شيء مرتبط بأزمة كورونا). نصّ العديدُ من الدراسات على احتمالية موت الفئران بنسبة تبلغ 40% من العدوى الفيروسية نتيجة الضغط المولّد أثناء التجارب.(9) وآلية العمل معروفة: يقود الضغط إلى نقص في المناعة (بشكل أساسي، نتيجة التغيرات الهرمونية وتركز كرات الدم البيضاء)، وبالتالي إلى تعرّض أكبر للفيروسات. فقد أكدت دراسة أجريت في سنة 2016 أن الآليات نفسها تعمل عند الإنسان وتلعب دوراً مهماً في نسب الوفيات في مجموعة من الظروف الجسدية القاسية.

(10) وهناك تقرير يتعلق بأزمة كورونا، صدر في 2008، يقول إن الضغط يؤدي إلى نسبة وفيات أكبر، وخاصة في أمراض الرئة الفيروسية، وإن هذا الأثر أكبر بكثير عند الرجال من النساء.(11) تتوافق هذه المقولة مع الملاحظة العصية على التفسير بوقوع عدد أكبر من الضحايا بين الرجال أثناء أزمة كورونا.

هناك أيضاً بعض الملاحظات، في حقول علمية أخرى، التي لا تحتاج إلى الإحصائيات أو اختبار الحيوانات لتقنعنا بطبيعة القلق المميتة. فمن المعروف في حقل الأنثروبولوجيا أن بعض الأشخاص في ما يسمى بالمجتمعات البدائية يموتون بعد أن يُلقي "الشامان" لعنته عليهم. يصف هربرت بيزدو Herbert Basedow هذا الطقس النمطي كما يحدث عند شعوب أستراليا الأصلية:

يرتسم على وجه الرجل الذي يدرك أن العظمَ السحري يشير إليه انطباعٌ مثير للشفقة. إذ يبدو عليه الارتباك، وتحدق عيناه في العظم المشؤوم، ويمد يديه وكأنه يدرأ عنه قوةً مميتة تسعى إلى اختراق جسده. يشحبُ وجهُه وتصبح عيناه زجاجيتين، وتتشوّه تعابيرُ وجهه بطريقة مقززة وكأنه أصيب بشللٍ مفاجئ. يحاول الصراخ، لكن الأصوات تعلق في حلقه وتتشكل الرغوة على شفتيه. يبدأ جسمه بالارتعاش وتتقلص عضلاتُه بشكل لا إرادي. ينتفض إلى الخلف، ثم يسقط على الأرض ويبدو كأنه غاب عن الوعي للحظة؛ لكن سرعان ما يتلوّى من الألم وهو يغطي وجهَه بيديه ويبدأ بالنواح. وبعد فترة وجيزة، يسترجع شيئاً من توازنه ويعود زاحفاً إلى كوخه. وبعد ذلك يذبل ويقع فريسة المرض، فيرفض تناول الطعام والمشاركة في أنشطة القبيلة اليومية. وفي حال لم يعمل شامان آخر على رفع اللعنة عنه، فإنه يموت خلال فترة قصيرة.(12)

لوحِظَ هذا النوع من الموت على نطاق واسع، ويُعرف في الأدب باسم "الموت نفسيّ المنشأ". ويؤكد هنري إلنبيرغر Henry Ellenberger أهمية إيمان المجتمع الذي ينتمي إليه الشامان والضحية بسلطة الشامان هذه. وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقاً.

ربما ينطبق هذا على شخص بدائي لاعقلاني لم يتخلص من التفكير السحري، ولكن ليس على شخص غربي عقلاني يعيش في القرن الواحد والعشرين؟ لكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. هناك حوادث كثيرة تبيّن أن الإنسان الغربي معرّض جسدياً لمثل هذه الظواهر أيضاً. تُجري البروفسورة ماري-إليزابيث فيمونفل Elisabeth Faymonville-Marie،

اختصاصية التخدير في مشفى جامعة لييج، العملياتِ الجراحيةَ على المرضى تحت تأثير التنويم المغناطيسي منذ عقود طويلة. تبدو العملية، التي عرضها التلفاز الوطني البلجيكي في برنامج وثائقي، غاية في السهولة. تتحدث فيمونفل مع المريض المستلقي على طاولة العمليات بطريقة مهدِّئة، وتُدخِله إلى عالم ذهني مريح، ثم تعطي إشارة خفية للطبيب الجرّاح تشي أن بمقدوره الشروع في العملية الجراحية. عندئذٍ يقوم الجرّاح بفتح الشقوق المطلوبة في الجسد بسهولة بالغة والقيام بمهمته دون أن يشعر المريض بأي شيء. فلنكن واضحين هنا: لا يقتصر الأمر على تدخلات طبية ثانوية، بل يمتد إلى عمليات جراحية مثل استئصال الغدة الدرقية، وزراعة الثدي، أو استئصال الأورام.(13)

تحدث هذه الظواهر بصورة يومية ومتكررة في الممارسة الطبية على هيئة ما صار يُعرف باسم "أثر بلاسيبو". وقد شاع هذا المصطلح بعد الملاحظات الغريبة التي حصلت في ساحات المعارك في الحرب العالمية الثانية. فبعد نفاد المورفين، طلع أحدُ الأطباء بفكرة حقن الجنود بسائل ملحي قبل بتر أعضائهم المتهتكة. وقد ذهل الأطباء عندما لاحظوا أن معظم الجنود وقعوا تحت تأثير المخدر الوهمي وكأنهم حُقنوا بالمورفين فعلاً. ومنذ ذلك الوقت، نشأت أبحاث متزايدة تبيّن أن الحقن الوهمية قادرة على توليد آثار جسدية مذهلة، من فتح الشرايين التاجية في حالات الذبحة الصدرية إلى إعادة تنشيط المناطق الميتة في الدماغ. ويعتقد بعض المؤلفين من أمثال آرثر شابيرو **Arthur Shapiro** وبروس وأمبولد **Bruce Wampold**، المتخصّصين في هذا المجال، أن أثر بلاسيبو ينال حصة الأسد – أكثر من 80% – من تأثيرات التدخلات الطبية.(14) كما يقترح بعض الباحثين، سواء كان اقتراحهم هذا منطقياً أم لا – الاعتماد على الأدوية الوهمية عموماً كبديل عن الأدوية الحقيقية. ويجدر بالذكر هنا أن باحثين آخرين يتوصلون إلى تقديرات أقل على أساس الأبحاث الإحصائية (إذ يقتصر البعض على ذِكر نسبة 10% من أثر بلاسيبو).(15) ربما يجب أن يقودنا هذا كله إلى النتيجة القائلة بضرورة رؤية الأبحاث العددية من منظور دقيق. إذ إن الدراسات التطبيقية البسيطة على التخدير بواسطة التنويم المغناطيسي والمحلول الملحي أكثر قيمة من الناحية العلمية وتؤكد بشكل قاطع أن تأثير العوامل السيكولوجية على الجسم مذهلة، على الأقل في بعض الظروف المعينة.

يبيّن أثر بلاسيبو الأهمية الكبيرة لتجربة المريض الذاتية في التدخل العلاجي. فإن كان الشخص إيجابياً حول هذا التدخل، فهذا يشكل بحد ذاته جزءاً كبيراً من العلاج. لكن العكس

صحيح أيضاً؛ فإن كان الشخص سلبياً حول العلاج، يمكن لذلك أن يؤدي إلى نتائجَ سلبية. ويعرف هذا باسم "أثر نوسيبو". هناك الكثير من الأدبيات الطبية التي تعتقد باحتمال توليد هذا الأثر لمجموعة متنوعة من الأوضاع.(16) فالموت ذو المنشأ النفسي، الذي أشرنا إليه سابقاً، مثالٌ متطرف على ذلك، ويبيّن أن هذه الآثار يمكن أن تكون قوية جداً. ويبيّن لنا هذا، بالإضافة إلى الأسباب الأخلاقية، أهمية الرأي البراغماتي الفكري القائل بمنع العلاج الطبي القسري واحترام حق تقرير المصير.

يبيّن التفحص الدقيق أن آلية الموت ذي المنشأ النفسي، والتخدير بالتنويم المغناطيسي، وأثرَي بلاسيبو هي نفسها في كل مرة: هناك شخص يملك سلطة ما ويستحضر صورة ذهنية قوية عند الفرد المخاطَب. ويمكن لهذه الصورة الذهنية أن تكون إيجابية (أي قادرة على الشفاء) أو سلبية (أي تسبب الموت أو المرض)، ولكن يجب أن تكونَ حاضرة بقوة ووضوح في التجربة وتشتت الانتباهَ عن جميع الأنشطة الذهنية الأخرى. وهكذا فإن الجسم "يتحد"، إذا صح التعبير، مع الصورة الذهنية ويأخذ الجسمُ شكلَ أو وضعَ هذه الصورة الذهنية (أي يتحسّن، أو يموت، أو يمرض).

ربما يكون التأثيرُ الكبير والغريب للصور الذهنية على الجسم قد تبدّى بشكل مقنع في أعمال علماء البيولوجيا. فقد بيّن هاريسون–ماثيوز Matthews–Harrison في تجاربَ مكررة أن مبيض أنثى الحمام لا ينضج إن لم ترَ الحمامة صورة حمامة أخرى (خاصة في حالة تربيتها في قفص معزول).(17) كما بينت التجارب اللاحقة أنه يكفي وضع مرآة في قفص الحمامة لإخصابها (مع أن الخصوبة التي تكتسبها ستكون أقلّ من تلك التي يولّدها وجود حمامة حقيقية أخرى). وقد أجرت ريمي شوفان Rémi Chauvin تجاربَ مماثلة على الجنادب تمخضت عن نتائجَ أكثر أهمية: فعلى غرار الحمام، ظهرت آثار قوية على وظائف الأعضاء، لكن الأنماط اللونية على القواقع كانت مختلفة أيضاً (لم تكن هناك أية بقع خضراء) كما تباينت البنية التشريحية للأرجل الخلفية بشكل منتظم.(18) تم إجراء هذه التجارب بطرق متنوعة، وفي كل مرة كانت النتيجة واحدة؛ إذ كان يتمثل العاملُ الحاسم في وجود الصور الذهنية أو غيابها في التجارب المجراة على الحيوان المعنيّ.

إن الشيء المهم في أزمة كورونا هو التالي: أشار العديدُ من المؤلفين (من أمثال غوستاف لو بون) أن معتقدات الحشد (أي، مجموعة الأشخاص الذين يتماهون مع بعضهم بعضاً) تؤثر على الجسم كما يؤثر التنويم المغناطيسي. فعندما يقع المجتمع بأكمله ضحية

القلق وصور المرض والموت المترافقة معه، فإن هذه الصور بحد ذاتها تصبح عاملاً مسبباً. وكما أشرنا أعلاه، فإن هذا يحدث لأن الضغط النفسي يغيّر البيئة البيولوجية التي يخترقها الفيروس من خلال تجريد هذه البيئة من مناعتها. فكروا أيضاً في مقولة أنطوان بيشامب **Antoine Béchamp**، التي تبنّاها لوي باستور **Louis Pasteur** في أيامه الأخيرة: "الميكروب ليس مهماً؛ البيئة هي كل شيء".

ركزنا، في هذا الفصل، بشكل رئيس على تأثير الصور البصرية على الجسم. لكن هذه الصور نفسها تشكل جزءاً لا يتجزأ من عواملَ سيكولوجية أخرى أكثر أهمية تتمثل في القصص والإيديولوجيات، والعوامل الرمزية. فالطريقة التي تهيمن بها السرود القصصية على الإنسان والمجتمع مذهلة بقدر ما تتعرض لإساءة الفهم. فكما بيّنّا سابقاً في الفصلين الثالث والرابع، يتعرض كلُّ طِفل للعمليات اللغوية في سن مبكرة. فهو ينشأ ضمن سرد يقدمه الأهل وعادة ما يكون مشتركاً بين مجموعات اجتماعية أكبر تتوسع لتشملَ المجتمعَ كلّه في نهاية الأمر. ودائماً ما تأخذ هذه القصة، في جوهرها، شكلَ الأسطورة التي تقدم إجابة رمزية على الأسئلة المستعصية. فهي تقدم منظوراً معيناً للحياة، وتفسر الأشياءَ المهمة والأشياء الأقل أهمية، وتحدد ما يجلب السلامَ وما يولّد الخوف. وقد بيّن دارسو أصول الأعراق والثقافات (ethnography)، من أمثال مارسيل ماوس **Marcel Mauss**، أنها تحدد أشياءَ أكثر من ذلك بكثير.(19) إذ تحدد ما ستحبّه وما سترفضه (فعلى سبيل المثال، أعين السمك طبق شهي وفاخر في الكونغو، لكنّ الأوروبيين يعتبرونها مقززة)، وكيف يتحرك الجسم (قارن بين مشية اليابانيين ومشية الأفارقة)، والأفعال الانعكاسية الأساسية التي يجب علينا تبنّيها عندما نشعر بالألم (فمثلاً، تختلف الطريقة التي يسحب بها الأشخاص أيديهم عند الشعور بالألم من ثقافة إلى أخرى)، إلخ. فليس من قبيل المبالغة القول إن أجسامَنا رهينة للسرد الأسطوري الذي نشأنا فيه.

لهذا السبب يمكن لإجراء طبي يستند بشكل تام، أو في معظمه، إلى الكلمات والسرود أن يتركَ آثاراً كبيرة على الجسم. ويمكن للمرء أن يقرأ نصوصاً مثل ***L'efficacité Symbolique*** [التأثير الرمزي] لعالم الأنثروبولوجيا البلجيكي-الفرنسي العظيم كلود ليفي-شتراوس **Strauss-Claude Lévi** للتأكد من الأثر الكبير الذي تتركه البنى الرمزية على المجتمعات وعلى الأفراد الذين يشملون تلك المجتمعات.(20) إذ تتحكم هذه البنى بالوظائف الذهنية والجسدية بشكل تفصيلي. فعلى سبيل المثال، يصف ليفي-شتراوس

كيف قام رجال الشامان في الغابة المطرية البرازيلية بمعالجة امرأة تعاني من بعض التعقيدات أثناء الولادة من خلال طقس يستخدم نصاً قبَلياً معروفاً يُقرأ أو يُغنّى بطريقة طقسية للمرأة الحامل أثناء المخاض العسير. ويحتوي النصُّ على سلسلة من الشخصيات المأخوذة من الأساطير القبَلية ويروي كيف عبَرَت بعض الأرواح الخيّرة رواقاً ضيقاً يؤدي إلى كهف تحتجز فيه الأرواحُ الشريرة الطفل. وقد تفاوضت الأرواح الخيّرة مع الأرواح الشريرة حتى وافقت الأخيرة على إطلاق سراح الطفل. وعندما وصلت الأغنية إلى هذه المرحلة من القصة، بدأت عملية الولادة. بيّن ليفي-شتراوس أن الأناشيد "استدعت" جسمَ المرأة، أي أنها أعادت ربط جسمها الذي يعاني من الخلل بالأسطورة التي نشأت فيها المرأة بحيث تتمكن من تحريك جسمها في الاتجاه المرغوب. أكّد ليفي-شتراوس أن هذه الطريقة كانت ناجحة دوماً. والأغرب من هذا أنّ رجال الشامان قد قاموا بعملياتهم بطريقة حدسية دون أن يدركوا أنهم يولّدون تلك الآثار من خلال فعالية إطارهم الرمزي (الأسطورة).

لا يختلف الإنسانُ الغربي في القرن الواحد والعشرين، من هذه الناحية، عن البرازيليين المحليين الذين يتحدث عنهم ليفي-شتراوس. فقد نشأ إنسانُ التنوير أيضاً في أسطورة تتمثل في قصة تحكي عن أصله، وتدفعه إلى تبنّي رؤية معينة للحياة، وتربط مشاعرَه السلبية والإيجابية بمحرّضات معينة. وهذه الأسطورة هي قصة الكون الميكانيكي، الآلة العظيمة التي انطلقت نتيجة الانفجار الكبير، حيث يعمل الإنسانُ كآلة صغيرة ضمن آلة الكون العظيمة. وعندما يتعلق الأمر بالمرض والصحة، فالسلطة التي تنبثق في هذه القصة ليست الشامان بل الخبير الطبي. ويؤدي هذا الخبير، على غرار الشامان، طقساً يُعيد فيه أجسامَ المرضى إلى نظامها السابق. وعلى غرار الشامان أيضاً، فإن الطبيب المعاصر لا يمتلك أكثر من إدراك محدود للأثر الهائل الذي يتركه الإطارُ الرمزي الذي يعمل من خلاله على تدخلاته، كما يعتقد هو أيضاً بعدم أهمية السيكولوجيا في حالات الشفاء التي يشهدها في ممارساته الطبية. لا تبين لنا المساهمة الهائلة لأثر بلاسيبو اعتمادَ الممارسة الطبية الكبير على تأثير الصور البصرية فقط، بل استنادها إلى الآثار الرمزية.

على الرغم من التأثير القوي والواضح للعوامل السيكولوجية على المجال الجسدي، يميل البشرُ - والغربيون منهم بشكل خاص - إلى التركيز على البعد المادي-البيولوجي للحياة والنظر إلى العالم السيكولوجي بمثابة شيء ثانوي. وأشعر، بشكل جزئي فقط، أنني أشكّل استثناءً في هذا المجال. لكنّ إنكارَ سبب المشكلة عادة ما يساهم في تصعيدها ومفاقمتها.

لكن علينا الالتفات أيضاً إلى الأخبار الجيدة التي تنطوي عليها هذه القصة. فالنتائج المتأتية من دراسة أثري بلاسيبو والتنويم المغناطيسي تبيّن بشكل قاطع أن الصور السلبية ليست الوحيدة التي تؤثر على الجسم؛ إذ إن الصور الإيجابية تخلّف أثراً مماثلاً ولكن بطريقة معكوسة. لكنني أميل إلى الشك في قدرة أثري بلاسيبو والتنويم المغناطيسي على التأثير القوي بهذه الطريقة. إذ إن الأسلوبين ينطويان على شبهة أخلاقية؛ لأن أثري بلاسيبو – في جوهرهما – شكلٌ من أشكال الخداع، كما أن عقلَ الشخص الذي يخضع للتنويم المغناطيسي يخضع لإيحاءات المنوِّم.

ربما تكمن الأهمية الكبرى في الأمثلة التي تبيّن الأشخاصَ الذين يكشفون، من خلال تمسكهم بالمبادئ الأخلاقية، عن تمتعهم بنوع مذهل من الصلابة الجسدية. ففي رواية ***The Gulag Archipelago*** **[أرخبيل غولاغ]**، يصف سولجنتسن، من بين أشياءَ أخرى، القصة المؤثرة لغريغوري إيفانوفيتش غريغورييف، السجين الذي قضى سنواتٍ في معسكرات الاعتقال النازية ثم انتهى به المطاف في معسكرات الغولاغ في الحقبة الستالينية. فقد تميّز عن الجميع نتيجة صدقه ونُبله الأسطوريين. لقد رفض القيام بالمهمات التي يعتبرها منافية للأخلاق، على الرغم من العقوبات القاسية التي تعرض لها؛ إذ رفض المشاركة في الممارسة الشائعة بين السجناء الذين يسرقون طعامَ بعضهم بعضاً كلما سنحت الفرصة لذلك، كما أنه تمسك بالقوانين الأخلاقية التي يؤمن بها. يقدم سولجنتسن التوصيفَ التالي حول تأثير نقائه الروحي على جسمه:

وأكثر من ذلك: فنتيجة الأثر الكبير لروحه الإنسانية النقية والبهية على جسمه (مع أن لا أحد اليوم يؤمن بهذا النوع من التأثير أو يفهمه حتى)، اكتسبت الوظائفُ الجسدية لغريغوري إيفانوفيتش، الذي لم يعد شاباً (إذ كان يقارب الخمسين)، قوةً ومناعة في المعسكر؛ فقد اختفى روماتيزم المفاصل الذي كان يعاني منه لفترة طويلة، كما استعاد عافيته الكاملة بعد شفائه من مرض التيفوئيد، حيث كان يرتدي الأكياسَ القطنية في الشتاء، بعد أن يصنع فيها ثقوباً ليديه ورأسه، دون أن يصاب بالزكام.(21)

من المؤكد أن استكشافَ الاحتمالات التي تقدمها المقاربة السيكولوجية للكائنات البشرية، كبديل للمقاربة البيولوجية-الاختزالية، يمثل واحداً من أكبر التحديات المستقبلية. فإن فشلنا في الارتقاء إلى هذا التحدي، فربما لن نقعَ على حلّ دائم للأزمات الراهنة والمستقبلية.

إن نزوعنا للتشكيك بالملاحظات العلمية المذكورة أعلاه حول السببية السيكولوجية يعود إلى هيمنة الأوهام الميكانيكية–المادية على عقولنا. لكنّ العلمَ لا يلزمنا على الإطلاق باعتبار التجارب السيكولوجية نتاجاً سلبياً للعالم المادي. فعلى النقيض من ذلك، توصلت التجاربُ العلمية المتقدمة – راجع، مثلاً، كلمات هايزنبيرغ، وبور، وماكس بلانك، وإرفن شرودنغر المقتبسة سابقاً – إلى نتيجة مغايرة. فالطريق إلى فهم أفضلَ للبيولوجيا والمادة لا بد أن يمرَّ عبر فهم بنية حياتنا السيكولوجية. ولهذا السبب، يجب على العلم أن يضع على قائمة مهماته الأساسية استكشاف بنية التجربة السيكولوجية، وتوضيح قوانينها، ودراسة الإمكانات التي يمكن أن توفرها هذه البوابة التي تقود إلى الكائن الإنساني.

في رأيي، من الضروري التمحيص العلمي الدقيق في مسائلَ مثل أثر بلاسيبو. إذ يجب ألا تساهمَ في الانغماس في نوع من المعرفة الباطنية المتناقضة مع العقل. بيّن ليفي–شتراوس، في دراساته الأنثروبولوجية البنيوية، إمكانية تقديم توصيف كامل تقريباً لآثار القصص والصور بطريقة عقلانية. ويتسم توصيفه هذا بصرامة علمية مذهلة، كما أنه – في الوقت نفسه – مناقض للتفكير الميكانيكي في طبيعته. هذه هي المنهجية الصحيحة: العلم الذي يرفض الوقوعَ في أسر الإيديولوجيا الميكانيكية بل يدفع بالتحليل العقلاني للواقع إلى حدوده القصوى، إلى أقاصي المعرفة العقلانية، إلى حيث يتجاوز العقلُ نفسَه.

الفصل الحادي عشر

العلم والحقيقة

التوتاليتارية هي الاعتقاد بقدرة العقل الإنساني على توجيه الحياة والمجتمع. فهي تهدف إلى بناء مجتمع طوباوي زائف تقوده مجموعة من التكنوقراط أو الخبراء تضمن، استناداً إلى معرفتها التقنية، سير المجتمع بطريقة مثالية. وتبعاً لهذه الرؤية، يخضع الفردُ تماماً للتشكيل الجمعي، ويُختزَل إلى مجرد سنّ في عجلة المجتمع (راجع، على سبيل المثال، كتابَ برتراند رَسل *The Impact of Science on Society* [تأثير العلم على المجتمع]). (1)

كان مفهومُ المجتمع التكنوقراطي كامناً في تقليد التنوير، وخاصة في فرعه الوضعي. فقد عبّر مفكرون وَضعيّون من أمثال هنري دو سان-سيمون Simon-Henri de Saint وأوغست كومت Auguste Comte عن إيمانهم العميق بمجتمع إنسانوي-تكنوقراطي يلعب فيه العلماءُ والتكنوقراط دورَ البابوات والقساوسة؛(2) هذه هي الطريق المؤدية إلى مجتمع طوباوي خالٍ من الحروب والنزاعات، إلى مجتمع يمثّل مملكة الحرية.

تمثل النازية، وربما بشكل أكبر الستالينية، المحاولتين التاريخيتين الأكثر طموحاً لتطبيق الإيديولوجيا التوتاليتارية. كانتا تسعيان إلى تحقيق نوع من الفردوس الذي يبرّر تأسيسه كل شيء: العزل، والوصم، والإبادة المنظمة لكل مجموعة سكانية لا تنسجم مع الصورة المثالية المتخيلة. وفي كلا المثالين التاريخيين، تحتّمَ تخليقُ المجتمع الطوباوي عبر التطبيق الوحشي لمنطق صارم وقاسٍ (انظر الفصل السابع).

ولكن من الخطأ الشنيع تحديد ظاهرة التوتاليتارية في الأنظمة التوتاليتارية فقط. فهناك توجّه شمولي دائم يتمثل في محاولات دؤوبة للتحكم بالحياة بطرق بعيدة المدى على أساس المعرفة العلمية التقنية. فالتفكير التكنوقراطي يمشي دوماً على ساقين. فمن جهة، يقدم للناس صورة إيجابية عن فردوس زائف يمكن أن يخلصنا من جميع محننا وآلامنا. ومن جهة أخرى، يفرض نفسَه أساس القلق كضرورة ملحة لحل جميع المشكلات. فقد برزت هذه العملية مع نشوء جميع "مواضيع القلق" في مجتمعنا خلال العقود الأخيرة مثل الإرهاب، والمشكلة المناخية، وفيروس كورونا. إذ إن خطرَ الإرهاب يستدعي ضرورة تأسيس جهاز رقابي تبدو معه خصوصيتنا اليوم نوعاً من الرفاهية المستهترة؛ ولكي نسيطر

على المشكلات المناخية، علينا التحول إلى اللحوم المنتجة مخبرياً، والسيارات الكهربائية، والمجتمع الإلكتروني؛ ولكي نقي أنفسَنا من كوفيد-19، علينا استبدال مناعتنا الطبيعية بمناعة صنعية يتم توليدها عبر اللقاحات.

تبدو الثورة الصناعية الرابعة، التي يتحد فيها الإنسانُ جسدياً مع التكنولوجيا، والتي تشكل النمطَ الإنسانوي المثالي، ضرورةً حتمية. إذ على المجتمع كله أن يتحول إلى إنترنت جسدي يتعرض فيه الجسم الإنساني إلى المراقبة الرقمية، والتعقب الرقمي، والملاحقة من قبل حكومة تكنوقراطية. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكّننا من السيطرة على المشكلات المستقبلية. ولا يوجد أي بديل. وأي شخص يرفض الخضوع لهذا الحل التكنولوجي هو ساذج و"عدو للعلم".

***

تميل التوتاليتارية والتكنوقراطية إلى تقديم نفسيهما بصفتهما قمة العقلانية والعلم. فالفردوس التكنوقراطي سيجلب السعادة والصحة للناس أو يقدم لهم، على الأقل، فرصة لتحقيق ذلك. فمع أجهزة الاستشعار المزروعة تحت الجلد، يمكن تسجيل ونقل جميع التغيرات الكيميائية-الحيوية. ويمكن فحص أي شخص يُظهر علاماتٍ مرضية وتقديم العلاج المناسب له. ولتحقيق ذلك بطريقة فعالة، يجب إخضاع كل شيء للمراقبة الدائمة والرتيبة والسيطرة الحكومية. فحقيقة أن الكائن الإنساني عبارة عن زهرة لا تتفتح إلا في ظل الخصوصية الممتع لا تحتل أهمية تذكر في هذه الرؤية التكنوقراطية للعالم. وأي شخص يرفض الانصياع لهذا النظام يفتقد إلى الحس المدني ويعتبر نفسه أهمَّ من المجتمع. فصحّتك لم تعد شأنك الخاص لأن بعض الأمراض معدية. ولكن تبيّنَ على مدى عقود طويلة، حتى في المنظور التشييئي البيولوجي-الاختزالي، أن السيطرة (الحكومية) الزائدة تشكل خطراً على الصحة. ولكي نستخدم مثالاً على العدوى الفيروسية، يمكننا القول إن التحكمَ يقود إلى الضغط، والضغط يؤدي - بدوره - إلى إضعاف المقاومة الجسدية في حالات العدوى الفيروسية (انظر الفصل العاشر، مثلاً، حيث تؤدي العدوى إلى وفيات أكثر بنسبة 80%). فالعمل على أساس التحليل البيولوجي-الاختزالي وصفة جاهزة للفشل، حتى على المستوى الجسدي الصرف. إذ لا يمكن فهمُ مسار العدوى الفيروسية على أساس العمليات الميكانيكية المجهرية؛ فالسياق السيكولوجي والاجتماعي والاقتصادي يلعب دوراً مهماً. كان هيغل **Hegel** يدرك سلفاً أن "الحقيقة هي الكل".(3)

هذا بالضبط ما أظهره لنا العلمُ في القرن العشرين بطريقة مذهلة: جميع الأشياء الصغيرة والكبيرة مرتبطة ببعضها بعضاً، وكل شيء يشكل جزءاً من نظام دينامي معقد وممتد.

لكي نفهمَ مسارَ المرض الفيروسي – والصحة والسعادة، بشكل أعمّ – علينا التأمل في الإنسان والمجتمع ومراعاة مبادئ الطبيعة. فبهذه الطريقة يمكننا إحياء القضايا الحياتية الكبرى التي عملت الإيديولوجيا الميكانيكية على تهميشها: من نحن بصفتنا كائناتٍ نمتلك الرغبة؟ وكيف نتعاطى مع الآخرين، ومع أجسامنا، ومع المتعة، والطبيعة، والموت؟ وما هو مكاننا في الطبيعة؟ لن نحصل أبداً على إجابات نهائية وقاطعة على هذه الأسئلة. وسيكون على كل شخص أن يعيد تشكيل الإجابات عن هذه الأسئلة في كل وضع جديد، كما لا يمكن تحديدها بشكل نهائي بطريقة عقلانية صرفة (انظر الفصل التاسع). إذ إن مبتغى العلم لا يتمثل في تحقيق الفهم العقلاني التام أو التحكم بالحياة، لكنه يكمن في القبول النهائي بوجود حدود للعقلانية الإنسانية، وبأن المعرفة لا تنتمي إلى الإنسان بل يجب موقعَتها في النظام الأعمّ الذي يشكل الإنسانُ جزءاً منه.

***

وصلنا هنا إلى حقل متوتر مثير للاهتمام. فمن جهة، بمقدورك أن ترى تطورَ العلم كنموٍّ متواصل للمعرفة العقلانية، كعدد متزايد من الظواهر التي تبيّن لنا القوانينَ التي تخضع لها. ولكن من جهة أخرى، يمكنك أيضاً أن ترى مسارَ العلم كعملية تقود إلى جوهر لاعقلاني للأشياء، إلى شيء يراوغ الفهمَ الإنساني. وهذا "الشيء" ليس مجردَ جانب ثانوي للأشياء الملاحظة، بل يشكل جوهرَ الحياة نفسه (انظر الفصل الثالث). وعلى هذا المستوى يمكننا أن نستنتجَ أن استمرار عقلنة العالم يفاقم شعورَ البشر بعجزهم عن القبض على جوهر الحياة واختبارهم المتزايد لتجاربَ تنطوي على العبثية والقلق والاضطراب السيكولوجي والإحباط (الجزء الأول). ومن المتوقع أن سلسلة الأزمات التي تواجهنا سوف تكشف بوضوح عن التناقضات الكامنة في الإيديولوجيا الميكانيكية وفشل العلاجات العقلانية المزيفة المتولدة عنها، كما أن مجموعة معينة من الشخاص سوف ترى بوضوح أكبر ما سبق لمؤسسي العلم رؤيته: إن جوهر الأشياء لا يتكشف عبر المعرفة العقلية، كما لا يمكن اختزال الواقع إلى أطر ميكانيكية. وعندما ندرك ذلك، يمكننا أخيراً أن نبدأ البحث عن جوهر الحياة حيث يمكننا أن نقع عليه فعلاً: في الأشياء التي لا تنفك تراوغ العقلنة والمَكْنَنَة؛ فيما يتلاشى من المحادثة عندما نقوم برَقمَنتها؛ في الفرق بين رحم الأم ورحم بلاستيكية

صنعية، وفي الفرق بين الحرارة الناجمة عن السخان الكهربائي وتلك المتولدة عن مدفأة الحطب، وهكذا.

***

إن رحلة العلم لا تنتهي بالمعرفة المتفوقة بل بنوع من التواضع السقراطي. فالإنسان الذي خاض هذه الرحلة يعرف تماماً أن المعرفة العقلية نسبية وأنها تنأى عن جوهر الموضوع الذي يسعى إلى فهمه. ففي نهاية هذه الرحلة يواجه شيئاً لا يمكن استيعابه عن طريق المنطق والعقلانية. وقد أقرّت العقولُ العلمية الكبيرة هذه المواجهة بطرق متباينة جداً. كان ألبرت آينشتاين Albert Einstein يحب التحدث عن الغموض المراوغ الذي وجده في كل مكان من هذا الكون وعن بنية الواقع الرائعة. وفهم نيلز بور أن الشعرَ قادرٌ على القبض على الأشياء الحقيقية أكثر من المنطق.(4) كما قال ماكس بلانك إن المادة، بجميع أنواعها، متأصلة في عقل واعٍ وذكي يمسك بمصير العالم والإنسان بيده القديرة:

بصفتي رجلاً كرّس حياته كلها للعلم البحت المتمثل في دراسة المادة، هذا كل ما يمكنني أن أقوله لكم بعد جميع الأبحاث التي أجريتها حول الذرات: ليست هناك مادة بهذا المعنى! فالمادة، بجميع أنواعها، تنشأ وتوجد فقط نتيجة قوة تسبب اهتزازَ جزيئات الذرة وتتحكم في هذا النظام الشمسي الدقيق للذرة... وعلينا أن نفترض وجودَ عقل واعٍ وذكي خلف هذه القوة. فهذا العقلُ هو منبث جميع أنواع المادة.

يتطلب الدين والعلمُ إيماناً بالله. فبالنسبة إلى المؤمنين الله هو البداية، وبالنسبة إلى علماء الفيزياء يبقى هو أيضاً علة الأشياء النهائية. فمن وجهة نظر الفريق الأول، هو الأساس، وبالنسبة إلى الفريق الثاني يشكل تاجَ كل رؤية شاملة للعالم.

إن أولئك الذين يؤمنون أن الله وُجد قبل ظهور الكائنات الإنسانية على وجه الأرض، وأنه يمسك بالعالم كله - مؤمنين وغير مؤمنين - بيده العليا إلى الأزل، وأنه سيبقى متربعاً على عرش عصيّ على الإدراك البشري بعد أن تفنى الأرضُ وما عليها بوقت طويل، ويتمسكون بهذا الإيمان الراسخ ويهتدون به بوقار وثقة، ويشعرون بمأمن من مخاطر الحياة تحت حماية الخالق القادر على كل شيء، هم فقط المتديّنون الحقيقيون.(5)

تخلّى معظمُ مؤسسي العلم عن الرؤية العقلانية. فإذا ألقينا نظرة على الأعمال التأملية لهؤلاء المؤسسين - آينشتاين، وفيرنر هايزنبيرغ، وإرفن شرودنغر، ولوي دو بروغلي

Louis de Broglie، وبلانك، وبور، وولفغانغ باولي Wolfgang Pauli، والسير آرثر إدينغتون Sir Arthur Eddington – فسوف نكتشف أنهم يحملون رؤية صوفية لأنهم واجهوا في أبحاثهم أشياءَ تنطوي على لغز عصيّ على الحل.(6) لا يعني هذا، بأي شكل من الأشكال، الانتقاصَ من أهمية العقل والمنطق. لكنه يعني أن العقلانية لا تشكل وُجهةَ الإنسانية الأخيرة. إذ على الإنسانية أن تقف بثبات على طريق المنطق لكي تتجاوز العقلانية في نهاية المطاف.

***

تخلّى العلماءُ العظام عن الخطاب العلمي القائم على المنطق والحقائق وعادوا بطريقة متنورة إلى ذلك النوع من الخطاب الذي بدا ثانوياً خلال عصر التنوير: الخطاب الشعري أو الصوفي الذي يكشف عن احترام وتبجيل كبيرين للمجهول، لذلك الشيء الذي لا ينفك يراوغ العقلَ البشري. يبرز هنا شيء مثير للاهتمام: إن المسارَ الذي اتخذه العلم مماثلٌ بنيوياً للمسار الذي يتخذه كل طفل (أو غالبية الأطفال، على الأقل) خلال تحوّله إلى ذات. سوف أكرر التحليلَ السيكولوجي التطوري الذي قدمته في الفصل الخامس لكي أموقعَ هذا في منظور أعمّ.

يبدأ كل طفلٍ حياته بنوع من التناغم التكافلي مع أمه يتحقق عبر اللغة (الجسدية) المبكرة. وعند بلوغ الطفل مرحلة المرآة، ينتهي هذا التناغم المباشر. وبعد ذلك يسعى الطفل، بعناد كبير وبطريقة منطقية، تحديد الكلمات التي تشير إلى الأشياء. فالموضوع النهائي الذي يحاول القبضَ عليه يتمثل دوماً في رغبة الآخر. ماذا يريد الآخر؟ ومن ثم ينشأ توقُه إلى فهم خطاب الآخر من الدافع في أن يصبحَ موضوعَ رغبة الآخر. فمن جهة، يفتح هذا الموقعُ إمكانية المتعة النرجسية ويولّد، من جهة أخرى، انغماساً في الاستقلالية والقلق. إن المحاولات الحثيثة لتثبيت معنى الكلمات تجردها من قدرتها على توليد التكافل؛ إذ إن تثبيت المعنى هذا يؤدي إلى فقدان الكلمات لطاقتها الترجيعية، كما أن الأصواتَ تتوقف عن إنتاج ذلك الترابط الذي كانت تولده في الأشهر الأولى من حياة الطفل. وبهذه الطريقة، نرى ترابطاً بين عدد من العناصر: السعي المحموم إلى الفهم المنطقي–العقلاني، والنرجسية، والاستقلالية، والقلق، والعزلة الاجتماعية.

عندما يبلغ الطفل الثالثة والنصف، وبعد مرحلة المرآة، تحدث ثورة هائلة ثانية في تجربتهِ الذاتية. إذ يدرك عجزَ الكلمات عن التدليل على معانٍ محددة، كما يدرك أن اللغة

البشرية تعاني من نقص جوهري لا يمكن تعويضه وأن اليقينَ التام ضربٌ من المستحيل. وهنا يهتزّ ذلك الوهمُ النرجسي بأن يصبحَ الموضوعَ النهائي لرغبة الآخر، وفي البداية يواجه الطفلُ ذلك الخوفَ الأساسي في العالم النرجسي والمتمثل في التعرض للإهمال كشيء يمكن التخلص منه لأنه لا يلبي حاجات الآخر. وعند ذلك، يمكن للطفل الاختيار بين طريقين ممكنين. ففي الطريق الأول، ينأى بنفسه عن الخوف النرجسي ويحاول القبضَ على اليقين من خلال التعلق بعناد بأكبر بالنرجسية والعقلانية (الزائفة). وبهذه الطريقة، ينزلق الطفل في حالة من العزلة المتزايدة، كما يهوي في متاهة القلق والإحباط.

أما الاحتمال الثاني فيتمثل في اكتشاف الطفل في ذلك اللايقين نوعاً من الفسحة التي تسبغ المعنى على الحياة بطريقة خلاقة وتعمل على تطوير الفردانية؛ إذ إن تلاشي ذلك الدافع لأن يشكلَ موضوع رغبة الآخر يفسح المجالَ أمامه لكي يصبحَ نفسه ويحققَ شخصيته الخاصة. ينتهي هنا سعيُ الطفل إلى المتعة التي يستمدها من كونهِ موضوعَ رغبة الآخر ويبدأ البحثَ عن إعجاب الآخرين بفردانيته ككائن إنساني؛ بطريقته الشخصية في الاختيار والتعامل مع الآخرين ككائن إنساني. وفي هذا الطريق، يطور الأطفالُ حساسية متزايدة تجاه استخدام اللغة بطريقة لا تستند إلى الحقائق والمنطق، أي إلى استخدام اللغة بطريقة تنطوي على الفردانية والإبداع. فمن خلال استخدام اللغة بهذه الطريقة يستعيدُ الطفلُ، بشكل جزئي، وظيفة اللغة التناغمية والارتباط مع الآخر. إذ إن مرونة هذا الاستخدام اللغوي – حيث لا حاجة لربط كل كلمة بمعنىً واحد محدد – تسمح لتبادل الأصوات بنقل شيء من فردانية المتحدثين (المراوغة والغامضة) إلى بعضهم بعضاً. وفي هذه المرحلة، يتحول الكلامُ من كونه أداةً لنقل المعرفة إلى كونه حقيقة ذاتية.

في هذا الطريق سوف ينتقل الطفل من الموقع النرجسي لجلالة الطفل، من الطفل الذي يتوقع من الآخر أن يكون في خدمته دوماً، إلى موقعه كإنسان بين الكائنات الإنسانية الأخرى. ومن خلال هذا التحول سوف يحرر نفسه أيضاً. فهو لم يعد يعتمد على الأبوين اللذين يعرفان ما هو مسموح وما هو غير مسموح، ما هو مقبول وما هو غير مقبول في كل وضع جديد، كما يعي المبادئ العامة التي تنظِّم العلاقات الإنسانية والتي عليه أن يهتدي بها إلى درجة معينة. يمكننا أن نرى هنا أيضاً ترابطاً بين عدد من العناصر: القدرة على تقبّل اللايقين، والحساسية تجاه اللغة التناغمية، والإنسانوية، والفردانية، والاستقلال، والتواصل مع الآخر.

•

تحدث هذه الثورة بدرجات مختلفة عند كل طفل ولا تنتهي أبداً. إذ تتكون الحياة كلها، بمعنىً من المعاني، من محاولة تخليق فسحة شخصية في العلاقة مع الآخرين. ويُجهد بعض الأشخاص أنفسَهم من أجل تحقيق هذا الهدف، بينما يبذل بعضهم الآخر جهداً أقل، ولكن لا أحد ينجو من هذه المهمة الوجودية في الحياة. وكلما تقدم الإنسان في هذه العملية، امتلك قدراً أكبر من القوة والطاقة الخلاقة. ومع أن القدرات الكامنة التي يمكن تحقيقها في هذا الطريق تبقى غامضة بعض الشيء، إلا أن الأثر الهائلَ للعالم السيكولوجي على الجسم، والذي تناولناه في الفصل السابق، يكشف عن إمكانات خارقة. إن مستقبل الإنسانية يكمن في هذا المسار، وليس في المسار الميكانيكي الذي يتجاوز البعدَ الإنسانوي.

***

توصّل العلمُ، ومجتمع التنوير المنبثق عنه، إلى مفترق الطرق نفسه الذي يصل إليه كلّ طفل يواجه اللايقين الأساسي الذي يميز وجودَه وموقعَه في علاقته مع الآخر. يمكننا، كمجتمع، أن نجانبَ القلقَ وننكر اللايقين الذي نعيش فيه، أو يمكننا أن نتحدى قلقنا النرجسي ونتقبلَ اللايقين. ويعني الخيارُ الأول أننا نبحث عن الحل في إيديولوجيا علمية (زائفة)، وعقلانية زائفة، ويقين زائف، وسيطرة تكنولوجية؛ وبهذه الطريقة، سوف نواجه المزيد من القلق والاكتئاب والعزلة الاجتماعية. وسوف نتعامل مع هذا الوضع بالمزيد من المحاولات العنيدة الرامية إلى التحكم بما لا يمكن التحكم فيه، مما يفاقم يأسَنا أكثر فأكثر. بيّنا في هذا الكتاب أن النهاية المنطقية لهذه الحلقة المفرغة تتمثل في الجمهرة والتوتاليتارية، أي في التدمير التام للإبداع الإنساني، والفردانية، والتنوع، وكل شكل من أشكال الترابط الاجتماعي (باستثناء الرابطة بين الفرد والدولة الجمعية). يمكننا أن نرى، في جميع التجليات المجتمعية، كيف تتقدم هذه العملية نحو هدفها النهائي. فللمرة الأولى في التاريخ نرى القرية العالمية كلها في قبضة عملية الجمهرة نفسها، كما نرى تصعيداً غير مسبوق في التحول التكنولوجي والميكانيكي على مستوى العالم إلى درجة وصل معها التحكمُ إلى صلب الحميمية والحياة الخاصة. ولذلك وصلنا اليوم إلى نهاية الحلقة، إلى اللحظة التي تبلغ فيها الإيديولوجيا المهيمنة وُجهتَها النهائية، ثم تنتفض بكامل قوتها للمرة الأخيرة لتكشفَ عن عجزها بطريقة أكيدة ونهائية.

عند اختيار الطريق الثاني، يتحدى المجتمعُ قلقَه ويدرك أن اللايقين متأصلٌ في الوضع الإنساني ويشكل شرطاً أساسياً لنشوء الإبداع والفردانية والترابط الإنساني. وفي هذا

الطريق، يصبح المجتمع فضاءً يعمل فيه الترابط والفروقات الفردية على تعزيز بعضهما بعضاً بشكل متبادل – على النقيض من الأنظمة التوتاليتارية حيث تطغى الجماعة على الحرية الفردية ويتلاشى التنوعُ ويتم استبداله بهوية الدولة الرتيبة. لقد سبقنا العلمُ العظيم على هذا الطريق؛ فقد تبع العقلَ إلى نهايته المطلقة، حيث فتح البابَ أمام شكل جديد من المعرفة، وشكل جديد من الترابط، ووجود إنساني مبني على مبادئ مختلفة.

إن الطريق الذي سلكه العلمُ للوصول إلى هذه المرحلة مشابه، من الناحية البنيوية، للعملية التي يمر بها الطفل. فالعلمُ الشاب يبدأ أيضاً من الاعتقاد بإمكانية فهم الموضوع المدروس بشكل كامل من خلال التحليل المنطقي. فالحقائق منطقية – وكيف لها أن تكون غير ذلك؟ ولكن كلما تقدم التحليلُ المنطقي للظاهرة المدروسة، لاحظ المرءُ نشوءَ جوهر لامنطقي وعصيّ على العقل البشري. وكما يحدث مع الطفل، فإن تلك اللحظة تولّد إدراكاً بنسبية المنطق وحساسية هائلة للأشكال اللغوية التي لا تهدف لأن تكون مفهومة بشكل منطقي بل تقود إلى علاقة مباشرة وتناغم مع الموضوع (الشعر، والصوفية، إلخ).

افتتحت هذا الكتاب بالقول إن نشوءَ الرؤية الميكانيكية للعالم والجنس البشري شكلت ثورة على مستوى معرفة العالم. تبعاً للرؤية الدينية، تلقى الإنسانُ المعرفة عن طريق الله. ولذلك فإن مصدر المعرفة يقع خارج الإنسان. لكن هذا تغير كله مع مجيء الرؤية الميكانيكية للعالم، إذ أصبح الإنسانُ مصدرَ المعرفة. فقد بات بمقدوره تحصيل المعرفة بنفسه من خلال ملاحظة الحقائق واستكشاف علائقها المتبادلة عبر التحليل المنطقي. ولكن في نهاية الرحلة، على العلم أن يستنتجَ مرة أخرى أن المعرفة تكمن خارج الإنسان (راجع، على سبيل المثال، الاقتباس المأخوذ من بلانك سابقاً في هذا الفصل).

إن المعرفة النهائية تكمن خارج الإنسان. فهي تنبض في جميع الأشياء. ويمكن للإنسان أن يتلقاها من خلال توليف نبضه وفقاً لتردّد الأشياء. وكلما نجح الإنسانُ في تحييد تحيّزاته ومعتقداته، تمكّن من التناغم مع حركة الأشياء المحيطة به وتلقّي المعرفة الجديدة. هذا أحد التأويلات الممكنة لأطروحة رينيه ثوم القائلة إن العلماءَ العظام لا يملكون بالضرورة قدرة استثنائية على التفكير المنطقي بل قدرة هائلة على التماهي مع الأشياء التي يدرسونها (انظر الفصل الأول).(7)

يشكل العلمُ واحدة من الطرق التي تقود إلى هذا التماهي. كما أن تعلّم حرفة ما يولّد هذه القدرة أيضاً. وتتمثل نقطة البداية في المعرفة المنطقية المتماسكة للموضوع قيد التصنيع

والعملية التقنية المطلوبة لتصنيعه. فعندما تتعلم تطبيق تلك المعرفة بطريقة عملية، ينمو لديك شعور تجاه الأدوات والمواد التي تستخدمها يتجاوز أي معرفة منطقية بالأشياء. وهذا بالتحديد ما يشكّل جوهرَ الحرفي؛ ذلك الشعور – علاقته بحرفته ومعرفته بها، أي حِرفيّته – الذي لا يمكن أن يتخلّقَ إلّا من خلال الممارسة الطويلة والدقيقة. ولهذا السبب لا يمكنك أن تصبحَ حرفياً باعتمادك على المعرفة النظرية المتراكمة فقط.

يشكل تعلّم أحد الفنون مثالاً رائعاً. ففي البداية، تتعلم مجموعة من القواعد المنطقية المتماسكة، وبعد سنوات من الممارسة العملية تنشأ علاقة تتجاوز جميع هذه القواعد. وفوق ذلك، تصبح القواعدُ عبئاً ثقيلاً يجب التخلص منه. هناك مثَلٌ ياباني يقول إن على المرء حماية قواعد الفن إلى أن يتمكّنَ من كسرها. قال ماساكي هاتسومي Masaaki Hatsumi، معلّم فنون النينجا الشهير، إنّ على التلميذ أن يتعلم تقنيات فنه القتالي لكي ينساها في نهاية المطاف.(8) إن التخلي عن التقنيات، بعد ممارستها التي تضمن تدريبَ الجسم وتشذيبه، أكثرُ صعوبة من تعلّمها. ولكن من الضروري القيام بذلك. فأي شخص يحتاج إلى التفكير في التقنيات في ساحة القتال سوف يموت. كما قال المعلمُ نفسه إن الممارسة الطويلة للفنون القتالية تؤدي إلى إدراكنا بأن الأسلحة تمتلك إرادة خاصة بها وعلينا تفادي استعبادها. فلكلّ سيف شخصيته الخاصة به، وينزع للتحرك بطريقة معينة؛ فإن تمكنتَ من استشعار رغبته الحرَكية هذه، سوف يحقق لك ما تأمله منه.

إن القدرة على التماهي تلعب دوراً أيضاً في علاقتنا مع أجسامنا. فأجسامنا غريبة عنا في جوهرها. إذ تتفاعل مع جميع أنواع المحرِّضات – الطعام، والأشخاص الآخرين، والأوضاع المختلفة – وهي تفعل ذلك بشكل مستقل عنا، دون معرفتنا أو إرادتنا. ويمكننا أن نتعلم كيفية الشعور بأجسامنا خلال سنوات حياتنا؛ عبر فنون معينة مبنية على الحركة أو التأمل، وعبر الملاحظة الدقيقة لتأثير العوامل المختلفة (الغذاء، والتمارين الرياضية، إلخ) على أجسامنا، وربما من خلال التعبير المتكرر عن تجاربنا الجسدية بالكلمات أثناء جلسات العلاج السيكولوجي. فمن يستمع إلى جسده ويفهم لغتَه يحمل مفتاحَ الصحة. فالشعور بالجسد أكثر أهمية من أي الأدوية الطبية، وأكثر أهمية أيضاً من أي معرفة عقلانية "موضوعية" عن الطعام الصحي، على سبيل المثال.

وبالطريقة نفسها، على الإنسان أن يدرك نفسَه بصفته كائناً سيكولوجياً، بصفته مزيجاً من التجارب والأفكار والمشاعر الذاتية، وخاصة في تخلّقها في علاقاته مع الآخرين. إن قدرتنا

على استشعار تجربتنا الخاصة والتعبير عنها في علاقتنا مع الآخر هي التي تشكل جوهرَ وجودنا ككائنات حية. وبالتساوق مع ما تناولته في الفصل الثالث، فإننا نوجَد ككائنات إنسانية عندما نتمكن من إعطاء شيء من فرديتنا للآخر من خلال الكلام الكامل، أي ذلك النوع من الكلام الذي يحمل شيئاً من نبضنا الحقيقي ويتردد صداهُ في فضاء التفاعل مع الآخر. فمن خلال فن الكلام الكامل – وهو الفن الذي نتعلمه، على سبيل المثال، في علاج التحليل النفسي – نتمكن من تحقيق تواصل حقيقي مع الآخرين والعالم المحيط بنا (دون أن نتخلى عن أنفسنا).

ومن خلال هذا الفن أيضاً يمكننا، ككائنات بشرية وكثقافة ومجتمع أيضاً، أن نتعامل مع الموت بطرق مختلفة. فتبعاً للرؤية الميكانيكية والبيولوجية–الاختزالية للإنسان، تبدَى الألمُ والوهنُ والموت كأشياءَ عبثية بلا معنى؛ إذ لا تظهر كأشياءَ لديها ما تقوله وما يعلّمنا بصفتنا كائنات إنسانية. ربما تمثل هذه المشكلة الكبرى في "السرد الميكانيكي العظيم": لا يحتل السيد الأرضي النهائي – الموت – مكاناً مقبولاً فيه. ولا يعجبه ذلك. ونتيجة تغييبه عن القصة، فإنه يرعبنا ويولّد ردوداً هستيرية على كل تهديد، سواء كان الإرهاب أو الفيروسات، تثبت أنها أكثر ضرراً من المشكلة نفسها. ولن تتمكنَ ثقافتنا من تخصيص مكان جديد للموت من خلال الإيمان بسرد عظيم جديد، بل من خلال تطوير فن الكلام الكليّ ومن خلال تعزيز التواصل مع الموضوع. إذ من شأن التواصل مع الآخر ومع العالم، والتناغم مع الكل، أن يحّرر الأنا من قيودها الضيقة. وبالمعنى الحرفي، إن تواصلنا مع الأشياء الخارجة عنا كفيلٌ بتمكيننا من تجاوز حدودنا الشخصية وتوسيع عالم تجاربنا وفتحه على وجود يتطاول في الزمان والمكان بشكل لا متناهٍ. فمن خلال التناغم مع الفضاء الأكبر نشارك في أبدية الكون كالقصب المتمايل في هواء الحياة الأبدي.

***

هناك شيء في لبّ الأشياء لا يمكن للمنطق القبض عليه، ولذلك يجب التعبير عنه بالكلام المتجدد دوماً. كل محاولة للتعبير عنه من خلال الكلمات مآلها الزوال؛ فكل لقاء جديد يستحضر كلماتٍ جديدة، كلماتٍ تتخلّق مباشرة من التواصل مع الموضوع. فكما قال ماكس جيكوب، "الحقيقة جديدة دائماً".(9) إن التواصل مع الموضوع يُنتج "الحقيقة"، طريقة متجددة في الكلام، الخاصية الجوهرية ليس للأشياء الصحيحة منطقياً بل لتلك الأشياء التي تتناغم بطزاجة وصدق مع ما تتكلم عنه. إذ يمكن للشعر، الذي يبدو عبثياً أحياناً من

منظور منطقي، أن يحمل قدراً أكبر من الحقيقة مما يحمله خطابٌ مبنيٍ على القياسات المنطقية الصارمة.

أصبحت "الحقيقة" مفهوماً ينطوي على مفارقة تاريخية، فهي تبدو بالية وقديمة الطراز. في كتابه *The Courage of Truth* [جرأة الحقيقة]، يميّز الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو بين البلاغة والحقيقة.(10) فالشخص الذي يستخدم البلاغة يحاول أن يزرعَ في الآخر أفكاراً ومعتقدات لا يحملها هو. أما بالنسبة للشخص الذي يقول الحقيقة، فالعكس هو صحيح. إذ يحاول بصدق التعبير عن فكرة أو تجربة تحيا في داخله للشخص الآخر من خلال كلامه؛ أي أنه يحاول إحياء شيء يشعر به في الشخص الآخر.

في القرون الأخيرة، وخاصة في العقود الأخيرة، امتلأ الفضاءُ العام بالبلاغة. فقد اعتدنا سلفاً على البلاغة من السياسيين. إذ لم يكن أحدٌ يتوقع منهم أن يفوا بوعودهم الانتخابية أثناء توليهم لمناصبهم. وقد تقبّل الناس هذا الأمر تدريجياً؛ فالخطابُ الانتخابي الذي يقدمه السياسي مصممٌ للإقناع فقط. وفي حقيقة الأمر، ينطبق الشيء نفسه على الإعلانات التجارية. فالأغبياء فقط يصدقون أنها ترسم صورة دقيقة للمُنتج الذي تعمل على ترويجه. وخلال أزمة كورونا، أدركنا أن الأمرَ لا يختلف كثيراً بالنسبة إلى أولئك الذين يقدمون أنفسهم بصفتهم علماء. فما يقولونه اليوم سيتراجعون عنه غداً بالتأكيد.

إن التحولات الحقيقية والثورة التي يجب على المجتمع أن يواجهها تتمثل في التخلص من البلاغة واللجوء إلى الحقيقة بصفتها مبدأً موجِّهاً. ميّز فوكو بين أربعة أشكال من قول الحقيقة: النبوءة، الحكمة، المهارة التقنية، والقول الجريء.(11) يتعلق كلٌّ من هذه الأشكال الأربعة بالقدرة على التناغم مع موضوع والتعبير عن هذا التناغم في الكلام الحقيقي ونقله إلى الآخرين. فالنبوءة قوة تنبؤية لا تتأتى من الفهم المنطقي وإنما – كما قال الرياضي والفيلسوف العلمي الفرنسي العظيم أونري بوانكاريه – من القدرة على استشعار القصة التي تهيمن على الواقع. أما الحكمة فهي القدرة على الصمت وترك الآخر يستمع إلى كلماته. والمهارة التقنية هي القدرة على التحدث بلغة تقنية صحيحة وإنتاج خطاب يعتمد على المنطق والحقائق ويعكس بنية الموضوع الذي يشير إليه. وأخيراً، تدلل الجرأة على الشجاعة في التعبير العلني عن الكلمات التي تقوّض خطابَ المجتمع المغلوط. سوف تكون عملية إعادة تثمين ظاهرة قول الحقيقة المؤشرَ الحقيقي لتقدم الثورة الضرورية للتغلب على نزعة التوتاليتارية المتأصلة في تقليد التنوير.

***

وأخيراً يمكن أن نسألَ أنفسنا: أليس التخلي عن مثال العقلانية شيئاً خطِراً؟ يدفعني هذا السؤالُ إلى تأمل سريع تحول دون ابتذاله جدّيةُ الموضوع فقط. خمسة وثلاثون ألف طفل يموتون من الجوع كلَّ يوم. لماذا يزعج فيروش الجماهيرَ ولا تزعجهم هذه الحقيقة؟ تبعاً لرؤيتنا العقلانية إلى الإنسانية، لماذا لا ننقذ هؤلاء الأطفال الجياع بكلفة أقل من كلفة محاولة إنقاذ الأشخاص المهددين بفيروس كورونا، دون المجازفة بفقدان الحريات المدنية، ودون الأخطار المرتبطة بالتدخلات الطبية التجريبية؟ لا أحد يصاب بالذعر من أجل طفلٍ يموت في الجانب الآخر من العالم. هذه هي الحقيقة المقلقة. إن عقلانية وإنسانوية التنوير مجرد قناع وورقة تين. أزيلوا القناعَ عن وجه الإنسان وسوف ترون اللاعقلانية ماثلة أمام أعينكم؛ انظروا خلف ورقة تين العقلانية وسوف تقعون على الرذائل الإنسانية القديمة.

لا تمنعنا الرؤية الكونية العقلانية من تحرير التفكير اللاعقلاني. فعلى النقيض من ذلك، إنها تمنعنا من إدراك اللاعقلانية. وبهذه الطريقة، تأخذ اللاعقلانية أبعاداً غرائبية. ومن جهة أخرى، من يعرف حدودَ عقله يصبح عادة أقلَّ غطرسة وعنجهية وأكثرَ إنسانية، كما يصبح أكثر قدرة على تقبّل اختلاف الآخر. فعندما يتوقف عقله عن الصراخ، يتمكّن من سماع أشياء الحياة وهي تتمتم قصتَها الخاصة بها. إذ يدرك أنه يملك هو أيضاً قصته الخاصة به. إن الإدراك بأن المنطق ليس شيئاً مطلقاً هو شرط الحرية الذهنية. فالثغرة الموجودة في المنطق تفتح لنا مجالاً لأسلوبنا الخاص ورغبتنا في الإبداع. "كنت أتعافى أثناء عملي الإبداعي"؛ بهذه الطريقة وصف غوته دواءَه في محاربة المرض المسمى بالحياة. فهل يكون هذا الدواء نافعاً في محاربة الفيروسات أيضاً؟

على أية حال، يكفل هذا الدواء قدرتَنا على احترام حق التعبير وحق تقرير المصير دون أن نشكلَ خطراً على بعضنا بعضاً. فهو قادرٌ على التخفيف من القلق والتوتر والإحباط والعدائية، دون الحاجة إلى عدو. هذه هي المرحلة التي لن يكون علينا فيها أن نضيع في الحشود لكي نجد المعنى والتواصل، وحيث يفسح خريفُ التوتاليتارية المجالَ أمام ربيع الحياة الجديد.

كلمة شكر

لا يمكننا أن نصف بالكلمات من أين تأتي الكلمات. لكننا نعرف إلى أين تذهب الكلمات؛ إنها دوماً في طريقها إلى الآخر. فالإنسانُ مَعبرٌ ضيق تعبره الكلمات في رحلتها من المصدر إلى الآخر.

إن الكلمات التي وجدت طريقَها إلى هذا الكتاب كانت تستريح لسنوات طويلة في مجموعة من الخربشات والملاحظات. لكن أزمة كورونا هي التي دفعتني لكي أطلقَها في العالم. فخلال تلك الأزمة نشأ "آخَر" تتوق إليه تلك الكلمات. أود أن أشكر جميعَ الأشخاص الذين عبروا عن آرائهم عن مقولاتي في المقالات والتدوينات الصوتية والمقابلات. فقد كانت تفاعلاتهم الإنسانية - كما تلقيتها عبر وسائط التواصل الاجتماعي والإيميلات والرسائل - هي التي مكنت الكلمات من التفتح ومنحتني الرغبة في الكلام والتعبير عن أفكاري من خلال الكتابة.

أحب أن أشكرَ الكثير من الأشخاص الذين قدموا لي منبراً لأتحدث منه. أفكر بشكل خاص في مارليز ديكرز Marlies Dekkers وآد فيربروغي Ad Verbrugge. كما يبدو ستوديو De Nieuwe Wereld مألوفاً؛ فاللقاء هناك، وتناول كأس من النبيذ، له طعم العودة إلى الوطن. إن الظروف التي كتب فيها هذا الكتاب جعلت الكلامَ والكتابة موضوعاً حساساً وفعلاً يجب إنجازه وسط مقاومة اجتماعية قوية. أوجه شكري لأولئك الأشخاص الذين خاضوا تجربة مواجهة هذه المقاومة ودخلوا حياتي، من خلال ذلك، بطريقة غير متوقعة ليصبحوا بعد ذلك أصدقاء أعزّاء. لا أستطيع ذكر أسمائكم كلّكم، لكن كل واحد منكم يعرف أنني أفكر فيكم جميعاً وأنا أكتب هذه الكلمات. سوف تحتلون مكاناً خاصاً في قلبي وفكري على الدوام.

في آب/ أغسطس 2021، أمسكت بالقلم وبدأت بكتابة هذا الكتاب. وقد فرضت عليّ الناشرة نانسي ديربوفن Nancy derboven برنامجَ كتابة صارماً أود أن أشكرها عليه هنا! كما أريد أن أشكرَ مارغو بولدوين Margo Baldwin للحماسة الشديدة التي أبدتها تجاه كتابي. إلس فانبرابانت Els Vanbrabant وبرايان غودسبيد Brianne Doodspeed: شكراً جزيلاً لترجمتكما المتقنة لهذا الكتاب. أوجه شكري الخاص للدكتور روبرت مالون Robert Malone على جهوده الحثيثة الرامية إلى تنبيه العالم الأنغلو-سكسوني إلى كتابي؛ روبرت، لقد سررتُ بلقائك في إسبانيا وآمل أن نلتقي ثانية في المستقبل القريب!

قمت بجمع الكثير من الأفكار والملاحظات حول التوتاليتارية من مجلتي العلمية والمقالات وأدمجتها في كتابي. أود أن أشكر جميعَ الذين قرؤوا الفصولَ الأولية وعلقوا عليها خلال عملية الكتابة: ديبرا دسميت **Debora Desmet**، وليزي بريين **Liesje Breyne**، ونتالي دو نيف **Nathalie De Neef**، وستيفت فاوترز **Steven Wouters**، وتينيكي دو كوك **Teneke De Cock**. فلولا استعدادكم للإصغاء إلي، لما كان لهذا النص أن ينضجَ بهذه الطريقة. شقيقتي الصغرى ديبرا، شكراً على تنبيهي لمراجعة الأزمنة وتذكيري المستمر بوصايا نيتشة العشر في الكتابة؛ ليزي، طالما طلعتِ بأشكال تعبيرية أبسط حيث تعلق الكلمات في تراكيبَ معقدة؛ نتالي، إن تعليقاتك واقتراحاتك الطريقة طالما وضعتني على الطريق الصحيح؛ ستيفن، شكراً لك لتزويدي بمراجعَ إضافية مهمة وتصحيحاتٍ دقيقة؛ تينيكي، شكراً على تشذيب النص والارتقاء به من خلال المساءلة النقدية لكل جملة من هذا الكتاب والمطالبة الشرسة بتوخي الوضوح المنطقي. وأخيراً، فاليري: شكراً على مراجعة وتدقيق المخطوطة، ولكن فوق كل شيء على تحمّل هفواتي والليالي القصيرة خلال الشهر التي سبقت ولادة هذا الكتاب، وعلى استعدادك الدائم للإصغاء إلى تأملاتي اللامتناهية وأفكاري المرتجلة.

ماتياس دسميت

تشرين الثاني/ نوفمبر 2021، ميغم

مراجع

مقدمة

(1) Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism* (London: Penguin Books, 1951): 622.

(2) Maaike Schwering, "Himalaya voor het eerst in dertig jaar zichtbaar door schonere lucht" [Himalayas visible for the first time in thirty years through cleaner air], *Knack*, August 4, 2020, https://weekend.knack.be/lifestyle/reizen/natuur/himalaya-voorhet-eerst-in-dertig-jaar-zichtbaar-door-schonere-lucht/articlenews-1586287.html.

الفصل الأول

(1) Immanuel Kant, "Beantwortung to the Frage: Was it Aufklärung?" [Answer to the question: What is Enlightenment?], *Berlinische Monatsschrift* (December 1784): 481-94.

(2) Michel Foucault, *De moed tot waarheid* [The courage to truth] (Amsterdam: Boom, 1978).

(3) Max Jacob, *Cornet a dés* [Dice box] (Paris: Jourde and Allard, 1917).

(4) W. Heisenberg, "Über den anschaulichen Inhalt der quantentheoretischen Kinematik und Mechanik" [On the physical content of the quantum theoretical kinematics and mechanics], *Zeitschrift für Physik* 43, (1927): 172-98.

(5) René Thom, *Prédire n'est pas expliquer* [To predict is not to explain], Champs sciences, Editions Eshel, trans. Roy Lisker (IHES edition, 2010): 92.

(6) Elisabeth Margaretha Bik, Arturo Casadevall, and Ferris Fang,"The Prevalence of Inappropriate Image Duplication in Biomedical Research Publications," *mBio* 7, no. 3 (July 2016): e00809-16.

(7) Owen Jarus, "Famed Archaeologist 'Discovered' His Own Fakes at 9000-Year-Old Settlement," *Live Science*, March 12, 2018, https://www.livescience.com/61989-

famed-archaeologist-created-fakes.html.

(8) I. M. D. Souza and A. M. L. Caitite, "The Amazing Story of the Fraudulently Cloned Embryos and What It Tells Us about Science, Technology, and the Media," *Historia, Ciencias, Saude—Manguinhos* 17, no. 2 (2009): 471–93.

(9) Joseph Hixson, *The Patchwork Mouse* (Garden City, New York: Anchor Press, 1976).

(10) Isabelle De Groote et al., "New Genetic and Morphological Evidence Suggests a Single Hoaxer Created 'Piltdown Man'," *Royal Society of Open Science* 3, no. 8 (August 2016): 160328, https://doi.org/10.1098/rsos.160328.

(11) Gretchen Vogel, "Psychologist Accused of Fraud on 'Astonishing Scale'," *Science* 334, no. 6056 (November 4, 2011): 579–79, https://doi.org/10.1126/science.334.6056.579.

(12) Daniele Fanelli, "How Many Scientists Fabricate and Falsify Research? A Systematic Review and Meta-analysis of Survey Data," *Plos One* 4, no. 5 (2009): e5738, https://doi.org/10.1371/journal.pone.0005738.

(13) Mona Baker and Dan Penny, "Is There a Reproducibility Crisis?" *Nature* 533 (May 26, 2016): 452–54.

(14) C. Glenn Begley and Lee M. Ellis, "Drug Development: Raise Standards for Preclinical Cancer Research," *Nature* 483 (March 2012): 531–33, https://doi.org/10.1038/483531a.

(15) Andrew Chang and Phillip Li, "Is Economics Research Replicable? Sixty Published Papers from Thirteen Journals Say 'Usually Not'," Finance and Economics Discussion Series 2015-083 (September 2015): http://dx.doi.org/10.17016/FEDS.2015.083, retrieved from https://www.federalreserve.gov/econresdata/feds/2015/files/2015083pap.pdf.

(16) C. Glenn Begley and John P. Ioannidis, "Reproducibility in Science: Improving the Standard for Basic and Preclinical Research," *Circulation Research* 116, no. 1 (January 2015): 116–26, https://doi.org/10.1161/CIRCRESAHA.114.303819.

(17) John P. Ioannidis, "Why Most Published Research Findings Are False," *PLoS Medicine* 2 (August 2005): e124, https://doi.org/10.1371/journal.pmed.0020124.

(18) Mattias Desmet, *The Pursuit of Objectivity in Psychology* (Ghent: Borgerhoff & Lamberigts, 2018).

(19) G. J. Meyer et al., "Psychological Testing and Psychological Assessment: A Review of Evidence and Issues," *American Psychologist* 56, no. 2 (February 2001): 128–65.

الفصل الثاني

(1) Benjamin Kidd, *The Science of Power* (New York/London: Putnam's Sons, 1918): 18–19.

(2) David Graeber, *Bullshit Jobs* (Amsterdam: Business Contact, 2018): 16.

(3) Graeber, *Bullshit Jobs*: 23.

(4) Graeber, *Bullshit Jobs*: 27.

(5) Graeber, *Bullshit Jobs*: 18.

(6) R. M. Giusti, K. Iwamoto, and E. E. Hatch, "Diethylstilbestrol Revisited: A Review of the Long-Term Health Effects," *Annals of Internal Medicine* 122, no. 10 (May 1995): 778–88, https://doi.org/10.7326/0003-4819-122-10-199505150-00008.

(7) Arthur Shapiro, *The Powerful Placebo: From Ancient Priest to Modern Physician* (Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1997).

(8) Bruce Wampold et al., "The Placebo Is Powerful: Estimating Placebo Effects in Psychotherapy and Medicine from Randomized Clinical Trials," *Journal of Clinical Psychology* 61, no. 7 (July 2005): 835–54, https://doi.org/10.1002/jclp.20129.

(9) Gaia, "Nieuwe cijfers: wereldwijd 79,9 miljoen dierproeven" [New figures: 79.9 million animal tests worldwide], *Gaia*, April 24, 2020, https://www.gaia.be/nl/nieuws/wereldproefdierendagnieuwe-cijfers-wereldwijd-799-miljoen-dierproeven.

حول الكتاب

نبذة

العالم تحت قبضة توتاليتارية حديثة تتوجّه نحو توحيد التفكير وتنويم مغناطيسي جماعيّ خَطِر.

وكما الهستيريا الجماهيرية التي أطاحت بالسّاحرات في العصور الوسطى، أصبح اليوم كلُّ مواطن مختلف برأيه عن الجماعة مضطهداً ومقموعاً.

يقدّم أستاذ علم النفس المشهور عالميّاً ماتياس ديسميت نقداً حادّاً لـلتفكير الجماعي، ويفكّك العوامل النفسية والاجتماعية التي تسمح لهذا التفكير بالسيطرة.

كتابٌ يطلق صفّارة الإنذار لمنعِ تدمير الذات والحفاظِ على التفكير النقدي وحرية الاختيار لدى الفرد.

قيل في الكتاب

'يُنذر بخطرٍ وشيك Robert F. Kennedy, JR '

عن المؤلف

ماتياس دسميت أستاذ علم النفس السّريري في جامعة غينت البلجيكية، ومعالج متخصّص في التّحليل النفسي. نشر مئات المقالات والأبحاث الأكاديميّة، وحاز جوائز عدة من بينها جائزة Wim Trijsburg من الجمعية الهولندية للعلاج النفسي عام 2019.